«الرواية الفائزة بجائزة
اتحاد كتاب مصر لعام ٢٠١٣»

عمار علي حسن



رواية

شجرة العابد



دار الشروق

شجرة العابد

عمار علي حسن

تصميم الغلاف: وليد طاهر

الطبعة الأولى ٢٠١١

طبعة دار الشروق ثانية ٢٠١٤

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

© دار الشروق

٨ شارع سيبويه المصري

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

www.shorouk.com

رقم الإيداع ١٤٨٤٢/ ٢٠١٢

ISBN 978-977-09-3152-0

عمار على حسن

شجرة العابد



دار الشروق

إهـــداء

إلى الذين...

جاءوا من الشوارع الخلفية. من البيوت الخفيضة التي نامت طويلا على الضيم والفقر والصبر. جاءوا جيوشا جرارة إلى قلب المدن. سواعد فتية، وحناجر تطلق ضجيجها الهادر في وجه الظلم والفساد والجبروت فتصده وترده. قلة منهم سبقتنا إلى هناك، حيث الراحة الأبدية في رحاب ذي الجلال. كانوا أبرياء فضحوا بأرواحهم. الأغلبية عادت صامتة إلى الأزقة والحارات المغبونة، تضرب النرد على المقاهي من جديد، وتروض الوقت انتظارا لفرصة حياة كريمة.

إلى هؤلاء...

صناع الثورة المصرية الحقيقيين، الذين فتحوا أمام أقدامنا، التي تورمت من الجلد والسحل والقهر، طريقا وسيعا نحو الحرية، وجعلونا نشعر أن كل ما خطته أناملنا من حروف لم يكن حرثا في بحر.

«كلُ شوقٍ يسكنُ باللقاءِ لا يُعَّول عليه»

محيي الدين بن عربي

(١)

آه يا حفصة. آه يا وجعي الجميل. استدار الزمن، وتسربت الأيام من بين أصابعي. أنت مستريحة الآن في الملكوت الأعلى، وأنا معذب بالانتظار، أروض النسيان، لكنه يأكل روحي بلا هوادة. ما يزيد على مئة عام وهيئتي على حالها، كأنني لا أزال أدب وراء شيخي القناوي في شوارع المحروسة منتظرا لحظة الانقضاض على السلطان الجائر. تعاقب السلاطين، وغارت أمامي كل حالات التمرد. واحدة بقيت مشتعلة طيلة الوقت، إنها محاولة الانتصار على نفسي. ألم تبوحي بذلك ذات يوم يا حفصة؟ ألم تطلبي هذا وأنا أقول لك: أنت شيخي وأنا مريدك.

كنت تنظرين في الأفق وكأنك ترين كل ما يأتي وتقولين لي في ثقة: «ستتذكر كل هذا في أيام لا تعد ولا تحصى وأنت ذائب في نور يملأ أرجاء خلوتك الطويلة» ثم تتوهين برهة وتواصلين: «شجرتك أنت هناك، ليست على باب مغارة، إنما تحت سفح جبل مديد، أعطته من روحها فاخضرت أحجاره حتى ولو لم يسقط عليها مطر. هناك

بالقرب من الماء العذب الجاري بلا انقطاع، حطت اليمامة الموعودة رحالها، وبدأ كل شيء».

ها أنا قد وصلت إلى غايتي يا حفصة، علوت على شهواتي. تساميت حتى صرت غريبًا على الجميع، قريبًا إلى نفسي. وصلت إلى النهاية التي جاهد أبوك من أجلها ولم ينلها. ربما كانت الأقدار رحيمة به. فمن يدري أين يكون الخير؟

* * *

استلقيت على ظهري، وتاه بصري في الأغصان والأوراق والثمار، وضاع أنفي في رائحة لم أشمها من قبل. ارتفع وجيب قلبي، وخالط زقزقة عصافير، رنت لحنًا لم أسمعه يومًا من أيامي. ورأيت هناك يمامة بنية فاقع لونها تسر الناظرين. عيناها وسيعتان وكأنها غمستهما في قارورة كحل. كانت تنظر إليّ بامتنان، ثم ترفرف بجناحيها، فيتراقص داخلي فرح عميم، وتتساقط عن روحي كل همومها.

فاضت عيناي بدموع غزيرة، وتاه عقلي في مسارب لا نهاية لها، وشعرت برغبة في النعاس، لكن النوم لم يأت أبدًا، بقيت بين صحو ونوم، وحضور وغياب، ووعي وسكر، وشعرت أن الزمن توقف، وفارقتني رؤى الليل وأحلامه إلى غير رجعة، ونسيت كل ما جرى ورائي من عاديات الأيام، حلوها ومرها. لم يبق في ذاكرتي سوى وجه حفصة، وبيرق الحاج حسين، وعكاز الشيخ القناوي، ومشاهد متناثرة من أيامي الغابرة في قريتي العزلاء المنسية.

رميت أذني فسمعتها تحكي في صوت رائق. تحكي وكأنها تخاطب الناس أجمعين، لكنني أنا وحدي الذي أسمعها وأراها، وهي واقفة في شموخ يتحدى

الزمن. كان الكلام يتساقط من فروعها، أو يخرج من تحت لحائها، أو يأتي من جوفها العميق، لا أدري. لكن الحروف كانت صافية جلية، بلغتي التي تعلمتها في صحن الأزهر. كل شيء مدهش، لكن الدهشة نفسها انعقد لسانها أمام ما سمعته منها وهي تتحدث، بينما الجبل يهتز، والماء يتماوج ويفيض.

* * *

هكذا بدا العابد حين رآني أول مرة، وكان يصلني كل ما يدور برأسه، فأبتسم راضية. كنت أعرف أنه يعرفني بعد أن أحاطه رسولي خبرًا بأنني هنا منذ مئات السنين، أشرع أجنحتي في خلاء أصم، عند سفح هضبة عريضة، تطل على نهر وسيع، يجري بلا هوادة، ليلقي حتفه بين طيات الملح والأهوال المفتوحة على البلاد البعيدة.

ولدت في أحضان أمواج الحصى المدببة، التي انغرست في سنابك خيول ونعال جنود سرية شاردة من جيش الفرنجة، وفي أخفاف الإبل التي لم تكف يوما عن الغدو والرواح. فر الغزاة مدحورين، وبقي المكان عصيا على كل إنس وجن ليس مأذونا له بأن يطأه.

حتى المماليك المدججون بالجبروت، انحرفت تجريداتهم التي لا تنتهي عن هنا، وولت الدبر. كانت كلما اقتربت خيولهم من المكان صدها شيء لا يعرفونه، فتراجع. تصهل وتتقافز وتتقهقر، ثم تعدل وجهتها وتطوي الأرض باتجاه المحروسة.

ذات يوم تهادت البقعة التي تحملني فوق صدرها أمام ريح أصابتها نوبة جنون فغرفت الرمل الساف، وخفيف الحصى، وفاض غضب السحب الداكنة، فانهمرت المياه من الجهات الأربع، وسالت بغزارة وجرفت أمامها كل شيء.

ما إن انحسر الماء، وجف ريقه، حتى اكتشف عابرون مروا من هنا يوما أنه قد وهب المكان من الحصى أكثر مما أخذ، حيث جاء من حضن الهضبة بأطنان مدببة كالأشواك وألقاها، وثبتها البلل القديم في الصخر، فصارت كحقل شوك جارح، يتجنبه السائرون.

كان هذا قبل أن أطل على الدنيا بسنين طويلة، وربما قبل أن تنبت بذرة أمي المسكينة في رحم شجرة وارفة أمر بقطعها رجل من رجال الغلام الفاطمي الغرير، الذي أسموه العاضد لدين الله، وأجلسوه على عرش مصر.

فلا تجعلوا الأسئلة تثقل رءوسكم بالهموم، لأنكم لن تعرفوا إلا ما أبوح به، وإن بحث فستدركون القليل مما انطويت عليه من أسرار تكويني.

قفوا أمامي غارقين حتى آذانكم في العجب. وبدلا من الحيرة التي يمكن أن تقتلكم، دعوا ألسنتكم تلهج بالتسابيح لرب الكون العظيم، الذي منحني صورة، ملأت أفئدة من مروا من هنا، وسمحت لهم برؤيتي، فهاموا بي، وأرادوا جميعا أن يحطوا رحالهم تحت قدمي، لكن قوة عجيبة جذبتهم إلى خارج المكان، فمشوا كالسكارى، عقول ذاهبة، وخواطر شريدة، وأفئدة متقلبة بين نشوة ووجع.

قولوا أنا من أرض غير أرضكم.

من كوكب غير كوكبكم.

من مجرة غير مجرتكم.

لكنني موجودة في هذا الكون، الذي لا تعرفونه، ولن تعرفوا،

كل ما يدور فيه، إلا حين يفرج الله عن أرواحكم الحبيسة في سجون أجسادكم. في اللحظة التي تذوبون فيها بين فجاج النور اللانهائي، ربما تجدونني هناك واقفة أهش النسور الجارحة عن عصافيري، وأهب من اخترتهم من بين الجوعى ثماري التي لا مثيل لها.

إن كان بعضكم لا يدرك ولا يؤمن إلا بما يسمع ويرى ويلمس ويتذوق ويشم، فكل هذا ستجدونه هنا، وأنتم تقفون تحت قدمي العملاقة. لكنَّ العارفين فقط سيتجاوزون في وقوفهم هذه الحدود، وستصل أسراري إلى عقولهم الموصولة بالبعيد القريب، وإلى قلوبهم المترعة بعشق أبدي أزلي.

وليقل من تصل أسراري إلى يقينه ما يحلو له لمن لا يحظى بهذه النعمة العميمة، فكلامكم، حسنا كان أو سيئا، لن يهز أي برعم من براعمي، ولن يقلق حتى مجرد بيضة من بيض العصافير الصغيرة التي تنام آمنة مستكينة فوق أجنحتي العملاقة.

أنا الشجرة...

يخرج ثمري من رحم زهرة بنفسجية رائق لونها، لها عشرة أجنحة عملاقة، تتجاور فتبدو للغريب سربًا من نسور فتية. زهرة وقورة كأيام الحداد. مبهجة كساعات الفرح. ناعمة كالحرير. متينة مثل الكتان. راسخة كأنها طود أشم. لا يهزها ريح. ولا تهب رحيقها إلا لملكات النحل، ولا تمنح خدودها الأسيلة إلا لفراشات الربيع. زهرتي تنام من العشاء حتى انبلاج الفجر، تغازل النور، وتعانق شمس الضحى والعصر البرتقالية. تمتص من أشعتها الضياء. فلما يجن الليل تنير كالقناديل المباركة، فتهدي السائرين ليلًا، وتبين لهم أين أكون، لكنها

أبدًا لا تزعج الطيور النائمة في أعشاشها. عند الأعشاش ينحرف الضوء، فتبدو قطعًا صغيرة من الظلمة في لجة من نور مفضض. إذا أتى طامع من أنس أو جن أو حيوان مفترس أرسلت أشعة نافذة إلى عينيه فلا يرى مني شيئًا في ليل أو نهار.

أوراقي معروقة انسيابية، بعضها مستدير، وبعضها بيضاوي، وكثير منها مخروطي الشكل. بعضها صغير كأوراق النبق والسنط، وبعضها كبير كأوراق الموز، ومتوسط كأوراق المانجو والعنب والجوافة. أغصاني مثقلة بثمر طعمه أحلى من الشهد، وأصفى من اللبن، وأسكر من الخمر المعتق. ليس به بذور ولا ألياف. يطوي في داخله فراغًا من هواء نقي، لا يستنشقه إلا الموعودون، فهو يشفي من كافة الأمراض الصدرية، ويمنح إحساسا غير محدود بالسعادة والطمأنينة. ينضج لكنه لا يسقط، فمحرم على الأرض أن تعطبه، وعلى الريح أن تدحرجه إلى البعيد.

جذري مغروس في أعماق سحيقة، ربما يخترق سبع طبقات من هذه الأرض، حتى ينفتح على البحار المائجة التي تجري في بطنها البعيد، أو على حمم الجحيم التي تغلي في جوفها. ولما يلامس جذري السطح يتفرطح ويطأ من الأرض ما يقترب من نصف فدان كامل. جذعي أملس في مناطق، خشن في أخرى، ينساب هنا ويمتشق كالبان، يعوج هناك كاللبلاب، ويحوي عشرات الأخاديد الغائرة، التي تبدو ككهوف الجبال. ما إن يشق الجذر الهواء بمقدار عشرة أمتار فقط، حتى يفتح للدنيا عشرات الأذرع. أفرع سمينة، سميكة اللحاء، معتدلة القامة تأخذ طريقها إلى السماء، أو تنبطح آخذة شكلًا أفقيًّا يكاد أن يلامس أرضًا رابية تبدأ من تحت قدمي اليمنى وتمتد

مئات الأمتار، لتصبح بداية طبيعية للجبل الرابض هناك. أفرع نحيفة لكنها قوية، كل واحد منها لا يقل أبدًا عن شجرة كافور عتيقة.

تتشابك هناك في الأعلى الأغصان فتصبح غابة كاملة، تحوي مئات الآلاف من أعشاش الطيور. تهل أسرابها والشمس تشحب على الشط الغربي للنهر، تدور حولي وتغرد بلحن لا يتغير أبدًا. نشيد يومي تعلن فيه ولاءها لأوراقي الناضرة، ولحائي الذي ينتفض كلما هم ثعبان أن يتسلقه، فيلقيه أرضًا. يعاود المحاولة مرات ومرات لكنه يفشل في النهاية، وتنجو دومًا العصافير الوديعة.

منذ أن وضعت اليمامة الطيبة بذرتي وأنا أقسمت أن أحمي كل ذات جناحين ضعيفين بروحي. فالنسور الجارحة لا تجد لها مكانا أبدًا على ظهري أو أطرافي. مرة واحدة سمحت لنسر ضعيف، رمت به الريح من صهوة الجبل إلى أحد أفرعي أن يجد له مأوى هنا بين أغصاني. لكنه بعد أن اشتد أخذ يناوش أفراخ اليمام، بحثًا عن طعام، وقبل أن يهم بالتهام أحدها، اهتز الفرع الصغير الذي كان يقف عليه بعنف، حتى أسقطه على الأرض، ولم يفلح بعدها أن يصعد إليَّ مرة أخرى، بل أصابه أذى في جسده. وسوس إلى أقرانه، فلم يجرؤ واحد منها على أن يقترب مني.

يتشاءم الناس من البوم لكني أحبه، ويروق لي بصره الحاد، الذي يذكرني ببصر اليمامة التي التقطتني يوما وأنا على شفا الموت حرقا. لأني أكره الجرذان بعد أن أكلت سنابل القمح في الحقل البعيد الذي يرنو إليها صاحبه كل صباح ويلقي التحية رافعًا بصره إلى السماء

يدعو الله أن يحفظني، أحببت البوم لأنه ينقض عليها في الليل البهيم، ويقضي على مناشيرها التي أتت على جميع السنابل.

تسامرني الهداهد دائمًا. تطير وتعود في المساء محملة بالحكايات، تلقيها في آذاني الكثيرة، ثم تنام مستريحة. منها أعرف كل شيء عن هؤلاء الذين يمرون بي كل يوم، محملين بالأماني والأوجاع وقليل من المسرات. يقفون أمامي، ويملئون أبصارهم من هيبتي. يتمتمون بتسابيح للخالق الذي صنع هيئتي، ثم يمضون، إلى منازلهم البسيطة، التي تأخذ شريطين متوازيين تحت الجبل، حين أراهما من عليائي يبدوان كدودتين صغيرتين لا تتحركان.

هذا هو الظاهر مني، أما الباطن فلا يعلمه إلا علام الغيوب، وهذا ما أعيا السلاطين، والحرافيش، والعربان، والزاهدين. حتى الجان في الفضاء البعيد، لم يسلموا من الحيرة.

(٢)

هنا تحت قدمي العملاقة يقف الناس مشدوهين، تملأهم أسئلة لا نهاية لها عن منشأي ومسيرتي، يقولون ما وسعهم من أحاديث، ويخمنون بقدر ما تسعفهم أذهانهم المكدودة من التفكير في حالتي وهيئتي. لكنني لم أفصح أبدًا عن أسراري إلا لرجل واحد، كان العابد الذي جاءني بفيض عشقًا، فأخذته بين أحضاني المتشابكة الوسيعة، وألقيت في قلبه طمأنينة مما ألقاها الله في جوفي العميق.

قلت له باسمة:

ـ ولدت نقية من رحم الخطيئة.

فتعجب واحتار حيرة ألجمت لسانه، لكنني عاجلته بها هدأ من روعه قليلا، وقلت:

ـ كانت الخطيئة سببا ليس لي به صلة.

ولم تفارقه الحيرة تماما فعاجلته:

ـ قرار من رجل عاصٍ ساقني إلى الوجود.

وهز أحد فروعي فسقط هدهد في حجر العابد، ورفع هامته حتى أصبح منقاره مصوبا إلى أذن الرجل، ثم قال له بهدوء:

ـ أغمض عينيك، وسترى.

وأغمض عينيه، فانفتحت أمامه سماء وأرض تطوي بين دفتيها بستانًا يانعًا، وبان وسطه رجل قوي البنيان. كانت نسائم الفجر تقطر بالندى أمام ناظريه، ورائحة الزهر الفواح تملأ أنفه، وزقزقة العصافير تطرب أذنيه بموسيقى الفرح. يمد يده فتعود بتفاحة مغسولة برذاذ الصبح النقي، فيقضمها في تلذذ مستطيبا طعمها وسكرها الذي يذوب في فمه ودمه. يرفع رأسه إلى هامات الشجر والنخيل المصطف في هندسة بديعة، ويقول:

ـ ما أجملك يا معشوقتي.

ثم ينادي في قصر منيف لا يمكن أن يُهمل فيه نداؤه، فيأتي الخادم على عجل، ويقف أمامه، ثم ينحني في أدب، ويقول:

ـ أمرك.

فيأمره بالإفطار والشاي، فتلمع الأطباق والفناجين الفاخرة في أول إطلالة لشمس الصبح المبهر، محمولة على خوان كبير بين أيدي الخدم. يضعونها في صمت وترتيب لا يختل، وينصرفون خافضي البصر. يمد يده إلى الخوان، ومنه إلى فمه، فيمتلىء بكل ما لذَّ وطاب من خيرات الله في الأرض، ومما علم البشر أن يصنعوه في رحلتهم الطويلة من أجل البقاء. يمضغ على مهل، فليس هناك ما يشغله الآن سوى التمتع بهذه الأصناف الحلوة، التي يسميها إفطارًا سلطانيًّا، يملأ

منه بطنه، ويعقبها برشفات من الشاي الأخضر، ثم يدخن النارجيلة، وينفخ في الهواء المسافر إلى الزراعات، التي تفرش خضرتها اليانعة حتى مرمى البصر.

وما إن ينتهي من طعامه وشرابه، حتى ينزل من التراس العريض المطل على الحديقة إلى إسطبل الخيل، ليختار أي جواد يروق لعينيه، ويمرق به بين المروج، مرتشفًا النسائم التي يمنحها النهر للريح، فيملأ رئتيه منها، ويزفر بشدة حتى يطرد بعض الدخان الذي حبسه بين ضلوعه هذا الصباح، وطوال الليل.

يجري الفرس ما وسعه حتى يتعب من دون أن تنتهي الحدائق والزراعات. وفي كل مرة يترحم على أبيه الذي ترك له هذه الثروة الطائلة، وقال له والروح تنسحب من جسده ببطء شديد:

ـ تركت لك أرضا يرمح فيها الخيل، وعليك إن لم تضف إليها ألا تضيع منها سحتوتا واحدا... هكذا أوصاني جدك، وفعلت بالوصية، وها أنا أوصيك فالتزم.

وحافظ على الوصية متعادلة، لا نقصان ولا زيادة، مستبقيًا كل هذا حوله، ليشعر دوما أنه السيد المطاع، وأن هذه الدنيا الخاصة جدًّا في قبضة يده، يحركها وقت أن يشاء، ويثبتها حين يروق له.

وكم تخيل في وضح النهار، ورجاله حوله، أنه مركز الأرض، بل مركز الكون كله. ولمَ لا، وهو لا يعتقد في أن لهذا الكون البديع خالقًا. هكذا علمته الكتب التي قرأها. كتب كان يأتي بها من القاهرة كلما نزل إليها، راح يرصها بعضها فوق بعض في غرفة جانبية، وعند الأصيل كان يأتي بواحد منها، يفتحه ويغوص بين السطور،

حتى تغرب الشمس، فيطويه، ثم يقوم مثقل الرأس، سابحًا في ظنون لا نهاية لها.

كان يتيه على من حوله ويقول:

ـ من يحوزون نسخًا من هذه الكتب يعدون على الأصابع في كل البلاد، من بغداد إلى فاس.

في يوم كان يرمح بفرسه حول سور البستان، فلمح رجلين يدسان جسديهما بين أشجار السنط العالية، التي تحيط به من جهاته الأربع، ويمدان يديهما إلى شجر العنب، فيقطفان العناقيد، ويلقيان بها في حجريهما. ولما لمحا قدومه، رميا ما معهما من عنب، وفرَّا هاربين. قفزا إلى الماء، وعبرا إلى الضفة الأخرى من الترعة، ثم ذابا في الحقول.

ليلتها جمع الخفر، وصرخ فيهم:

ـ بستاني يُسرق وأنتم غافلون.

لاذوا بصمت مطبق، لكنه لم يدعهم ينعمون بالهروب المستكين، وسأل كبيرهم:

ـ منذ متى أُسرق يا عبد المطلب؟

فتنحنح الرجل وقال:

ـ لم يحدث هذا من قبل أبدًا.

فجلجلت قهقهاته حتى ارتجت قلوبهم هلعًا، وقال:

ـ ستجلدون جميعًا حتى تعترفوا بخيانتكم الأمانة.

وبكى صغيرهم في السن والحجم وقال:

ـ الناس جوعى يا سيدي.

فهز رأسه استنكارًا وقال:

ـ ولماذا هم جوعى، والأرض مليئة بالخيرات؟!

فرد الصغير بحرقة:

ـ كل الأرض لكم يا سيدي، وهم لا أرض لهم.

فضحك مرة أخرى وقال:

ـ كلاب القرية ليس لها أرض. لا تموت من الجوع.

فقال الرجل بصوت خفيض:

ـ لكن أجسامها ضامرة، ويأكل بعضها بعضًا.

فرماه بنظرة حارقة من عينيه الجاحظتين، وصرخ فيه:

ـ تجادلني يا كلب... اذهب ليس لك عيش عندي.

وأشار إلى بقية الحرس، فجردوه من البندقية، وربطوه على جذع شجرة السنط الكبرى، أكبر شجرة على ضفاف الحديقة، وجلدوه سبعين جلدة، حتى تفجر الدم من كل عروقه، ولطخ جذر الشجرة. انداح الدم على جسده غزيرا، ثم راح يتسلل من مسامي اللحاء إلى اللباب العميق. في اليوم التالي لاحظ أحد الحراس أن آخر ورقة في كل غصن قد احمرت قليلا. وتملكته الحيرة، لكنه كتم السر خوفًا من أن يلحق بصاحبه.

وتكررت حوادث سرقة الفاكهة رغم تشديد الحراسة، فالبطون الجائعة أورثت الناس قلوبًا جريئة. وزادت السرقة إلى الحد الذي أنقص محصول الفاكهة في نهاية مواسمها. لاحظ صاحب العزبة والبستان ذلك، فجمع حراسه مرة أخرى، وراح يصرخ فيهم ويتوعدهم. وساق كبيرهم حجة تنقذه وزملاءه من سورة غضب سيدهم، فقال:

ـ يا سعادة البيه، البستان كبير، وعددنا قليل.

ففهم ما يقصده، فقال:

ـ تريد بناء سور يطوق البستان من كل جانب.

ـ هذا أفضل.

ففكر البيه قليلا، ثم أمرهم:

ـ اقطعوا أشجار السنط التي تحيط بالبستان، وابنوا حائطًا قصيرًا من الطوب اللبن، ثم ازرعوا على جانبه الخارجي نبات «الدرادكس» الممتلئ بالأشواك، فنمنع أيادي هؤلاء اللصوص من أن تمتد إلى فاكهتي.

وفي صباح اليوم التالي بدأت الجريمة. امتدت الفئوس والمناشير إلى الأشجار فأردتها قتلى. سقطت واحدة تلو الأخرى، فسدت الطرق الجانبية، وأطلت ثمار الفاكهة لأول مرة على العابرين. كانت أمي الشجرة التي تسرب الدم إلى لحائها وأطرافها آخر ما تم قطعه، فقد كانت عملاقة، فأمهلوها بضعة أيام على قيد الحياة.

جاءوا إليها بعد أن انتهوا من أخواتها الصغار، وراح أحدهم

يضرب أسفل ساقها بعنف، لكن ضرباته لم تترك سوى خدوش وجروح بسيطة، فتوقف وقال لأصحابه:

ـ لنبقيها إلى صباح الغد.

وهكذا بقيت أمي ليلة كاملة ترفرف بأغصانها المثقلة بالصمغ والنمل والعصافير واليمام. وفي فجر اليوم التالي جاءوا إليها بسواعد طازجة، وراحوا يضربونها من كل جانب. وحين وصل المنشار إلى اللحاء، انبجس دم فبرقش وجوههم، فتراجعوا فزعين، ثم راحوا يراقبونها وهي تميل على جانبها الأيمن، حتى هوت صريعة، بعد أن أحدثت دويًّا هائلًا، أصاب العصافير واليمام بالرعب، فراح يفر في كل جانب، وهو يرنو إلى بيضه المتساقط حول فروع الشجرة.

في اللحظة التي ارتطمت فيها أمي بالأرض كانت نطفتي تجري في صلب إحدى اليمامات الفزعات، وكانت بيضتاها اللتان وضعتهما بالأمس، بعد أن ضربت بمنقارها كل صنوف الفواكه حتى شبعت وارتوت، تصطدمان ببعضهما البعض، فتسيل أحشاؤهما على الأرض، وتلطخ عنقودا من «القرض» الذي تسكنه بذور السنط الغضة. واحدة من البذور وقعت في قلب نصف بيضة، وشربت من البياض والصفار حتى شبعت. كانت اليمامة تحوم حول بيضتيها، لكنها لم تتمكن من إنقاذهما، لأن الرجال جلسوا حول الشجرة الصريعة، يحتسون الشاي، ويتساءلون عن الدم الذي لطخ وجوههم. والحارس الذي عرف السر التزم الصمت، وراح يتذكر مآثر زميله صاحب الدم، ويقول في سره:

ـ كان طيبا، لم أره يرتكب خطيئة أبدًا.

وشعروا باليمام الذي يحوم حولهم بحثا عن أعشاشه المهدمة. خطرت في بال أحدهم فكرة شريرة، فقال لأصحابه:

ـ نصطاد اليمام، لنفوز بوجبة دسمة.

نظر كبير الحرس حوله وقال:

ـ يمامات مكتنزة شحما ولحما كأنها دجاج سمين.

فرد آخر:

ـ ولحمها لذيذ، من لذة الفواكه والحبوب التي تتغذى عليها.

في هذه اللحظة كان أحدهم قد صوَّب بندقيته إلى اليمامة الباحثة عن بيضتها. كانت هي قد اقتربت من نصف بيضة، وغمست فيها منقارها فلقمت ببذرة السنط، وعندها فرقعت الرصاصة فأصابتها في جنبها الأيسر، ففرت هاربة، وانخلعت في فمها البذرة الغارقة في مح البيض، وانقبض عليها المنقار، واليمامة تصارع من أجل الحياة، حتى سقطت مترنحة فوق الحصباء، عند سفح الجبل، تئن من الوجع، وتستقبل الموت راضية مرضية.

حين كانت اليمامة تودع الدنيا كنت أنا أرتعش بأول نبضة للحياة. فالدم الزكي لأمي الثانية اليمامة، وسائل بيضتها الغني، كانا كافيين ليستيقظ البرعم الساكن في جوفي. نامت اليمامة نومتها الأخيرة وأنا في فمها، وانثنت رقبتها في لحظة الاحتضار تحت جسدها، وسال رحيق الفاكهة الذي كانت قد امتصته بالأمس، مخلوطا بدمائها الحارة. وحين تحلل جسدها صار سمادي، الذي تغذيت منه، وتحول ريشها إلى سياج ناعم حماني من الريح والغبار، حتى اشتد ساعدي، وراح نبتي الأول

يستحم بشعاع الشمس العفي، وينعم بالصمت الجليل، هنا حيث الخلاء والوحدة، وسنون الحصى المدببة التي قطعت دبيب الأرجل عن مكاني، فحفظتني من أن أندهس وأنا غضة تحت أقدام لاهثة.

في أشهر قلائل كنت شجرة أعانق الفضاء، جذري كان يجري في الأرض جريا، حتى وصل في زمن قياسي إلى قيعان الماء البعيدة، وساقي راحت ترتفع وتداعب الريح، حتى طاولت هامة الجبل، ثم بدأت قاعدتي تتمدد في مكانها، تتفرطح وتتسع، وتنيخ على الأرض، فارشة على الحصباء ثقلها.

وفي ليلة كان القمر فيها بدرا، وكانت هامة الجبل تشع بلون ذهبي، سمعت صوتًا هزَّ الأرض هزًّا، كان يبدو كهزيم الرعد، لكن السماء كانت صافية، والنجوم تلمع في عمقها البعيد. وانفلق الصخر، وخرج منه كائن عجيب لا أعرفه. تقدم على مهل حتى وقف أمامي، وراح يتأمل فروعي التي كانت آخذة في التمدد، ثم خرج من جوفه هواء مشبع برائحة طيبة نفاذة، راحت تتغلغل في مسامي، حتى تشبعت بها تماما. وعندها قلت له، وأنا غارقة في نشوة غريبة:

ـ من أنت؟

فقهقه بصوت كأنه لحن عذب، وقال:

ـ أنا البادوق.

واستدار، ثم راح يعود أدراجه من حيث أتى، فلما وصل إلى أقدام الجبل، توغل قليلًا، ونادى على الصخرة التي انفلقت، فهبت من

رقدتها، وسارت فسدت الشرخ العميق الذي تركه البادوق خلفه، فعاد الجبل إلى هيئته الأولى.

ولما انغلق الصخر، وجدت نفسي أنتفض بقوة، ثم سال من الفتحات المتناثرة على ساقي وجذري وفروعي سائل لزج، شفاف كالماء، لكنه حلو كالعسل، ودسم كلبن الضأن. ثم راح يتقاطر حولي. وفي كل مكان تسقط فيه قطرة تنبت زهرة بلون قوس قزح، حتى صارت المساحة التي تطوق قدمي العملاقة، جنة ورد بديعة. وفجأة تفتقت قلوب الزهر عن كائنات صغيرة، راحت تكبر تدريجيا، حتى صارت في دقائق قليلة، فراشات رائعة الألوان.

وراحت الفراشات تطير حولي كأنها في احتفال ملكي رائع، تدور حول أغصاني، وتحط على الزهر، ثم تصعد سريعا إلى أعلى، وتصوب هدفها نحو ذرى الجبل، فتصعد بمحاذاته، ثم تغيب فوق الصخر النائم منذ آلاف السنين. غابت ذات يوم وطال غيابها، حتى ظننت أنها قد هجرتني من دون وداع. لكنها ظهرت فجأة في عين الشمس التي كانت تجنح نحو المغيب، وبانت وراءها أسراب من النحل. كل سرب تتقدمه الملكة، يحيط بها الذكور من كل جانب، ويطالعون بهاءها بشوق إلى يوم التلقيح المهيب.

في المؤخرة تطير الشغالات، والعسل يقطر من أفواههن. وعند قدمي حطت الفراشات، ووقفت أسراب النحل تنتظر. الفراشة الكبيرة التي ولدتها أكبر زهرة تنام في أحضاني، تقدمت إلى أكبر ملكة، وقالت لها باسمة:

ـ حطوا رحالكم هنا.

فبادلتها الملكة الابتسام وقالت:

ـ نلتقط أنفاسنا، ثم نتسلم بيوتنا الجديدة.

وبيوتهم كانت الأخاديد الغائرة في ساقي العملاقة. في كل أخدود سكنت خلية نحل. ورأى النمل ما جرى فتهللت أساريره، وتبادل الأحاديث عن طعام شهي ينتظره. لكن الفراشة الكبيرة التي أحضرت النحل، جاءت قبيل الغروب إلى كبيرة النمل، وأخبرتها أن السطو على العسل ممنوع، وأن عقوبة من يخالف هذه التعليمات هي الطرد من حضن الشجرة الوسيع.

وفي صباح اليوم التالي أبرمت الرئيسات الثلاث، أكبر ملكة وأكبر فراشة وأكبر نملة اتفاقًا على ألا يغير النمل على العسل، مقابل أن يعطيه النحل ما يكفيه ليستمر على قيد الحياة. وكتبت الفراشة على ورقة عريضة طويلة من أوراقي نص هذا الاتفاق، وطلبت من ملكة النحل وكبيرة النمل أن يبلغوه إلى سائر مملكتيهما، ليلتزم به الجميع.

عاش الجميع في سلام وأمان سنوات لا تحصى، حتى حلت المحنة ذات صباح. كانت الشمس تملأ السماء إشراقًا ونورًا، والجو دافئ يبعث على الكسل اللذيذ. فجأة غيمت الشمس، ولم تكن هناك أي سحابة تجري في الفضاء. فقالت الفراشات للنحل:

ـ أمر غريب.

لكن بعد دقائق قليلة كان اللغز قد انجلت طلاسمه، حين رأيت أسرابا من الجراد تتقدم نحوي بسرعة جنونية، ومناشيرها مشرعة بالتهام أوراقي، وأوراق الأزهار النائمة في أحضاني. كان موقفًا

عصبيًا، تخوفت فيه من أن أعود إلى سابق عهدي من الفناء، لكني صرخت في النحل والفراشات والعصافير واليمام الذي ينعم بالدفء والسكينة في كنفي:

ـ اخرجوا لملاقاة العدو.

وكان النحل أسبق من لبى دعوة الجهاد المقدس، فخرج عن بكرة أبيه مسرعًا في اتجاه الجراد، وتبعته الفراشات وقلوبها ترتعش وجلًا. أما النمل فأسرع إلى أوراقي الكثيفة، وتوزع عليها متأهبًا لمضايقة الجراد إن حاول أن يلتهم الأوراق النضيرة. واصطفت العصافير واليمام وراء النحل والفراشات.

في لحظة فارقة من عمري المديد، رأيت معركة رهيبة، تجبّر فيها الجراد، وكشر عن مناشيره الحادة، فسقط نحل وفراشات على الأرض حتى امتلأت، وتهيبت العصافير الموقف، فراحت تناوش من بعيد. أما اليمام فرص أجساده حولي، لكن أسرابًا كبيرة من الجراد تمكنت من أن تنفذ إليّ، وراحت تلتهم الأوراق الغضة، والنمل يقرص أرجلها، وأفواهها، لكنها لا تتوقف. وعند المساء كانت نتائج المعركة قد ظهرت تمامًا. فعشرات الآلاف من النحل والفراشات صرعى، وورود قوس قزح انتهت عن آخرها، لم يبق سوى جذور واهنة، وسوق جرداء. أما أوراقي فقد انتهت تمامًا، الصغير منها والكبير، ووقفت لأول مرة في حياتي عارية، تنخر الريح في أحشائي.

وتحتي تحط الفراشات ويقف النحل والنمل حزينًا على ما جرى. أما العصافير فراحت تراقب أعشاشها المتناثرة هنا وهناك والأسى يأكل أكبادها. وبكت اليمامات الطيبات بكاء حارًا.

والهدهد الوحيد الذي يعيش في كنفي، راح يهدئ من روع الجميع. يهز رأسه ويقول مطمئنًا:

ـ كل شيء سيعود إلى أصله.

لكن أحدًا لم يتجاوب معه بالقدر الكافي. وشكك عصفور فيما يقول، وصرخ في وجهه غاضبًا:

ـ لا تواسينا بما لن يصير.

لكن الهدهد، عاد إلى هز رأسه وقال له في هدوء:

ـ غدًا ستكتشف أنني لا أهزي.

وقبيل الغروب، غادر الغزاة باتجاه الجبل. تجمعوا عند أطرافي، وتبادلوا أحاديث وهمهمات لم أتبينها، ثم تقدم كبيرهم صوب الجبل، وتبعه السرب الضخم، صامتًا، وبطون الجراد منتفخة من فرط الشبع.

وحين وصلت آخر جرادة إلى حافة الجبل، غربت الشمس، وحل ظلام دامس، فنامت الطيور والحشرات البديعة التي تعيش في كنفي، وبقي الهدهد ساهرًا، حتى بزغ قوس القمر، فمنح المكان ضوءًا شحيحًا، جعلني أرى شيئًا صغيرًا يأتي على مهل في الظلام، كان يداعب الريح، يلف ويدور ثم يطير نحوي. ولما اقترب تبينت أنه ورقة مفتوحة عن آخرها، وسطورها محتشدة بكلمات لم أتبين جميع حروفها، لكنني أدركت أنها لغة غريبة لا أجيدها. وحطت الورقة فوق رأس الهدهد، فمد منقاره وجذبها، ثم ألقاها على الأرض، ووضع قدميه عليها، فاستكانت. وراح الهدهد يقرأ، ويهز رأسه حتى وصل إلى الكلمة الأخيرة، ثم رفع رأسه، وقال لي في هدوء:

ـ جاءت البشرى أيتها الشجرة العظيمة.

فابتسمت وقلت:

ـ هات ما عندك.

فضحك وقال:

ـ بعد ساعات قليلة ستمسح يد السماء على رأسك، وستندمل جروحك، وتبرأ أسقامك.

فقلت له بنبرة حادة:

ـ أفصح أكثر.

فعاد إلى الضحك قائلًا:

ـ علام الاستعجال، وبعد ساعات سيصمت الكلام، ويكون العمل أنصع من أن ينكره أحد.

ثم رفع رجليه عن الأرض، وطار في اتجاه القمر، حتى غاب في الضوء الشحيح، مخلفًا وراءه أسئلة مفتوحة، وإجابات ناقصة. وعند الفجر اكتملت الإجابة، فقد عاد الهدهد، وفي فمه بذرة صغيرة، ذات لون فضي، وضعها على الأرض، ثم راح ينقر ساقي، حتى سالت منه الدماء، وعندها دس الحبة الفضية في الجرح الذي صنعه منقاره، ثم طار إلى الغرب، حيث النهر الذي يجري بالحياة، وعاد حاملًا ما أمكنه من الطمي، فصبه على الجرح، وداس عليه برجليه، حتى تجلط الدم تمامًا، ونزل إلى الأرض وراح يبتعد خطوات عني، فبان لي على البعد وكأنه مجرد عصفور صغير وضعيف.

راح الهدهد يتابع نتيجة ما غرسه مسرورًا، وهامته ترتفع كلما طرأ شيء عليّ، ورحت أنا أتابع ما يجري لي، وأرمق الهدهد، وهو يقترب مرة أخرى، وفي عينيه عجب، لكنه بدا مطمئنًا إلى ما يحدث، وكأنه يضمن كل شيء.

* * *

قبل أن آخذ هيئتي هذه لم تكن هناك أرجل تدب في هذا المكان، كان يبابًا، تنعق فيه الغربان، التي أتعلم كثيرًا من حكمتها. وقبل مائتي سنة تقريبًا جاء إلى هنا رجل فارع الطول يشع النور من وجهه، ولما رآني أكبرني وصرخ بصوت مرتفع:

ـ يا رب كل شيء.. ما أبدع خلقك.

فأتاه صوت من أحشائي:

ـ هذا مكانك فحط رحالك.

فملأه ذعر، لكنه لم يلبث أن تماسك وقال:

ـ حللت بعد رحلة شاقة.

فرد الصوت:

ـ وهنا ستكون نهايتك السعيدة.

فقال وهو يغالب دموعه:

ـ لا تدري نفس بأي أرض تموت.

فعاجله الصوت:

ـ أرضك نادتك فخلِّ الدنيا وراء ظهرك.

فابتسم في اطمئنان:

ـ ما شعرت براحة قط مثل التي أنا فيها الآن.

وأردف:

ـ راحة بعد تعب. ارتواء بعد ظمأ. شبع بعد جوع..

وامتلأ المكان بقهقهة مجلجلة:

ـ فما بالك لو ذقت ثمرة.

ورفع بصره إلى أعلى فرآها تتجلى، لذة للآكلين. مد يده فتهادت إليه واحدة. أمسكها بيمينه ورفعها إلى فمه فرأى وجهه الشاحب في شفافية قشرتها الناعمة. ولأنه كان يتضور جوعًا فقد تصور أنه سيأكل ثمار فرع بأكمله، لكنه ما إن ابتلع ريقه من الثمرة الأولى، حتى شعر بامتلاء، لا يستطيع معه أن يلذ لطعام أو شراب. وسرى في عروقه دفء وخدر، أخذه إلى نوم مخملي. جسد مستريح وأنفاس تتلاحق بانتظام وأحلام غاية في البهجة والانبهار.

لا يدري كم ساعة مرت عليه في نومه، لكنه يتذكر جيدًا أنه كانت هناك نبتة صغيرة على يمين رأسه حين ألقاها وأسلمها للنعاس. تفرس المكان حول رأسه فلم يجد سوى شجيرة تبدو كأنها فرع من الشجرة العظيمة. وحار في أمره وقال لنفسه:

ـ كم من الوقت يمر على نبتة كي تصبح شجيرة.

ثم قام يتجول في المكان، يدوس بقدميه الحافيتين بسط النجيل

الناعم فتتراخى، ثم لا تلبث أن تنهض رويدا وتفرد رءوسها المرطحة في النسيم المنساب من بين أفرع الشجرة العظيمة.

نظر هناك فوجد الجبل راسخا كالزمن، يحمل على قرنيه الهائلتين عشرات الصخور الناتئة، التي تقطع انسياب ظهره الصلب، وقال لنفسه متمنيًا:

ـ آه لو يكون لي كهف من كهوفه الغائرة.

ثم نظر عن يمينه ويساره، فاهتز فرعان متدليان على رأسه، فعاد يقول:

ـ مجنون من يترك الشجرة العظيمة.

ما إن انتهى من كلماته، حتى ارتجت الأرض رجًا، فانفلق الجبل الأشم، الممتد على بعض جذوري، على مقربة مني. تناطحت صخرتان تحت قدمي. تدحرجتا وأثارتا غبارًا كثيفًا، تململت له الطيور النائمة في أحضاني. ثوانٍ معدودات وصفا الجو، وخمدت الصخرتان وتعانقتا لتصنعا مغارة وسيعة، حجزت بين جدرانها قطعة من البساط الأخضر المفروش تحتي. ومع الأيام تسلق النجيل على الصخر فصار متكئا وثيرا، يشرف على ورود قوس قزح. وناديت الرجل:

ـ الزم دارك أيها العابد.

فدخل إلى المغارة مسبحًا لرب الملكوت، والمساء يحل على مهل، ويسحب بقايا الضوء المتناثرة على الصخر المغطى بالنجيل. تسجى بأحلامه العريضة وشوقه الجارف إلى عالم تسكنه الرحمة والسكينة ويسوده العدل، وتغور فيه الذكريات الأليمة، التي تقوض روحه.

(٣)

أنا العابد...

صباح الخير أيتها الشجرة المباركة.. غريب أنا على هذه الدنيا، والنهر يعرف غربتي، فطوبى للغرباء. جئت إليك من زاوية جدرانها متهالكة ترقد على أطراف دير وسيع. زاوية ودير تفصلها عن بلادي القديمة سنين لا أعرف عددها، لم أعد أتذكر تفاصيل شوارعها وأزقتها. لم يبق في ذهني إلا أشياء عن قريتي العزلاء المنسية، التي تركت فيها ورائي أطفالا جوعى وأمهات ثكلى ورجالًا منكسي الأعناق وأرضا يبابا. كانت بلادنا يا شجرتي العظيمة جنة تتأرجح على آمال لا تنتهي، كم تذوقنا فيها حلاوة الأيام، وظننا وقتها أن النعمة ستدوم. كنا نخرج في الغسق الأول من فرشنا الدافئة ونحن مبتلون بماء صلاة العشاء، ونعاود الخروج في السحر الأخير وشفاهنا الندية رطبة بالتسابيح. كنا جميعًا على قلب رجل واحد إذا أغار علينا عدو. نتراص كبنيان راسخ، وسواعدنا ترمي بالسهام والحراب وفي أيدينا تلمع السيوف. نزأر عليه وفي عيوننا يتأجج الغضب فيفر هاربًا تاركًا لنا الوادي الجميل.

بيوتنا كانت مفتوحة على بعضها. النساء تصاحبن النساء، والأطفال يلعبون مع الأطفال والرجال يعملون سويًا في الحقول المفتوحة على النسائم والخيرات والسماوات العلا. ولما يأتي الحصاد النبيل نجمع المحاصيل في صومعة كبيرة، تقف طودًا صغيرًا وسط الوادي، يحرسه رجال أشداء من بيننا، ورجال آخرون يتناوبون على تسجيل ما يرد إلى الصومعة من حبوب وما يصدر عنها من قمح وذرة وسمسم وقطن في دفاتر. وإذا احتاج أحدنا أي من هذه المحاصيل يذهب على ظهر جمله أو حماره إلى حيث ترقد الصومعة الكبيرة فيأخذ ما يكفي أسرته.

كل هذا كان قبل أن أنتقل من حضن القرية إلى متاهات المحروسة وألاعيب المماليك. قبل أن أجري وراء القناوي وهو يدب بعكازه الشامخ الغليظ في الشوارع داعيًا إلى الخروج على السلطان الجائر.

كنت أيتها الشجرة المباركة ذات يوم عاشقا يكابد وجع الفراق ولهفة اللقاء العابر والكلمات العاجزة على الشفاه. طلت على أيامي الجرداء فتفتحت أزاهير الأمل، وتذوقت رحيق الأماني. كنت أراها وهي تسير ملفوفة في ردائها الأزرق لا يبين منها إلا وجه ملائكي وبحيرتا العسل اللتان ترمقان لهفتي، وتفيضان خلف رموش مخملية خفرًا ترتبك له أقدامها التي تمشي على مهل، ثم لا تلبث أن تفرد الخطى مسرعة خلف أحلامها الغضة، وأمام قلبي المتعطش لسدرة منتهى العشق. عرفت الساعة التي تهل فيها. بالضبط حين تطبع الشمس قبلة على جبين كوخي الصغير، وتبعث دفأها في عروقي النافرة عشقًا. أخطف نعلي، وأدس رأسي تحت العمامة، وأرفع أنفي لأتزود من عبير الصبح زادًا للجراءة. أنا المقدام، الذي ما خشيت

صاحب سلطان، ولا أذلتني حاجة، وجدت نفسي ذليل الهوى، ترعشني عينا امرأة تمر في الصباحات الدفيئة.

ومرت أيام كنت أقاوم فيها الرغبة الجارفة التي طالما تملكت مني. لم تكن أبدًا تلك التي تسيطر على الرجال فتنتفخ عروقهم، لتسمح للقدر الأكبر من دماء الشهوة بالتدفق من قلوبهم الراقصة، وأمخاخهم المتوثبة إلى الأنصاف السفلى، فيسخن ما بين أفخاذهم بحثًا عن ارتواء. لم تكن أبدًا تلك المسكونة في خلايا الجسد، ولا تلك التي تضع العلامات الأولى في حرص البشر على حفظ النسل. كانت شيئا مختلفا، مسكونا في فضاءات الروح التي لن نعرف كنهها إلا في الحياة الأخرى.

ذات صبح لم تأت، فكابدت وجع انتظارها حتى غربت الشمس، وجاء الليل ثقيلًا كجبل، فلما انبلج الصبح من طيات الظلام الذي خيم على نفسي ليلة كاملة، خرجت باحثًا عن دفقة نور تملأني أملا. كانت الشمس ترفرف هناك على ربوة بعيدة، تفتح فمها الوسيع، وتطلق أسنانها الفضة تتلألأ في كل الدنيا. وكانت الرمال المتوثبة تحت التل تحمل علامات طرية على أنها مرت من هنا قبل الشروق. آثار أقدامها، متتابعة إلى حيث تمضي كل يوم.

وعاتبت نفسي على أني لم أبكر في الخروج إليها، لكنني قلت لنفسي وعيني تصاحب آثار موكبها السعيد:

ـ انتظر الغد.

وجاءني هاتف من بعيد، أو من داخلي، لا أدري:

ـ أيها العاشق.. اتبعها إلى حيث تكون.

رحت أجري فوق الأثر. خطوات تتابعت من دون تمهل، لم أحصها، لكنها انتهت بي إليك أيتها الشجرة المباركة، وتحت ظلالك الوارفة حل النسيان على وجه الدنيا، فغار في قيعان لا نهاية لها، غار وطُمست معالمه، وصار كل ما جرى لي فيها عدمًا في عدم.

لم أكن أيامها أعرف شيئا عنك، فأنا من بلاد بعيدة، لكني كنت عاشقًا للجمال، عطوفا على كل أنثى، وصارت الدنيا في مطلع الإناث اللاتي أحببت، وحبيبتي كانت هي الدنيا.

وفي اليوم التالي رأيتها، والشمس تهل على الدنيا. كانت تسرع الخطى فجريت وراءها، حتى لحقت بها خارج القرية، اقتربت منها وهمست في أذنها:

ـ أتسمحين بكلمة؟

لكنها لم تتوقف، ولم ترد. فهممت خلفها عشرين خطوة كاملة. لكنها توقفت فجأة، دون أن تتفوه بأي كلمة. أشارت فقط بيدها، وفهمت الإشارة، فعدت خائب الرجاء. وقضيت ليلة حزينة، لكنني كنت أتأسى باتخاذ أول خطوة، وهي أصعب ما يواجه العاشقين. تنعقد ألسنتهم على فصاحتها وثرثرتها حين يقبلون على التحدث مع الحبيبات.

وفي اليوم التالي سألت صديقي عنها، ففكر مليًّا، ثم قال:

ـ لا أعرفها.

ثم أطرق برهة وسألني:

ـ هل رأيت وجهها؟

ـ مرة واحدة، حين سقط البرقع عنه، لكنه محفور داخلي، كنقش أثري مقدس.

ـ صفه لي.

ووصفت له، وهو غارق في الافتتان، فلما انتهيت مصمص شفتيه وقال:

ـ هذه ليست من قريتنا.

فنظرت إليه مندهشًا، وقلت:

ـ أتعرف كل نساء القرية؟

فضحك وقال:

ـ قريتنا صغيرة.

وتركني والحيرة تأكلني.

واختليت بنفسي في هذه الليلة، ورحت أسترجع التفاصيل الدقيقة لطلتها السريعة، ومشيتها الهينة، وجسدها الذي يتمايل في ليونة عجيبة. واشتعلت نار في قلبي في شراييني وأوردتي. في البداية حل جسدها برأسي، فانطلق الشبق يعبث بي، فأغمضت عيني، وجردتها في خيالي من ملابسها، حتى بانت أمام عينيَّ المغمضتين كل معالمها. لكنني جفلت كما لم أجفل من قبل أمام جسد عار، وهزني شيء لم أدركه، فعادت إلى هيئتها المحتشمة، وجلست وتربعت في صدري. وقلت في نفسي:

ـ حب عفيف.

وقال هاتف من بعيد:

ـ شيء جديد عليك.

فهززت رأسي مؤمنا، وسحت في الفراغات الرمادية التي تحيط بفرشتي، فلم أر منها سوى ثغرها يبتسم، وعينيها تشعان بالألق في العتمة الرائقة. ووجدت نفسي أدفن رأسي في وسادتي، وأنخرط في بكاء حار.

وفجأة رأيت في طيات العتمة وشظايا الدمع ما لم يخطر على بالي في أي لحظة. رأيت ما كاد أن يصيبني بجنون لا خلاص منه. سبحت في عجب ودهشة وخوف، وأنا ألملم جسدي المرتعش، وبصري الزائغ. لم أشعر بنفسي إلا وقد تكورت في مكاني، ودفنت رأسي بين ركبتيَّ، وأغمضت عينيَّ، ففتحهما الرعب عنوة. رفعت رأسي، وعصرت مقلتي بشدة، ثم حملقت في عمق العتمة، فتأكدت مما يجري، ولمست جسدي بيدي، لأشعر بوجودي، ونظرت خلفي إلى الفرشة لأتيقن من أنني يقظ، وأنا ما يحدث ليس حلم ليل، وإنما حقيقة جلية كشمس الظهيرة.

كانت هي تسبقها البسمة، المعالم الجسدية نفسها. الطول وشكل الرأس الخلفي خلف الطرحة السوداء التي ذابت في أجنحة العتمة، ولما تكلمت وقالت: «مساء الخير» وجدته الصوت نفسه، الترانيم والأنغام والإيقاعات الساحرة، التي تهز الفؤاد كلحن عذب. ولما قالت لي وهي تبتسم: «جئت إليك بدلًا من جريك ورائي»، تيقنت منها.

لم تكن الرعشة قد فارقتني، فقمت وساقي تضرب أختها، فأحدثت فرقعة أثارت ضحكتها. ومررت بجوارها وأنا أطالع

هيئتها، كأني أعرفها للمرة الأولى، حتى وصلت إلى الباب، فوجدته موصودا بإحكام، فدلفت إلى النافذة فكانت مغلقة بالطريقة التي تركتها عليها قبيل خلودي إلى النوم. وعندها اشتعلت الظنون في رأسي، ولم أتبين ما إذا كنت أهذي، أم أغوص في حلم بيقظة عميق، أم مسني جنون العشق القاتل. واقتربت منها، وسألتها بصوت مرتعش بعد أن استجمعت كل ما تبقى لي من جأش:

ـ هل أنت موجودة معي في الغرفة؟

فجلجلت بضحكة طويلة، ثم قالت:

ـ أنا بنفسي.

فسألتها بطريقة أقرب إلى التوسل:

ـ كيف دخلت؟

ـ من الباب.

ـ الباب كان مغلقًا من الداخل بترباس كبير ومتين، كما ترين.

فالتفتت إلى الباب، ثم إلى النافذة، وضحكت قائلة:

ـ من النافذة.

ـ مغلقة هي الأخرى من الداخل.

فنظرت إلى أعلى، فوجدت كوة في السقف فقالت:

ـ من السقف.

ـ جدران بيتي عالية، وليس بجوارها ما يساعد على تسلقها، كما أن الكوة ضيقة، لا يمكن لجسدك أن يمر منها.

ورنت ضحكة عالية، ثم خفتت وماتت، وتركتني فريسة للحيرة، أتلفت حولي والدهشة تملأني، والظنون تسيل من رأسي، وتختلط بعرق ساخن راح يتفصد من كل خلاياي. ورأيت نفسي مرتعشًا، لا أعرف إن كان هذا من فرط الوجد الذي يهزني هزًّا، أم من تأثير الخوف الذي هجم على استكانتي واطمئناني المؤقت. لم أكن قد عرفت بعد ما إذا كنت يقظًا أم غائصًا في نوم عميق، ولم أتبين إن كنت قد جالست معشوقتي، أم زارتني في المنام. ووجدت نفسي مستريحًا لما جرى، حلمًا كان أم حقيقة.

* * *

استعدت أيام الوجد والشوق والحرقة، وأغمضت عيني مستعيدا تفاصيل اللحظة الخالدة، غير عابئ بأي شيء سوى أنني رأيت وجهها المشرق، الذي بدد ظلام حجرتي، وظلمة قلبي الملتاع. وسيطر عليَّ فرح مقيم، إلى درجة أنني رحت أرقص في العتمة. أدور كالفراشات، ومقصدي بقعة النور التي ظلت قائمة في الحجرة، ولما تأملتها، وجدت أنها بالضبط على قدر جسدها المتهايل اللدن. درت ودرت، واحتضنت النور، وعصرته بين ذراعي، فسرى في أحشائي شيء غريب، حتى كاد أن يذوب له جسدي، ثم شفت روحي وصفت، وانخرطت في بكاء من فرط صبابة حلت بقلبي كإعصار هادر، ورحت دون أن أدري أناديها بصوت تخنقه الدموع، وشعرت أن صوتي يلف الفضاء الرحب، ويعود إليَّ صدى حزينًا منكسرًا.

قمت إلى النافذة، فتحتها فوجدت القمر يجاهد هناك ضد سحابة داكنة كانت تضايقه، وترمي على الأرض بقعة هائلة من الظلام. ونظرت ما وسعني، فوجدت بصري يخترق ظلمة السحابة، ويصل إلى القمر الصافي الجميل. ثم راح وجهها يطبع ملامحه على صفحة النور المستديرة، لكن سحابة أخرى، أكثر ثقلًا وسمكًا حلت، فانطمست الملامح تماما. ملأني غيظ، فار له جسدي، واشتعلت خواطري، فوجدت نفسي أمرق من النافذة، دون إرادة مني، وأنجذب إلى قلب الفضاء بقوة خارقة، حتى وصلت إلى السحابة، فرحت أخمشها بأظافري في عنف وقسوة، فسال منها ماء غزير. ثم أخذت أصفعها يمنة ويسرة، ومددت ذراعيَّ كاملين إلى مركزها المعتم، فبددته، لتتساقط من أطرافها وتنهار، فيبزغ القمر من جديد، ويأتي وجهها المقيم في صميم الفؤاد.

مددت يدي إلى النور المنساب في جلال فحفنت منه حفنة، دلكت بها جبيني، فرأيت وجهي ينطبع هناك في الفضاء البعيد، وسمعت نداء جليًّا يقول لي:

ـ انزل هناك على الأرض مستقرك.

ووجهت وجهي شطر الأرض فبانت لي هناك في عمق النور الخافت بقعة داكنة، تفرست فيها، وعرفت أنها بيتي الصغير. والقوة التي أحبتني إلو أجواز الفضاء، ردتني إلى حجرتي، من النافذة نفسها.

وجدت نفسي إلى جوار ـ الشيء البائد مجردًا من كل أسباب القوة، وجسد النور الذي احتضنته لم يكن موجودا مكانه، فانخرطت في بكاء حار، مستسلمًا لظلام رائق، وسكون مطبق، ورغبة عارمة في

الانفراد بنفسي. سافر الليل على قدر ما هو محدد له، فلما نضح النور من النافذة، وزقزقت عصافير الصبح النشيطة، نهضت وخرجت موليًا وجهي شطر الخلاء.

سرت صامتًا، لا ألتفت إلى أي أحد، ولا أي شيء، حتى بلغت حافة النهر، فجلست والشمس تفرد ضفائرها الذهبية على صفحة الماء، وتمنحني دفئا وطمأنينة فارقتني الليلة الفائتة. وحملقت في الماء ما وسعني، فرأيت وجهها يتشكل هناك بين الأمواج الهادئة. تجمع على مهل جزءًا جزءًا، حتى اكتمل، فارتعش قلبي، وهامت روحي في دنيا لشبية بالرغبة واللهفة والأماني المغلفة بأطواق من الخوف والظنون.

ووقفت على الشاطئ، وناديت الصياد العجوز بصوت مبحوح من فرط الألم:

ـ يا عم إسماعيل.

وجاء الرجل على مهل، حتى وضع يده على كتفي وقال:

ـ صباح الخير.

فرددت التحية بصوت مرتعش، ووقفت حتى حاذيته، ثم مددت يدي إلى عمق الماء، وقلت له:

ـ انظر.

فمد بصره إلى حيث يشير طرف سبابتي، وقال:

ـ خير.

ـ الا ترى شيئا هناك يرفرف بين الموج.

ـ ليس هناك شيء سوى زهرة ورد النيل.

ـ هناك أمام الزهرة.

ـ لا شيء أمامها.

ـ بل وجه امرأة جميلة.

فضحك الرجل حتى بانت أسنانه المثرمة، وقال:

ـ أي وجه؟

ـ وجهها.

ـ من؟

ـ التي أرقتني بالليل والنهار.

ووضع الرجل يده على جبهتي وقال:

ـ أتهذي؟

فقلت له غاضبًا:

ـ أنا واثق مما أقوله لك.

فعاد إلى الضحك وقال:

ـ سمعنا عن عروس البحر، لكن لا توجد عروس للنهر.

ثم عاد من حيث أتى، بينما كان الوجه يبتسم في عمق الماء، ويقترب فيطلق بشره ونضارته بين الموج المسافر إلى البحر المالح، ويطلق لي

نفسي حيرة ووجعًا. فلما أصبحت بينه وبيني بضعة أمتار، سمعت همسًا يناديني بصوت رخيم:

ـ أنا قدرك.

فطفرت عيني بالدموع وقلت:

ـ أشيطانة أنت؟

فابتسم الوجه، وجاء الصوت:

ـ أعوذ بالله.

فقلت:

ـ أجنية؟

فسمعت ضحكا، جلجل كموسيقى صاخبة، وجاء الصوت:

ـ هاأنت قد عرفت.

فضربت رأسي بكلتا يديَّ، وقلت متوسلًا:

ـ اذهبي عني.

فعاد الضحك:

ـ بل تعال أنت إليَّ، تعال إلى نهار.

وحل بروحي عشقها فوجدت نفسي ألوذ بالصمت، ثم امتلأت عيناي بالدموع، وأعطيت ظهري للنهر، ورحت أعدو تجاه الزراعات لا ألوي على شيء، وبان منزلي هناك على أطراف القرية، فوصلت إليه لاهثًا، ضربت الباب بيدي، فانفتح عن آخره، فخطوت داخلًا، ويملؤني شعور طارئ بالأمان. وما إن أصبح كامل جسدي داخل

بيتي، حتى حل الفزع الرهيب، حين اصطدم بها نظري. كانت واقفة وسط الحائط، جسدها يشق الجدار، مطوقة بالطين اليابس عن شمالها وعن يمينها، وفوقها وتحتها.

لم تكن قدماها واقفتين على الأرض، بل على الجزء الأسفل من الجدار، ورأسها مشرعة بين الطين، تعلو وجهها الرائق الجميل. كانت تبتسم فاهتز قلبي بين خوف ورجاء، واستقر بصري عليها مرة أخرى، بعد أن زاغ يمنة ويسرة، فأشرقت عيناها بشعاع خطفني خطفًا، فلم أدر إلا وأنا أتقهقر للوراء، حتى وصلت إلى الباب، ثم صفعته خلفي، وجريت في شوارع القرية، لكن وجهها كان يلاحقني في كل مكان، على الحوائط، وفوق تراب الشارع، وفي الفضاء، وعلى سيقان الشجر والنخل، حتى سقطت مغشيًّا عليّ.

أفقت فوجدت الناس تتحلق حولي، لا أحد يدري ما حل بي. كنت أزبد وأرغي. صدري يفور، وجفناي مملوءان بالدموع. وفي شظيات الدمع المتجلط رأيت وجهها بين الناس. كانت تطل من بين كتفي رجلين طويلين، وتبتسم. أغمضت عينيّ، وذهبت هذه المرة بإرادتي إلى مشارف الغيبوبة، أو هكذا توهمت. لكنني سمعت همسًا في أذني:

ـ لا مهرب مني.

لم أرد، فعاد صوتها يقول:

ـ طريقة واحدة تنجيك.

نهضت متحفزًا، ورحت أقول، والناس تتعجب:

ـ ما هي؟

فضحكت بغنج هز غرائزي المكبوتة، وقالت:

ـ تتزوجني.

ولم أعد أدري ما أقول؟ وما أفعل؟. هل أقبلها مجذوبا بالعشق الجارف؟ أم أرفضها خوفًا من المجهول؟ ولذت بصمت عميم، ووقفت أنفض التراب عن جلبابي، والتثاقل عن مقلتي، والناس حولي ذاهلون، يحملقون في وجهي صامتين. بعضهم راح يضرب كفًّا بكف، وبعضهم راح يسندني، وأنا أترنح من الإعياء والخمود. أشرت إليهم أن يذهبوا بي إلى المسجد، وكان على بعد أقل من مئة متر منا، فاصطحبوني إلى هناك واجمين.

دخلت فواجهتني القبلة، وكنت لم أرها منذ سنوات، اكتفيت فيها ببعض التسابيح، التي تحل بقلبي ورأسي في الهزيع الأخير من الليل، وتفضي بي إلى الحيرة، بعد سياحة طويلة في أسرار الملكوت. تقدمت حتى أصبحت أمام المنبر، ثم سجدت طويلًا، داعيًا الله أن ينقذني، لكن دعواتي كانت تتوه في شرود طويل، وترسو على صفحة خدها الأسيل، الذي كان ينام في رأسي، فلا أرى غيره.

وسمعت صوتًا يناديني من كل مكان:

ـ لا تتعب نفسك وتواصل الهروب.

فأنهيت صلاتي بسرعة وقلت لها:

ـ تطاردينني حتى في المسجد.

فقالت:

- المساجد ليست لكم وحدكم.

وراح الناس ينظرون إليَّ وأنا أكلم الفراغ، فمصمصوا شفاههم في حسرة. وحين كنت أهم للخروج من المسجد مطأطأ الرأس، ضربتني بلطف على كتفي وقالت:

- نحن نرى ولا نُرى، ونغيب في الثرى، ولا يموت كهلنا حتى يعود شابًّا.

فقلت لها متوسلًا:

- نحن مأمورون ألا نقترب منكم.

فضحكت بصوت رج أذني وقلبي وقالت:

- بلقيس ملكة سبأ تزوجت نبي الله سليمان مع أن أمها كانت جنية.

فاغرورقت عيناي بالدموع وقلت:

- هو نبي أما أنا فعبد ضال.

فقالت:

- رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره.

ثم تلاشت في الفراغ، وحل مكانها دخان أبيض، لم يلبث أن اندثر وذاب في الغبار، الذي تفضح الشمس حركته التي لا تتوقف.

لم أفهم كثيرًا من قولها الأخير، لكن كلمتها ظلت محفورة في رأسي، فلما رأيت إمام المسجد في اليوم التالي سألته عن معنى هذا الكلام، فقال:

- إنه حديث لرسول الله، صلى الله عليه وسلم.

فقلت مندهشًا:

- أمن الجن من هو على ديننا؟

فلسعه السؤال الذي لم يكن يتوقعه وقال:

- هم أقوام مثلنا يدينون بكل الأديان، وفيهم من كل الأهواء التي فينا.

فسحبت عيني من عينيه وسألته منكسرًا:

- هل يجوز الزواج منهم؟

فابتسم وقال:

- الإنس جسم كثيف، والجن روح لطيف، لا يجتمعان.

فقلت بصوت خفيض:

- فإن كان الإنسان مجبرا.

فقال:

- مناكحة الجن مكروهة.

ثم سألني فجأة، ومن دون أن أرتب ذهني لأي شي:

- لِمَ كل هذه الأسئلة؟

فحكيت له حكايتي، فقال بعد أن أصغى إليَّ جيدًا:

- صل لله، واستعذ به من الشيطان، وأكمل نصف دينك من بني جنسك.

في الليلة التالية ذهبت خاطبا سميحة، إحدى بنات القرية، كانت فتاة رقيقة الحال، فقيرة مثلي، ومتوسطة الجمال. لم تكن بيننا أي عاطفة سوى ما يرتبها الاحترام المتبادل، لكنني شعرت بارتياح شديد حين رأيتها وأنا أدخل بيتهم للمرة الأولى، وفاض عليَّ أهلها من كرمهم وطيبتهم ما غمرني بامتنان عميم. سهرت عندهم حتى مشارف الصبح، وخرجت أهرول نحو بيتي. دخلت، ودفنت رأسي في الوسادة القديمة، التي دسست تحتها المصحف الليلة قبل الفائتة. وأخذني النوم إلى قيعانه البعيدة، فلم أدر عن دنيا الناس شيئًا، حتى فزعني طرق شديد على بابي، فقمت فزعًا، فوجدت أخوها أمامي، وعيونه غارقة في الدموع، وقال:

- سميحة تعاني من حالة غريبة.

جريت معه إلى بيتهم فوجدتها ملقاة على الأرض تصارع كائنًا خرافيًّا لا يراه أحد. تتمرغ على التراب، ثم تضرب بيديها يمينا ويسارًا. تقوم وتجري إلى الخلاء، لا أحد يستطيع أن يردها. وجاء من يفهمون في الطب فلم يداووها، وعبثًا حاول المشايخ، والعرافات الغجريات. زارها أحد الدراويش فقال:

- ليست مجنونة، بل مسها جني.

وارتعدت لقوله، خاصة حين صحح كلامه قائلا:

- جنية.

وذات ليلة انشق عنها حائط بيتي، وقالت بغضب:

- لن أتركها حتى تتركها.

وتراخت عزيمتي أمام مشاهد العذاب التي كانت تعيشها سميحة. واختليت ذات يوم بأبيها، وقصصت عليه حكايتي، فوافق على فسخ الخطبة. بعد ساعات عادت سميحة تتحسن تدريجيا، فلما انتصف الليل، شعر أهلها أن كل ما مر بها قد ذاب في الهواء. خرجت في اليوم التالي لتملأ جرتها من النيل، والناس ينظرون إليها باندهاش وعجب.

بعد ليلتين زارتني الجنية الجميلة، وقفت أمامي فنظرت مليا في وجهها، فراح الخوف يتراجع، وسرت في جسدي طمأنينة، وأطل عشقها من بين طيات الهلع، فبددها، كما يبدد شعاع الشمس العفي ندف السحب الخفيفة. وقلت لها في استسلام عجيب:

- ماذا تريدين مني؟

فاقتربت حتى بات بين جبهتها وجبهتي ما لا يكفي لمرور كف يدي، ووضعت يديها على كتفي وهمست بصوت رخيم هز كياني:

- تزوجني.

فارتخت أعصابي، وذهب مني زمام نفسي، وتنفست بعمق شديد، وتطلعت في الفضاء، فرأيت هناك في الأفق قمرًا مستديرًا، ونجومًا تراقص حوله، فقالت لي مبتسمة:

- أتريد أن تمسك القمر بيدك؟

فاندهشت لقولها، ولم أدر بما أجيب. فعادت تقول:

ـ أتريد أن ترى النجوم عن قرب؟

فالتزمت الصمت، فقالت:

ـ أنا الذي احتضنتك من قبل، لتخمش السحب، وتطلق القمر. كنت أرفعك، كما يلهو طفل بطائرة ورقية، وكنت مستسلما رُخيًّا، كما أنت الآن.

وتذكرت ما جرى لي في الرحلة الخاطفة إلى السحب، فقلت لها في اندهاش:

ـ لا زلت جاهلًا بما إذا كان هذا حلمًا أم حقيقة.

ـ بل حقيقة جليّة.

ـ لم أرك وقتها.

ـ لكنني كنت أراك وأحتضنك، من دون أن تشعر.

فأطرقت طويلا، ثم سألتها:

ـ وما كان الهدف من هذه الرحلة.

فضحكت ما وسعها وقالت:

ـ لم أكن قادرة على التمكن منك وأنت ملتصق بأصلك.

فنظرت إليها في حيرة، لكنها أوضحت:

ـ أنت ابن آدم، خلقت من تراب، وما دامت قدماك تلامسان أصلك، كنت لا أتمكن من أن أعيد عشقي إلى صدرك، بعد أن استبد بك خوف مني.

وضيقت الضحكة إلى ابتسامة صافية وقالت:

ـ وأنت تطير في الهواء، زرعت حظي داخلك، فلم يعد بمقدروك أن تهرب مني.

ثم تقدمت حتى التصقت بي، وطوقتني بذراعيها، ولثمت شفتي، فالتهمت شفتيها، ومصصت لسانها في قبلة لم أتذوق طعمها قبل اليوم. فلما حل ريقها في ريقي، وجرى في عروقي، ترنحت ثملًا، ثم غبت عن الوعي ساعات طويلة.

وخارت عزيمتي أمام جمالها وحنوها والموسيقى التي تنبعث من بين شفتيها حين تغمغم وتغنج فيلتهب جسدي بنار الشهوة. ولما وجدت مني استسلاما، اقتربت وقالت:

ـ لتأتي معي في رحلة جميلة.

فنظرت إليها مستفهمًا، فأجابت:

ـ أريد أن ترى أهلي.

فسرت في جسدي موجة من خوف، وأطرقت صامتًا، لا أعرف بما أجيبها. لكنها لم تمهلني طويلًا، ومدت عنقها، وأناخته على كتفي، وهمست في أذني:

ـ لا تخف، لقد صرت منذ الرحلة الأولى واحدًا منا.

فخلعتُ كتفي من عنقها وقلت منزعجا:

ـ واحدًا منكم؟

فابتسمت وقالت:

ـ أقصد صرت قريبًا منا.

لذت مرة أخرى بالصمت، فقالت ضاحكة:

ـ السكوت علامة الرضا.

ثم طوقتني بذراعيها، ووجدت نفسي أطير مرة أخرى، وأمر من فتحة النافذة كما تمر الريح الصاخبة، وأحلق في الهواء. البيوت صغرت تحت قدمي، ثم لم تلبث أن تلاشت، وصرت معلقا في الفضاء، يلفني الفراغ من كل جانب.

لم أدر كم مر من الوقت وأنا أطير، ولولا حديثها المتواصل معي في الرحلة الطويلة لمت فزعًا.

قبيل المغيب لاحت هناك في عين الشمس معالم مدينة عجيبة. كانت بيضاء تسر الناظرين، فلما اقتربت من أول بيت فيها، وضعت يدي على جدرانه الخارجية، فوجدته أملس كالحرير، فقلت لها مندهشًا:

ـ أي بيوت تلك؟

فضحكت وقالت:

ـ من عظام دنياكم.

ـ عظام دنيانا؟

ـ موتاكم منذ آلاف السنين، وحيواناتكم التي تنفق، وتذبحونها؛ لتأكلوا لحومها.

ـ أمن العظام تقام الجدران؟

ـ نأتي بأطنان منها، ونرميها في مراجل تغلي فتنجلي، ثم نخرجها، ونلقي بها إلى المطاحن العملاقة فتطحنها، ونعجن الطحين، ونصبه في قوالب من ذهب، فنصنع منه طوبًا لبيوتنا.

تعجبت وسألتها:

ـ قوالب من ذهب؟

ـ الذهب عندنا من أرخص المعادن.

ثم وهي تشد على يدي:

ـ حين نتلاحم كما تتلاحم تروس الساقية، ويروي عطشك حرقتي، سيكون بوسعك أن تلهو بالذهب كما تشاء، وتدوس على سبائكه بقدميك، وأنت تتقدم إلى مخدعي.

فشددت على يدها البضة، وقلت:

ـ أريني، ولا أريد ذهبًا.

فابتسمت وقالت:

ـ ماذا تريد أن ترى؟

فغمزت لها بعيني وقلت:

ـ المدينة أولا.

فأخذتني من يدي، وهبطنا وأول المساء يلقي رداءه الرمادي على الدنيا. بزغت على أجناب الشوارع لمبات صغيرة في حجم حبات العنب، لكن ضوءها كان قويًا، بالقدر الذي جعلني أشعر أنني في

وضح النهار. تفرست في اللمبات المتراصة بهندسة بديعة، وسألتها في دهشة:

ـ ما هذه القناديل العجيبة؟

فابتسمت وقالت:

ـ ليست قناديل زيت.. إنها تضاء بنور الشمس.

ـ الشمس في الليل!

ـ نحبس من شمس النهار في صناديق ضخمة من زجاج بلوري، يكاد أن ينير، ونضغط الأشعة حتى يصبح كل صندوق وكأنه قطعة صغيرة جدًّا من شمس الظهيرة، وحين يجن الليل، نطلق النور في خراطيم دقيقة لا لون لها، موصلة بأعمدة الإنارة.

روعني أن المدينة خاوية على عروشها، لا صوت يرن في أذني، ولا صورة تتراءى لعيني. فقط صفير الريح، وهسهسة لا أعرف من أين تأتي.

فملت إليها وقلت:

ـ لا أسمع صوتًا.

وضعت يدها على أذني فتدفقت إليها هسهسات غريبة، لم تلبث أن صارت لغة لا أفهم معانيها، لكنها تقترب من تلك التي تتفوه بها الجنية الحسناء، حين تضرب بعينيها في الفضاء وتكلم من لا أراهم.

نظرت إليّ فوجدتني متحيرًا. وضعت يدها على عيني، فانكشف كل المستور. أشباح لا تحصى ولا تعد، تطير هنا وهناك. رأيت شيوخًا

طاعنين في السن، وشبابا يافعين، وأطفالا خدجا، لكن ما خطف بصري، وجعل الذهول يملأ رأسي، هن تلك الحسناوات، اللاتي يتبخترن في كل مكان. نظرت وأمعنت النظر، وأسكرتني نشوة غامرة. وطالعت عيني نهار فوجدت فيها غيرة، فكتمت في نفسي الضحك، واحتفظت بطاقة السعادة التي تفجرت في روحي. لكنها جذبتني من يدي، وقالت:

ـ انظر في عيني.

نظرت في بحيرتين رائقتين من عسل مصفى، وهي تطالبني بأن أحلق فيها ما وسعني. أنا أتبعها خاضعًا مطيعًا، ثم ابتسمت وقالت:

ـ الآن بوسعك أن ترى ما تريد.

ومددت بصري إلى الأشباح الخفيفة الطائرة هنا وهناك، فروعني أنها خلت من الجميلات الفاتنات. رميت طرف بصري إليها، فلمحت على شفتيها ابتسامة ماكرة. فهمت كل شيء. وقلت لها:

ـ ليس في القلب غيرك.

فضحكت وقالت:

ـ لست أجمل جنية.

ـ أنت في عيني أجمل الجميلات.

ـ سيطول بك المقام لدينا، وغانيات الجن كثيرات.

ابتسمت وقلت:

ـ لم تفلح في إغوائي غانيات الأرض.

ربتت على كتفي وقالت:

ـ غانياتكم غير غانياتنا، وأنت غيرنا، فهناك تقاوم، وهنا يتبخر منك العزم.

هززت رأسي مطيعًا، ورميت بصري إلى البعيد، فلمحت على أطراف المدينة أجة ضخمة تعانق الفضاء الرحيب. كانت خضراء فاقعة اللون، وتنبت في قمتها العريضة أزهار مختلفة الألوان، بيضاء وصفراء وحمراء وزرقاء وبنفسجية. كانت الريح تداعب أطرافها فتهتز، ورأيت أشياء مختلفة الأحجام وذات ألوان عديدة تتساقط منها، وتهب من ناحيتها نسائم طيبة. ملت على الجنية التي كانت تسير بجانبي مقبلة على الدنيا بكل كيانها:

ـ ما هذه؟

نظرت إليّ في استنكار وسألتني:

ـ ألا تعرف هذه؟

ـ لا.

ـ شجرة.

ـ كل هذه شجرة واحدة.. لقد ظننت أنها غابة كاملة.

ـ ألم تر مثلها من قبل؟

ـ لا.

ـ كيف ذلك، ولديكم على الأرض واحدة مثلها.

ـ على الأرض، وأين نحن أذن؟

ـ نحن خارج كوكبكم البائس.

ـ على القمر، أم على المريخ؟

ـ بل في مكان قصي على طرف المجرة.

تذكرت أن شيئا مهما فاتني في حديثها، فعدت أسألها:

ـ أتوجد شجرة كبيرة مثلها على الأرض.

ـ نعم.

ـ في أي مكان؟

ـ هناك بين أحضان الصخر، وعلى حواف ماء عذب يتدفق منذ آلاف السنين.

تفكرت مليًّا، فبانت هناك في قعر الذاكرة صورا باهتة لشجرة كبيرة رسمها في خيالي كلام جدي. لا أعرف متى حدثني عنها بالضبط، لكنني أتذكر أن خيطا من نور القمر كان يحط على شفتيه، فتلمع بقايا لعاب عالقة بها، وهو يسرد لي حكاية عن هذه الشجرة. ثم باغتتني فجأة، جملة قالها في ثنايا كلامه، عن أن الجن هو الذي زرعها.

وسألت صاحبتي الجنية، فضحكت وقالت:

ـ الجن لم يزرعها، لكنه ساعد كثيرا على أن تنبت على هيئتها.

هززت رأسي معلنا عدم إلمامي بمعنى كلامها، فنظرت بعينين ياسمينين، وقالت:

ـ إحدى الجنيات الجميلات حملت بذرتها، ونقلتها إلى المكان الذي نبتت فيه، واستوت على ساقها. صارت دوحة كاملة.

ثم صمتت برهة، وواصلت:

ـ نزلت الجنية إلى أرضكم على هيئة يمامة وديعة، والتقطت البذرة، وسقتها من دمها.

فدهشت من كلامها، وسألتها مستغربًا:

ـ دمها؟

ففهمت ما أعني، وربتت على كتفي، وقالت:

ـ هذه الجنية من حرس شجرتنا العظيمة، كانت تتنعم بشم عبيرها، وتذوق فاكهتها اللذيذة، لكنها تمردت على دورها، الذي ظلت تؤديه بصبر لا يلين لمئات السنين، فعاقبها ملكنا الكبير، بأن تهبط إلى الأرض، على هيئة ضفدعة كالحة اللون، رخوة الجسد، لكنها بكت كثيرا، وطلبت منه أن يعفو عنها عفوًا جميلًا. لكنه أبى، فتدخل لأجلها بعض حكمائنا، وخففوا عنها الحكم، لتصير يمامة لا ضفدعة. هي التي اختارت هذه الهيئة، ووافق ملكنا، وهبطت إلى الأرض في ليلة حالكة السواد، وحطت على حديقة تقع على طرف قرية، فوجدت عشًّا خاليا وسكنته. عاشت أيامًا مديدة، ومرت عليها أجيال كثيرة من اليمام، حتى وقعت الواقعة، وبدأت الخطوة الأولى نحو شجرتكم العظيمة.

في هذه اللحظة رأينا شجرتنا هنا ترتج، ويخرج من جوفها عويل وصراخ، انداح في كل الأرجاء. وخرج الجن ليستطلع الأمر، وكل الوجوه تعلوها دهشة ووجل، وقال أكثرنا علمًا:

ـ إنها لحظة مخاض.

وتعجبنا من كلامه، لكنه لم يتركنا حيارى، وقال:

ـ هناك بين الصخر الصوان والماء العذب يحط جنينها المبارك.

ولم نفهم كثيرًا إلا حين قال:

ـ هل الأرض ينبت مثلها.

وفي المساء جاءنا بيان من ملكنا الكبير يقول:

«أختكم التي سخطتها قبل سنين ضفدعة، ثم حولتها إلى يمامة، بناء على شفاعتكم، أخرجت من دمها كل الرحيق الذي امتصته في سالف الدهر من شجرتكم المباركة، وسقته إلى برعم طري، فانبثقت شجرة عظيمة أخرى على الأرض، فهنيئا للبشر، ويا ليتهم يحفظون لنا هذا الجميل».

هاج الجن وماجوا، وعلت وجوههم كآبة وخوف. وانبرى أكبرنا سنًّا إلى الملك ذات مساء وقال له:

ـ الناس يجحدون، ولن يحفظوا جميلنا.

فقال الملك في حياد:

ـ إن تنكروا له، نزعنا من شجرتهم البركة.

تمتم الكبير في أسى وقال:

ـ الكون ليس في قبضتنا يا مولاي، وقدرتنا تسير وفق المشيئة.

هز الملك رأسه في طاعة وقال:

ـ منحنا صاحب المشيئة ما يمكننا من أن ندبر أمورنا إن طمر الجحود الثناء.

لكن هذا القول لم يقنع الكبير، فغاص في تفكير عميق، ثم قال:

ـ لنخفيها عن أعينهم حتى نعثر على من نأتمنه عليها.

وافق الملك على طلبه. وذات ليلة طار فوج من الجن إلى الأرض، وضربوا في جنباتها، حتى عثروا على النبتة المباركة. وقفوا إلى جانبها، وراحوا ينفخون حولها نفخا شديدا، حتى صارت طيفا أو خيالا، لا تتجسد إلا أمام الموعودين.

ولهذا لم ترها أنت في الأرض إلى الآن، مع أنها قريبة من قريتكم الصغيرة. لقد كبرت واستوت على ساقها الضخمة، وصارت حديقة كاملة.

درت برأسي لعلي أتذكر المكان الذي جئت منه، لكن شيئًا لم يستقر في عقلي. وضعت راحتيَّ فوق رأسي، وأغمضت عينيَّ وقدحت جناني لكن كل أيامي على الأرض كانت قد تبخرت. حاولت وحاولت في الأيام التالية، لكني أدركت بعد كل هذه المحاولات أن تاريخي البسيط قد انطمس، وصرت كائنًا من عالم آخر. اجتاحتني موجات من الحزن، فقلت لنهار في أسى:

ـ لم أعد أعرف من أنا.

ففهمت ما أقصد، وقالت:

ـ أنت منا.

فزعتني الإجابة، وكأنني أتلقاها لأول مرة، وقلت:

ـ كانت لي هناك أيام جميلة.

قالت في تبرم:

ـ أيامك هنا ستكون أجمل.

ثم ابتسمت وقالت:

ـ كيف تدرك أن حياتك على الأرض كانت طيبة؟

قلت لها في يقين:

ـ لقد ماتت التفاصيل، لكن المعنى العام لا يزال حيًّا داخلي.

هزت رأسها، وقالت:

ـ قدراتنا تقف عند هذا الحد، ولو كان الأمر بيدي، لنزعت حتى هذا المعنى منك.

جفلت منها، وقلت في غضب:

ـ أنت وراء ذهاب حياتي على الأرض مني.

هزت رأسها نافية، وقالت:

ـ بل أنت.

ـ كيف؟

ـ وقت أن طلبت أن تسمع وترى ما يدور هنا.

ـ أهو الثمن؟

ـ هذا قانون يسري علينا، لم أضعه أنا.

ـ لماذا لم تخبريني قبلها؟

ـ لو أخبرتك لرفضت، وسيظل حاجز بيننا إلى الأبد.

ـ مسختيني لأصير مثلك.

ـ بل رفعتك إلى منزلتنا.

ـ هذه أوهام، فبعض المعاني العامة الحية داخلي تؤكد لي أن هذا وهم، الإنسان هو خليفة الله في الأرض، والله كرمه على العالمين، هذا ما يقوله القرآن.

ـ أتتذكر القرآن؟

ـ لا يزال حيا في رأسي. كل السور التي حفظتها أتذكرها كاملة.

هزت رأسها، وقالت:

ـ لدينا هنا أيضًا من يحفظ القرآن... أنا أحفظ قصار السور.

ثم صمتت برهة وقالت:

ـ وأحفظ آيات من التوراة والإنجيل.

أومأت برأسي مؤمنا على كلامها، ثم تفرست مليا في ملامحها وهي تقول في جدية وخشوع:

ـ كتب الله عظيمة خالدة، والمشكلة في المتنطعين والمتنفعين من بني جنسك، الذين لا يفهمون كلام الله، أو يحرفونه، أو يتقولون عليه ما لم يقله.

وعادت من رحلة التبتل القصيرة، فنظرت في عيني بطريقة، أيقظت في داخلي شبقًا عارمًا، فمددت يدي إلى يدها، ثم جذبتها، والتمت شفتيها، فحلت في جسدي نار الرغبة. وهممت أن أمد يدي إلى نهديها، لكنها قالت في دلال:

ـ ليس هنا مكان العشق.

ثم نهضت، وأخذتني من يدي، وأنا أسير مترنحا خلفها، حتى وجدت نفسي على أبواب غرفة غريبة. مدت إصبعها فانزاح الباب جانبًا، وبان هناك في منتصف الحجرة مهجع أبيض، محمول فوق ظهور أربع غزلان بيض، قرونها ممشوقة قوية، وعيونها تلمع بشدة، فتنشر الضوء في الأركان، وينكسر النور على الجدر البيضاء الناصعة، فيرتد إلى المهجع نثارًا من ذهب. وظهر هناك في أحد الأركان ذئب تنسكب من عينيه النار، فينبعث الدفء في الحجرة. مشت بي إلى المنتصف ورمتني على المهجع، فغصت حتى كاد جسدي أن يتغطى من كل جانب، وراحت الغزلان تتحرك في لطف، فتهدهدني، ونظرت إليها فوجدتها عارية، ونظرت إلى نفسي فوجدتني عاريًا، رغم أنني لم أخلع ملابسي. تقدمت ثلاث خطوات، ثم قالت:

ـ هئت لك.

فقلت في سعادة غامرة:

ـ حان لناري أن تنطفئ.

ثم جذبتها من ذراعها، فصرنا شيئًا واحدًا. ومر بي زمن لا أعرف قدره، وأنا غارق في النشوة واللذة. وبعد مرات ومرات حلت السكينة وبان لعيني قمر هناك يطل من النافذة، لم يكن مستديرا، بل كان مربعًا، في منتصفه دائرة معتمة، والنور يشع من أطرافه، ويأتي إلينا في هدوء وجلال. كانت هي تتمرغ في الفراش، والسعادة تفور في عينيها، ثم سألتني في حبور:

ـ أتريد أن تتنزه؟

فأومأت برأسي موافقًا، فاتجهت إلى الغزلان، وكلمتهم بلغة لا أفهمها، فوجدت المهجع يعلو، ثم يمرق من الباب، ويصعد نحو السماء. دار ثلاث دورات حول نفسه، ثم انطلق بسرعة شديدة، حتى بتنا في كبد الفضاء. وقلت لها ونحن نقترب من القمر المربع:

ـ شيء رهيب.

فضحكت وقالت:

ـ لا تنزعج، ستحل بك الطمأنينة حين ترى الحدائق الغنّاء والطيور الخضر، والمياه الرائقة التي تصعد إلى أعلى.

وفي الطريق سمعت أصواتًا ليست غريبة عني، لكنها كانت راقدة في قاع الذاكرة، ثم طفت، وتحققت منها. كانا صوتي أبي وأمي يناديان عليّ بحرقة، أكثر من تلك التي عهدتها منهما حين كانا حيين يرزقان. ماتا منذ سنين طويلة، حين انقض عليهما جدار بيتنا القديم، وقت أن

كنت أنا غارقًا حتى أذنيَّ في «الموطأ» أقرأه وأعيده. وجاءني الخبر بعد يومين كاملين، فحرمت من إلقاء نظرة الوداع على وجهيهما الطيبين.

ونادتني أمي في لهفة:

ـ تعال يا عاكف، هنا الراحة والحرية.

وقال أبي:

ـ حللت أهلا في رحاب ذي الجلال.

لكنني قلت له في هلع:

ـ لم تحن ساعتي بعد.

فضرب كفا بكف، وقال:

ـ يا للخسارة، كنت أحسبه قد انعتق من المشقة والأكاذيب.

ثم قال:

ـ شيء غريب، الأجساد الحية لا تزور السماء أبدًا

ـ لا يحدث هذا إلا لنبي، أراد له الله أن يشهد الملكوت العظيم.

ورنت ضحكة نهار وقالت:

ـ ما سيراه ليس سوى قطرة في بحر.

وسمعتها أمي فسألتها:

ـ من أنت يا ابنتي:

فردت في ثقة:

ـ أختك من الجن.

فقالت أمي في أسى:

ـ خاويت جنية يا عاكف، وأنت الأزهري التقي.

فقلت لها في حزن:

ـ مجبر ابنك يا أماه، لا حول ولا طول.

فضحكت ساخرة، وقالت:

ـ تستطيع أن تتحرر إن ملكت الشجاعة.

فسألتها في لهفة:

ـ كيف؟

فقالت:

ـ الشجرة المباركة.

رددتها ثلاث مرات، وكررها أبي وراءها، ثم غار الصوت في جوف الفضاء البعيد.

(٤)

بعد زمن غير طويل، اقتحمت أنفي عطور مختلفة، ثم بانت في ضوء القمر شواشي داكنة، وفجأة راح المهجع يهبط في هدوء، حتى حط بين شجرتين عملاقتين. جلست مستمتعا بالمنظر البديع، وأمالتني هي على صدرها، فغفوت، وأنا أسحب شهيقًا عميقًا، والعطر يتغلغل في شراييني، فتسري بقلبي سعادة غامرة. لم أعرف إلا حين استيقظت أن الأشجار مقلوبة، جذورها إلى أعلى، تنغرس في الفضاء، وشواشيها إلى أسفل، تحط في الفراغ. وكان الماء يصعد إلى الجذور، وحين يضربها بلطف، يتناثر الرذاذ فيتهادى إلينا، يدغدغ وجهينا.

وخرجت من بين الأغصان الملتفة في تناسق بديع طيور خضر، راحت تزقزق، وتقترب منا، ثم رفعت مناقيرها، وتبسمت. وأشارت لها إلى أكبرها حجما، فتقدم إليها، ووقف بين يديها، ثم هز رأسه في طاعة. فاقتربت منه، وهمست في أذنيه بكلام لم أسمعه، فهز رأسه مرة أخرى، ثم تقهقر خطوتين، واستدار، ونادى الطيور فجاءته مهرولة، ثم صنعت نصف دائرة. وقف الطائر الكبير أمامها، وأشاح بمنقاره، فانخرط الطير في غناء عجيب. بعضه كان يفتح منقاره عن آخره،

والبعض الآخر كان يضمه. مناقير ثابتة ممدودة إلى الأمام، وأخرى تهتز في تبختر وعجب، والموسيقى تسيل، وتنبعث في جنبات المكان، عذبة شجية، تتأرجح بين فرح وحزن، وبين يأس ورجاء. وسلبت الموسيقى مني كل عزم، وأيقظت داخلي كل شجن، فذبت في الألحان، وانفصلت عن المكان والزمان، أضحك فتهتز قهقهاتي كل خلاياي، وأبكي فتنهمر مني الدموع، وتختلط بالرذاذ المنعش، أتوه وأنتبه، أغفو وأستيقظ، أموت وأحيى.

وملت على نهار وقلت:

ـ هذه أعذب موسيقى أسمعها.

فهزت رأسها وقالت:

ـ مجرد وتر من أوتار الجنة.

ـ كل هذا.

ـ عند ربك أكثر، كلمات ولحن وأشياء.

وحين انتهت الطيور من غنائها، تقدم كبيرها نحو نهار، ثم أناخ هامته، وانصرف في أدب، فتبعه باقي السرب الأخضر الجميل، وغاب في تلافيف الشجر. لكن صوت الموسيقى كان لا يزال حيا في خاطري، وكأن الطيور لا تزال تصدح أمامنا بألحانها الفريدة. وسحت في خيال بين سطوة العزيف، فشعرت أنني أخلع نعلي، ثم أتكور وأدخل ذاتي، وأستمر في التكور والانصهار حتى أصير نقطة صغيرة، لا تشغل أي شيء يذكر في الفراغ الفسيح.

ورأتني نهار أنكمش وأتوه، فطوقتني بذراعيها وقالت:

ـ إلام الهروب؟

فأفقت من غيبوبتي، وقلت:

ـ أغيب في الكون الفسيح.

تبسمت، ثم ارتسمت على شفتيها علامة ساخرة، وقالت:

ـ هناك على الأرض تترعرع الأوهام.

ـ أي أوهام؟

ـ يعتقد المتجبرون في أرضكم أنهم وحدهم سكان هذا العالم. منذ آلاف السنين والبشر غارقون حتى ذقونهم في خيال مريض، يصور لهم أنهم قادرون على فعل كل شيء، ولو جلس الواحد منهم مع نفسه ساعة من نهار، وتفكر مليا في الكون، لأدرك أن الأرض كلها ليست سوى برتقالة صغيرة تطير في الهواء، وأنها كوكب في مجموعة شمسية، هي واحدة من عدة مجموعات في مجرة، هي واحدة من مجرات عديدة. عندها سيدرك الإنسان حقيقة ذاته، ولن يفعل سوى الخير، ويجلس على عتبات عمره، لا يفكر في شيء سوى الخلود.

ونظرت إليها متعجبا من منطقها، لكنها لم تعرني أي اهتمام، ومصمصت شفتيها في أسى ثم واصلت:

ـ كم من دول سادت على أرضكم ثم بادت، وغرورها أيام فتوتها جعلها غاية في العنجهية والسخف. لم يفكر هؤلاء الذين خاضوا الحروب، وسفكوا الدماء، وأقاموا الإمبراطوريات مترامية الأطراف، أن أرضهم صغيرة جدًّا، ودولهم على عمرها المديد، ليست سوى طرفة عين في الزمن اللانهائي، وأن كل ما جمعوه من مال ومجد

وسلطان، مآله التلاشي، سيطير كما تذرو الرياح حبات الخردل، وقد يتبخر كما تموت بقعة من ماء، انحسر عنها البحر، وتركها نهبا للرمل والشمس وأقدام العابرين.

ووجدت الفرصة سانحة كي أسترد ما سلبته مني، فقلت لها مترددا:

ـ رديني إلى عالمي الأول كي أفهم ما تقولين.

لكنها تجاهلت طلبي، وقالت:

ـ يحارب البشر الشياطين التي يقرءون عنها في الكتب المقدسة، وينسون الشياطين التي تجري في دمائهم، وتسكن تحت جلودهم، وتعايشهم في الخيال والأحلام والكوابيس المخيفة، بل يتغافل كثير من الناس عن أنهم أنفسهم باتوا شياطين، يوسوسون ليل نهار، يتحدثون بأقوال ويأتون أفعالا، تحض على الرذيلة، وتشيع الفاحشة.

فهززت رأسي في ضيق وقلت:

ـ لا أعرف عما تتحدثين، فقد سلبت مني كل شيء، فلم أعد أعرف الفرق بين الملائكة والأبالسة.

وهذه المرة التفتت إليَّ وقالت:

ـ هل تريد أن تعرف؟

فقلت في حبور:

ـ نعم.

لكنها خيبت أملي حين قالت:

ـ المعرفة شغل وهم، وجهل الكائن بما سيصيبه في الغد نعمة يجب أن يحمد الله عليها ليل نهار.

ـ دع الغد لعلام الغيوب، أنا أريد أن أعرف الأمس.

فقالت لي بلهجة جافة:

ـ اعلم أن معرفة الأمس تعني أنك ستعيش هنا في خلاء، لا ترى ولا تسمع إلا من يريد أن يسمعك صوته أو يريك صورته.

فشعرت أنها رمت إليَّ بطوق النجاة، فقلت في إقبال شديد:

ـ موافق.

فاقتربت مني وقالت:

ـ ألن تندم؟

ـ إطلاقا.

فوضعت يدها على يدي، وقالت:

ـ اغمض عينيك.

وأطبقت جفوني على ظلمة، لم تلبث أن غطاها صفار الضوء المختزن بالمقلتين، وشعرت أن شيئا يمشي فوق عيني، ثم انزلق إلى أذني، وسمعتها تقول أشياء مسجوعة، بلغة لا أفهمها، ثم غلبني النعاس. وحين أفقت روعني هذا الفراغ الفسيح الذي يلفني، فقلت لها منزعجا:

ـ أين الحديقة والطيور الخضر؟

لكنها اكتفت بابتسامة باهتة، فسألتها:

ـ وأين صوت خرير الماء الجاري من تحت إلى فوق؟

فضحكت هذه المرة، وقالت:

ـ أنت الذي اخترت.

وحلت برأسي الذكريات العامرة بالتفاصيل، فوجدتني أدب هناك في صحن الأزهر، ثم أجلس تحت أحد أعمدته، أتلقى العلم على يد الشيخ القناوي، أدقق النظر في شفتيه، حتى ألتقط كل كلمة يقولها. وتذكرت كذلك الليلة الظلماء الظالمة التي جاءني فيها العسس، ليخطفوني من بين أحضان العلم إلى غياهب السجن. ثم تخيلت أنني خارج من قعر السجن بعد موت السلطان الظالم، وقد غزا الشيب مفرقي، أدب في شوارع المحروسة بلا زاد ولا مال، حتى وجدت من أجرني سقّاء وحمّالا، لكن هذه النعمة لم تدم، فالسلطان الجديد لم يلبث أن انزلق إلى الظلم والتجبر، فراح عسسه يتعقبون كل من زعموا أنه خطر على الحكم، فهربت بنفسي، وركبت النيل إلى الجنوب، حتى انتهيت إلى هذه القرية العزلاء الصغيرة، النائمة في أحضان السكينة والوداعة، وكأن الدنيا قد نسيتها إلى الأبد. لكن عسس السلطان وجنده لم يصلوا إليّ فنجوت من السجن لكنني عشت مطاردا حتى لقيت نهار.

تهت في أيامي على الأرض، وتذكرت تمامًا ما قاله لي جاري حسن الجاولي عن الشجرة التي جاء جده من أجلها. وشعرت بحنين جارف إلى الناس، فانخرطت في البكاء، وراحت نهار تربت عليَّ، لكنني كنت

زاهدا في كل شيء، حتى فيها. ومر وقت لا أعرف مقداره وأنا أبكي وهي تمايلني، حتى وجدت نفسي أنفجر فيها قائلًا:

ـ أريد أن أعود إلى الأرض.

فانزعجت لطلبي وقالت:

ـ هذا مستحيل.

فقلت وأنا أحبس نفسي عن ضربها، خوفا من عاقبة لا أقدرها:

ـ ومستحيل أن أقضي كل حياتي هنا.

فنظرت بعمق في عيني وقالت متوددة:

ـ أكرهتني بهذه السرعة؟

فقلت لها في صدق:

ـ لن أكرهك أبدًا.

ـ حتى ولو قضيت عمرك هنا من أجلي.

فغمغمت، فسرى الضيق في وجهها، وقالت:

ـ تعبير أبلغ من أي كلام.

فأخذت يديها بين يدي وقلت لها:

ـ أنا من تراب، وترابي يحن إلى أصله، فاعذريني إن كنت أشتاق إلى الأرض، فهناك الذكريات الجميلة، ووجوه أوحشتني.

* * *

ورنت إليَّ في طريق عودتنا، فوجدتني لا أزال أكابد الحزن، فحاولت أن تخفف عني، فقالت:

ـ سنزور الأرض قريبا.

وفاضت الفرحة من بين ضلوعي، لكن لم ألبث أن أصبت بغم شديد، حين أدركت مغزى كلمة «نزور» في كلامها. وقلت في نفسي: «بت ضيفا على موطني الأرض»، وأطلقت عنان الذكريات أمام أنفي لتشم رائحة التراب، خاصة المبلل بالماء، حين كانت النسوة في القرية يرشون التربة أيام الهجير، لتمنح الناس بدلا من الصهد هواء منعشا، وأدركت أنني بعيد عن الطين الذي خلقت منه، وسأظل غريبا غربة السمك على البر، وأن عليَّ ألا أفقد الأمل أبدًا في العودة إلى مسقط رأسي في هذا الكون الفسيح.

ذات ليلة قالت لي وأنا مضطجع في مخدعي:

ـ قبل أن نهبط إلى الأرض، أريد أن تأتي معي في مهمة قصيرة.

فرفعت هامتي إليها وقلت:

ـ خير إن شاء الله.

ـ خير.

وفي مساء اليوم التالي أخذتني من يدي وقالت:

ـ سأريك كيف يعرف الجن الخبر الآتي للبشر.

وطرنا في الغبش نحو جوف السماء، وبدت النجوم عن يميننا وشمالنا، كحبات الخرز اللامعة. وبعد ساعات طويلة سمعت أنينًا،

لم يلبث أن صار عويلا، ورأيت النار تمرق هنا وهناك، ثم تفرقع، فيعلو الصراخ. ووضعت نهار يدها على عيني فرأيت صفوفا من الجن، يركب بعضها بعضا، في طابور يمتد من الأسفل السحيق إلى الأعلى البعيد. وبعد دقائق من صناعة هذا الطابور الطويل ينهار كما يتصدع تل من الرمل حين يلطمه موج عارم. ويتفرق الجن في كل حدب وصوب، ثم يعودون للالتئام من جديد، وكل منهم يتمنى أن يتفاداه النار المارقة في المرة المقبلة.

وقالت لي نهار:

ـ رغم ما يحدث لهم منذ مئات السنين لا يكفون عن التنصت على خبر السماء. يقتربون ليسمعوا ما تردده الملائكة من أوامر الله ونواهيه عن الجن والبشر والشياطين، ثم يتفرقون في الكون، مدعين أنهم يعرفون الغيب، وما يعرف الغيب إلا صاحبه.

فهززت رأسي، وقلت:

ـ كل يوم أتأكد من أن الأرض أعظم من فضائكم، والإنسان أعجز مخلوقات الله.

فلم تجادلني في هذا، لكنها تساءلت:

ـ ما الذي يجعلك تقول مثل هذا القول في مقامنا هذا؟

فأجبتها في ثقة:

ـ رغم الفضول الذي يحل برءوس البشر، ويجعلهم تواقين إلى معرفة ما سيجري لهم، فإن إيمانهم بالمقدور يغلب فضولهم، ورضاءهم بأن هناك خيرا كثيرا في ذلك الحجاب القائم بين يومهم وغدهم، يجعل

الحصيف منهم يعيش كل يوم وكأنه الأخير في عمره، فيخلص في العمل والعبادة، لكنه لا ينسى أن يتمتع بنعم الله، وكأنه سيعيش في الدنيا إلى الأبد.

لكنها ردت في ثقة أكبر:

ـ أنتم مغرورون يا معشر البشر، تعتقدون أنكم تعرفون كل شيء، وتنسون معرفة أنفسكم.

ثم زفرت في أسى، وقالت بتوجع:

ـ سيطير الإنسان إلى الكواكب البعيدة، ليكتشف ما عليها، وسينجح، لكنه سيفشل حتى اللحظة الأخيرة من عمر البشرية في معرفة نفسه. لن يعرف ما الروح؟ وكيف يولد الشعور؟ بل سيظل حائرا بين المضغة المسئولة عن العشق، أهي القلب؟ أم هي العقل؟

(٥)

عدنا إلى الأرض والمساء يرمي على الدنيا غبشه الرائق، نزلنا في بقعة مستوية ترفل بالنجيل الأخضر، وشجيرات صغيرات ترفرف على جنباتها، وتبعث أوراقها الطرية في الليل الآتي، فتتشرب سواده على مهل.

وقفت على الأرض، ثم جثوت على ركبتيّ، وسجدت لله شكرا، وعدت من سجودي لأغرس أظافري في التراب اللدن، وأستخلص قطعا من طين، وأشمها. سحبت بأنفي رائحتها الذكية، فسرت في شراييني، وهيجت الذكريات الغاربة. برق في خاطري شيء من الماضي، لا أعرف ما هو، لكنني وجدت نفسي أقاوم رغبة في التمرغ على الحشائش. رغبة كانت تدفعني لأرمي جسدي، وأتدحرج بلا نهاية. ونظرت إلى نهار فوجدت شفقة وحنانا يفيضان من وجهها، ثم جلست بجانبي وقالت:

ـ هنا كان بيتك.

ووخزني قولها، ثم ألجمني، وسحت في ألف طريق في لحظة واحدة. ثم استجمعت رأسي المبعثرة، وقلت لها في اندهاش:

ـ بيتي... كان هنا، وأين ذهب؟

فربتت كتفي وقالت:

ـ الزمن في الفضاء البعيد يمر بسرعة، بينما يسير على الأرض في تمهل شديد.

ـ أتقصدين أن سنوات طويلة قد مرت.

ـ ثلاثون عاما على الأقل.

ـ حسبتها ثلاثين يوما على الأكثر.

ثم هززت رأسي في استنكار وقلت:

ـ حتى ولو مرت ثلاثون عاما، فما الذي يمحو بيتي من الوجود. وإن زال بيتي وانقضى، فأين بقية بيوت القرية.

فضحكت وقالت:

ـ قبل عشر سنوات بحساب الأرض، فاض النهر، واقتلع بيوتكم من جذورها. ضرب الماء الجدران، فتصدعت وهوت، وصارت طينا، جرف الماء بعضه، واستقر بعضه هنا، لتنام عليه الحشائش، بعد أن غاض النهر، وانحسرت المياه.

ـ وأين ذهب الناس؟

ـ تفرقوا في البلاد.

وتحجرت دموع غزيرة، فكاد رأسي أن ينفجر إعياء وسخطا، وقلبي أن ينفجر حنينًا وشوقًا. وغارت الدنيا حولي، حتى اسودت الحشائش في عيني ونفسي، وفي ظلمة الليل الوليد، الذي زحف بقوة، فبدد أي أمل في العثور على أحد من جيران الماضي الجميل.

هنا في المكان الخالي الذي أجلس فيه، ونهار تراقبني حزينة، عشت أجمل أيام العمر. جئت إليه فارا من بطش السلطان الجائر، فاحتواني وضمني إليه بشدة، كما تضم الأم ابنها الأول. في تلك البقع الفارغة حولي إلا من خضرة وسيقان شجر واهنة كانت تجري شوارع عامرة بدبيب الآدميين. الناس كانوا يمشون هنا منذ أن يؤذن الديك معلنا قدوم طلائع نور الفجر، وحتى يجن الليل وتحل السكينة. كنت أمشي معهم، أو أشاهدهم، أو أسمع أصوات دبيبهم وحكيهم وأنا ملقى في فراشي البسيط. في كل هذه الحالات كنت أشعر بالأنس والألفة والانتماء إلى هذا العالم، وكانت آثار الإحساس بالظلم والخوف تتساقط كما تتساقط الأدران أمام اندفاع الماء الوفير، فأولد من جديد إنسانا حرا طليقا كنسمات الصيف الطرية.

هناك تحت هذه الشجيرة الحديث قدومها إلى الدنيا ربما كان يقع بيت صديقي حسن البدوي، الذي كان يحكي دوما أن جده الكبير جاء من جزيرة العرب بحثا عن دواء لزوجته، التي كان يعشقها. كان يتوه في نفسه ويقول:

ـ أعيته الحيل ولم تشف حبيبته، فراح يبحث عن علاجها في العالم السفلي. في ليلة خرج من غرفته مكفهر الوجه، وقال لولديه:

ـ لا بد أن نرحل.

فرد عليه الابن الكبير:

ـ إلى أين؟

فرفع وجهه إلى السماء وقال:

ـ مأمور أنا من أجلها.

وتتساقط الدموع من عيني حسن الجاولي وهو يقص على مسامعي القصة التي تناقلتها أسرتهم جيلا بعد جيل. ذات ليلة نطق أمامي جملة عابرة لم أعرف معناها إلا هناك في جوف الفضاء البعيد. وضع يده على رأسه، وقال:

ـ قال الجن لجدي إن العلاج موجود بين ضلوع شجرة عظيمة. قطرات فقط من ريقها ورحيقها، ستتساقط بعد أن يجرح لحاءها بظفره، فتمصها جدتي، فتسري العافية في عروقها، وتعود صبية كأن لم يطمسها أنس من قبل.

وضحكت يومها من كلامه، ومن الشجرة المزعومة، لكنه كان يحكي بحرقة وصدق أدهشني، وجعلني أجفل من أن أبدي له عدم تصديقي لقصته الغريبة، التي انتهت بموت جده فور وصوله إلى مكان قريتنا التي جرفها النهر، فحط ولداه رحالهما هنا، وبنيا خصًّا صغيرا، شهد اللحظات الأخيرة في حياة جدتها المعشوقة. واختفى سر الشجرة مع الجد الراحل، لتبقى مجرد حكاية ساحرة لا تستند إلى أي برهان.

أين حسن الآن في دنيا الناس؟ وأين أيامه ولياليه التي لا تنسى؟

ورفعت وجهي إلى نهار فوجدت الأسى يخيم على وجهها،

وشفتاها مطبقتان على صمت وحزن، وفي عينيها دموع حبيسة. ربتت على كتفي وأنا أسأل نفسي عن حسن، وقالت:

ـ رحل حسن منذ شهور؟

ـ تاه في البلاد.

ـ بل غادر الدنيا إلى الأبد.

وأجهشت ببكاء حار، اهتز له كياني، وسقطت على الأرض، من هول المفاجأة، لكن نهار قالت لي في ثبات:

ـ لا أحد يموت، الموت لحظة عابرة في حياة الإنسان الذي منحه الله الخلود. يفنى الجسد إلى حين، وتنطلق الروح في الكون الفسيح، ترى ما لا نراه.

لم أتجاوب معها، وانطويت على همي المقيم، لكنها واصلت:

ـ لا بد أن حسن يراك الآن. روحه تدور حولنا. لا بد أنه قد عرف الشجرة. ربما يرفرف حولها كعصافيرها الجميلة الفريدة.

صمتت برهة وقالت:

ـ بعض عصافيرها أرواح طاهرة، فارقت أجسادها الدنيا، وواراها التراب. حين يموت الإنسان تتهتك أمام عينيه وعقله كل الحجب. تنكشف له كل عالم الغيب، ووقتها يدرك موقعه في الكون الفسيح، ويحط عن نفسه كل الغرور الذي أصابه طيلة عمره المديد.

لكنني كنت متلهيا عن حديثها بشرود طويل، أفكر في صديقي حسن الذي رحل تاركا لي وجهه الصبوح، الذي لم تفارقني طلته،

وأنا أحلق هناك في البعيد، وحكاياته التي كانت تدفىء قلبي في ليالي الشتاء.

أخذت نهار يدي، وساعدتني على القيام، وقالت لي بابتسامة خجلى:

ـ هذه الأرض التي كنت تموت شوقا إليها.

وفهمت ما تقصد، فقلت:

ـ لا تعشق الأرض لترابها فقط، بل من أجل البشر الذين يدبون عليها: الصحاب والأصدقاء، والناس الطيبون.

فابتسمت وقالت:

ـ بوسعك أن تبحث عمن تريد في كل البلاد.

ـ لكنهم تناثروا كما تبعثر الريح ذرات الرمل.

فطوقتني بذراعيها، وقالت في حنان فياض:

ـ أغمض عينيك وتذكرهم. احلم بهم. الأحلام أجمل كثيرا مما يجري بين أيدينا.

فأشحت وجهي عنها، وقلت لها في ضيق:

ـ لا أريد سلوى. طال الغياب فتبدلت الدنيا. كل شيء تغير، الزمان والمكان والناس. ماتت دنياي، وأصبحت إنسانا بلا معنى.

فزفرت وقالت:

ـ كان بوسعك أن تصبح كائنا جديدا، تنسى آلامك، وتعيش دهرا مديدا.

ـ لا أريد إلا أن أكون كما أنا. كما ولدتني أمي، وكما سأموت، وكما أبعث يوم الدين.

عادت إليها الابتسامة وقالت:

ـ أنت حر في أن تكون ما تريد. المهم أنني معك، أسمع صوتك، واستنشق أنفاسك، وتسرى في عروقي آثار لمساتك الساحرة.

طغى حبها على حزني، فمسحت رأسها بيدي، وقلت لها هامسا:

ـ لم يعد لي غيرك يا نهار، أنت خليلتي وسميرتي وشريكتي في هذا العالم الموحش.

نظرت إليها بعينين فياضتين بالدموع، وقلت:

ـ ضاعت بلدنا في الماء الغزير، لكن لا بد أن هناك قرى أخرى لا تزال على قيد الحياة. هناك في الغرب، بعيدًا عن مجرى النهر.

لم تعلق، ولاذت بصمت، وبان على وجهها غضب مكتوم، لكن حرصها الدائم على عدم إغضابي جعلها تستجلب ابتسامة إلى مقلتيها، وتقول:

ـ هذا صحيح، هناك قرى مجاورة لم يصبها الفيضان.

فامتلأت روحي فرحا، وقلت:

ـ لنجول عليها في الصباح.

حين بزغت الشمس فوق سن الجبل، دائرة برتقالية مهيبة، قمنا ننفض عن نفسينا بقايا النجيل، وانطلقنا صوب الغرب. مشينا مسافة قصيرة، ثم قالت نهار:

ـ لأحملك فنصل في الحال.

لكنني رفضت وقلت لها:

ـ أريد أن أعيش إنسانيتي كما هي.

وسرنا بخطوات وسيعة، أنا أرى الدنيا وتراني، ونهار ترى كل شيء ولا أحد يراها غيري، حين وصلنا قبيل الضحى إلى أول القرى المجاورة لبلدتنا الراحلة.

عند أول القرية قلت لنهار:

ـ قفي.

دخلت في طريق جانبي صغير، طالما كنت أسلكه، أثناء عودتي إلى بلدي. كان أول الطريق متسعا قليلا، وعلى يمينه شجرة صغيرة، تحتها زير يشرب منه السابلة. وجدت الشجرة قد كبرت، وفردت أجنحتها العملاقة إلى عمق الفضاء، لكن الزير لم يكن موجودا، ولا الخُص الذي كان يقف بجانبه، تهزه الريح، ويتقافز فوقه النحل والعصافير، ولا الحاج حسين، العجوز الذي كان يرقد هنا، كلما مر به أحد وألقى عليه السلام، يعتدل في جلسته، ويرد السلام بأحسن منه، ثم يقول بصوت واثق:

ـ تفضل.

ووقت الهجير كنت ألبي دعوته، أغرف كوزا من الزير، وأعب من الماء حتى أرتوي، ثم أجلس تحت الشجرة، مسندا ظهري إلى الخص، والنسائم تهز رأسي، يداعبني النعاس، ويثقل جسدي، لكني لا أستسلم له، أبقى نصف نائم لمدة لا تطول، ثم أستأذن، وأمضي في طريقي، وصوت قراءة الشيخ العذب للقرآن يملأ أذني وروحي، والروائح الطيبة التي أشمها في حضوره لا تزال تملأ أنفي بأريج طيب فواح.

* * *

تحت الشجرة الصغيرة التي كبرت الآن، حكى لي الحاج حسين حكاية تذكرتها حين عاد إليّ الوعي في الفضاء البعيد. تنحنح وقال، حين سألته عن سر الرائحة الطيبة التي أشمها في حضوره، والتي يقال إنها تذهب معه أينما حل، ولا تفارقه لا في صحو أو منام:

ـ في ليلة من الليالي، حدث شيء، لا أعرف إن كان قد تراءى لي في منامي أم كان حلم يقظة. لكن كل شيء يجري أمام عيني كأنه حقيقة لا تقبل الجدل. رأيت طائرا غريبا، لا هو بالهدهد ولا الغراب. يحط فوق ربوة عالية، ثم ينادي في السماء المفتوحة على شمس تغيب، ويقول: «إلى الشجرة المباركة... هناك الأمان والملاذ والمأوى». بعدها تبدى في الفضاء سرب من طيور جميلة الأشكال، وبديعة الألوان، راح يهيم في اتجاه الجبل، ثم أخذ يهبط هناك، بالضبط عند القطعة النائتة التي هي أول ما تنحسر عنه شمس المغيب من العالم الضيق الذي نعرفه. ولما هبط رأيت منظرا لم يمر بي يوما، ولا حتى جال

بخاطري. شيء فوق الخيال، لكنني أتذكر تفاصيله تماما، وكأنني عايشته قرنا كاملا من الزمن.

ثم يرفع رأسه ويتوه قليلا، كأنه يستعذب المشهد، ويجمع كل أطرافه، ويقول:

ـ رأيت شجرة عملاقة، تفرش فروعها على مساحة هائلة من الأرض، وتطرح كل ما لذ وطاب من الفواكه، التي نعرفها، والتي لا نعرفها. وعلى جسدها آلاف الأعشاش لطيور مختلفة ألوانها. ورأيت طائرا كبيرا، مثل الرخ الذي نسمع عنه في الحكايات القديمة، ينقر جذعها بمنقاره الطويل، فتسيل منها دماء، فيغمس فيها المنقار، ويشرب. شرب حتى ارتوى، ثم أشاح برأسه، وطار نحو قرص الشمس الأحمر، ثم احمرّ لونه حتى صار كالدم، وفجأة اشتعلت فيه النيران، ورأيته يتفحم في الفضاء، وتتساقط أجزاءه، فتشعل حرائق صغيرة هنا وهناك.

ويضرب الحاج حسين كفا بكف ويقول:

ـ في اليوم التالي لهذا الحلم أو الرؤية، سمها ما شئت، جلت على الأماكن التي رأيتها تحترق، فوجدت بالفعل آثار النيران. بقعة سوداء يغطيها الرماد وسط حقل قمح، أو أجمة من الحلفا أتت عليها النار، بينما صديقاتها اللاتي تتجاور على جانبي الجسر، لا تزال ترفرف في الريح، بخضرة زاهية. ولم أجد أي أثر للشجرة، ولا حتى الطيور التي كانت تحط على جسدها الكبير. ذهبت إلى الجبل. فتشت تحت قطعة الصخر التي هي أول ما تنحسر عنها الشمس الراحلة، فلم أجد شيئا. لكني هناك شممت روائح طيبة، مختلطة بأخلاط غريبة، كادت

أن تسكرني، إلا أنني لم أعرف مصدرها. ثم سمعت صوتا يصرخ في أذني ويقول: «تمهل أيها الشيخ الفقير الطيب. لولا حسن نيتك، وطيب سريرتك، لاحترقت مكانك». فرجعت أجري ما وسعني، حتى وصلت إلى شاطيء النهر، وناديت المراكبي بصوت ملهوف، فجاء على عجل وحملني، وجسدي يرتعش كأني محموم. لم أشعر بشيء من الطمأنينة إلا على الشاطئ الآخر.

ويضحك الحاج وينظر إلى طفلته الجميلة، ويقول:

ـ حاول كثيرون بعد أن سمعوا حكايتي أن يتأكدوا بأنفسهم، لكنهم كانوا يعودون من هناك بلا شيء. لا صوت يناديهم من السماء، ولا تتهادى إلى أنوفهم أي روائح طيبة. وبعدها كذبني الناس، وقالوا إني شيخ مجنون.

اليوم راح الشيخ وبقيت حكايته. وابنته التي لا أعرف اسمها يقال إنها اختفت بعد أيام من وفاته. هكذا حدثت نفسي وأنا أقف بجوار الخُص والزير وشجرة الصفصاف والمدى الأخضر، الذي كان يشكل كل عالمه البسيط الأثير. لما سألت نهار، مصمصت شفتيها وقالت في أسى:

ـ مات منذ سنين.

لم تزد على ذلك. تاهت في البعيد، وجالت ببصرها في قطع الجبل المتلاحقة هناك أعلى النهر، وعادت كسيفة البال.

اقتربنا أكثر من القرية، فروعني منظرها الجديد. اختفى بيت الطين، الذي كان يعتليه تمثال فريد من الفخار لحصان صغير يمتطيه

فارس مرفوع القامة، ينظر بوجهه إلى الأرض الخضراء المفتوحة على النسيم، وإلى النجوم الزاهيات وقمر منتصف الشهر العربي، الذي كان يسكب على هامته بعض نوره، فنراه على البعد، علامة مميزة بين كل القرى التي زرتها قبل الغياب الطويل.

ضاع البيت والتمثال، وأقيمت مكانه حظيرة بنيت بالأحجار الكبيرة، يمرق من بين الفتحات الضيقة في الجدر والسقف، خوار متواصل لبهائم جوعى أو عطشى. وقفت عند الحظيرة وناديت:

ـ يا عم محروس.

لكن لم يجبني أحد. فعاودت النداء، فجاءني صوت رفيع لطفل صغير كان يلعب بجوار السور، يقول: «محروس مات يا عم». وبان في انحناء الشارع رجل طويل الساقين والعنق، مد رأسه ناحيتي، ثم قال بصوت خفيض:

ـ عاكف.

فهللت فرحا أن أحدًا يعرفني في عالمي القديم، وقلت له في سرور:

ـ نعم.

فمد يده إلى يدي، وأخذني بين ذراعيه، وضم صدري إلى صدره بقوة، ثم تراجع خطوه، وهز رأسه، وضم شفتيه برهة، ثم قال:

ـ لم أرك من سنين طويلة.

وصمت مرة أخرى، ثم قال:

ـ منذ أيام الشباب.

فطالعت الشعر الأبيض الذي يطل من تحت عمامته، ويتدلى على فوديه، وقلت بصوت باهت محايد:

ـ رحلة وطالت.

فهز رأسه مرة أخرى، وقال:

ـ لكنك على هيئتك لم يغير الزمن فيك شيئا.

فتهت في نفسي لبرهة، ثم قلت له في امتنان:

ـ الشباب شباب القلب يا عبد الكريم.

فضحك وقال بجدية:

ـ تتغذى سويًا.

فنظرت بجانبي، فوجدت نهار شاحبة الوجه، تقاوم ضيقا وتبرما شديدا. لكنها انتزعت ابتسامة جديدة وقالت:

ـ لا مانع.

فقلت لها مبتسما:

ـ فرصة لأعرف ما جرى.

ونظر إليَّ الرجل في دهشة، ثم مال برأسه، ومد بصره إلى زاوية جانبي ليرى من أكلم، لكنه اعتقد في النهاية أنني أتحدث إليه، فقال:

ـ سأحكي لك كل ما جرى.

ولما وصلنا إلى منزله، قال لزوجته:

ـ معي ضيف عزيز، جهزي لنا الغداء.

لاذت بصمت مطبق، ثم نادته، وأخذته إلى غرفة داخلية، وغابا دقائق، ثم عاد يقول:

ـ أكلة على ما قسم، كان نفسنا نعمل لك وليمة، لكن العين بصيرة واليد قصيرة.

فقلت له ضاحكا:

ـ بصلة المحب خروف.

فضحك ملء فمه، وقال:

ـ ضاقت الأرزاق، فركب الجنون رءوس الناس.

نظرت إليه مستفهما، فقال:

ـ يفكرون ليل نهار في الكنوز.

ـ كنوز؟

ـ ستسمع بنفسك حين نذهب إلى الجامع عند صلاة العصر.

دخلت زوجته حاملة الطعام. اهتزت وكادت أن تسقط، لكنها ثبتت فجأة، ووضعت الطبق على الأرض، نظرت فوجدت نهار تسندها بيدها، ثم تجلس مبتسمة، والمرأة تنظر إلى كتفها، لترى اليد التي منعت سقوطها، لكنها لم تر شيئا فملأتها الدهشة، ثم لم تلبث أن وارت وجهها خجلا، ثم غابت في صحن الدار.

نظرت بطرف عيني إلى الأطباق الموضوعة في خوان كبير من

الخوص، فوجدت الأكل ليس سوى جبن وباذنجان مشوي مهروس، وشرائح من البصل والطماطم، وحزمة جرجير.

وقال عبد الكريم في ابتسامة خجلى:

ـ الموجود على ما قسم.

فقلت له ممتنًّا:

ـ الخير كثير، زادك الله، ووسع عليك رزقك.

وهمست نهار في أذني:

ـ رجل طيب كريم.

فهززت رأسي:

ـ يجود بكل ما عنده.

ونظر عبد الكريم إليّ مستغربا ما أقول، وبدا عليه ارتياب مما يجري، لكنه آثر الصمت. ورددت بصري من عليه لأجد نهار تطير في الهواء بعيدا، ثم تغيب عن عيني، وأنا لا أفهم شيئًا.

بعد برهة قصيرة رأيتها تعود في عين الشمس، وفي يدها خوان معدني يلمع في النور المبهر. حطت بجانبي، ووضعت الخوان أمامنا، إلى جانب دائرة الخوص البسيطة، وانتبه عبد الكريم فجأة إلى الخوان، وما عليه من لحم طير محمر، وشرائح من لحم العجل المشوي، وأرز غارق في السمن، وطبق فضي مملوء بالفاكهة، موز وعنب ومانجو وبرتقال، وآخر عليه خضروات نظيفة مصفوفة، بقدونس وجرجير وجزر أصفر وفجل.

فرك عبد الكريم عينيه مرة ومرة، وحملق فرأى ما رآه، ومد يده فلمس اللحم الساخن الشهي، ثم أعاد بصره إليَّ فوجدني صامتًا، أرمقه بنصف عين، فهب واقفا، وتراجع خطوات إلى الخلف، وقال:

ـ سبحان الله، الله أكبر... سبحان الله، الله أكبر. يا حفيظ.. يا حافظ.

ثم عاد خطوة إلى الأمام، ونظر إليَّ وقال متهللًا:

ـ من أين هبط هذا الطعام الشهي؟

ـ من عند الله... يرزق من يشاء بغير حساب.

ـ بركاتك يا شيخ عاكف.. بركاتك يا صاحب الكرامات.

وهممت لأقول شيئا، لكنه لم يمهلني، بل صرخ بكامل حنجرته:

ـ يا سكينة.

وجاءت المرأة مترددة، فلما اقتربت من رءوسنا، حملقت في الخوان، وبدا رأسها منشغلا بألف صورة وفكرة، ثم فركت عينيها، وسألت زوجها:

ـ ما هذا يا عبد الكريم؟

فرفع رأسه إليها، وقال بصوت يملؤه التبتل والخشوع:

ـ هذا من فضل الله، وبركات الشيخ عاكف.

وكانت نهار تتابع حوارهما مبتسمة، وتتابع ارتباكي بحياد شديد، وهي تقرص ركبتي، لأستمر في صمتي وخداعي للرجل المسكين وزوجته.

ومددت يدي إلى يد عبد الكريم، وقلت له:

ـ لا تضيع وقتك يا أخي، تفضل، سم الله وكل، واصمت، إن الله حليم ستّار.

ثم رفعت هامتي إلى زوجته وقلت لها:

ـ هاتي العيال، ليأكلوا معنا، خير الله كثير.

فتهللت أساريرها وقالت، وهي تخطو إلى داخل الدار:

ـ سنأكل معك، لتحل بنا بركاتك يا عم الشيخ.

جلست وأولادها، ومدت يدها إلى لحم الطير، فوجدت دجاجا وحماما وديكا روميا متوسط الحجم. ضربت أصابعها في جسد الطير وراحت تفسخه وتوزع علينا. وفعلت الشيء نفسه مع اللحم المشوي. وأقبلنا على الطعام بشهية نهمة، وازدرد كل منا ما قدر عليه، حتى امتلأت بطوننا. وثقل الأكل على بطون العيال، وكانت تستقبل هذه الأصناف من الطعام للمرة الأولى، فناموا مكانهم، بينما قامت أمهم تتثاءب، لتجهز لنا الشاي.

بضع رشفات تتابعت إلى أفواهنا، اهتزت لها أجفاننا الثقيلة، لكنها اتسعت إلى هيئتها الأولى، حين تناهى إلى أسماعنا صوت أذان العصر. قمنا إلى المسجد، وما إن تركنا دار عبد الكريم حتى واجهتنا المصطبة العريضة. لا تزال باقية رغم مرور زمن طويل.

مات كثيرون ممن تسامروا عليها لياليَ طويلة وبقيت هي علامة مميزة من علامات هذه القرية الصغيرة. كان يجلس عليها عشرة شبان أشداء، يتحدثون بصوت هامس، فلما وصلنا إليهم، قال أحدهم لعبد الكريم مازحًا:

ـ يقال إن الكنز تحت جدران بيتك.

فنظر إليهم الرجل غاضبا وقال:

ـ الكنز هناك تحت الشجرة، والشجرة لن تروها أبدًا.

فسأله أحدهم بغضب أشد:

ـ لماذا لن نراها؟ هل نحن عميان يا عم عبد الكريم؟

فضحك وأجابه:

ـ عيونكم بصيرة وبصائركم عمياء، والحاج حسين قال في أيامه الأخيرة، سيأتي رجل يرى الشجرة بقلبه.

ثم نظر إليّ مبتسما وقال:

ـ من له قلب يرى ليس منكم، وليس في بلدنا هذه.

فضحك أحدهم وسأله:

ـ من أين عرفت أنه ليس هنا؟

فهمهم وغمغم، ثم أفصح قائلًا:

ـ لا شأن لكم بما عرفته.

وبعد الصلاة، تحلق الناس حول الإمام، وراحوا يمطرونه بأسئلة

حول حكم الدين في من يستعين بالجن في البحث عن الكنوز. واستفاض الرجل شرحا، واستشهد بأمثلة عديدة، بدأها بما جرى لسيدنا سليمان، وأنهاها بما وقع للحاج حسين. وجلس الناس في الجامع صامتين. يتابعون الشيخ بنصف انتباه، يتوه كل منهم في انشغاله الخاص بالكنز. اتفقوا جميعًا على هذا الكنز الثمين، لكن كلًا منهم تخيله بصورة مختلفة، وتوقع له مكانًا مغايرًا.

اكتمل انتباههم تماما حين وصل الشيخ إلى ما جرى للحاج حسين. هز رأسه وكأنه يبحث في قعره عن أي معنى، معلومة أو حجة، يقولها للناس الذين يمدون آذانهم، متلهفين إلى كل حرف يخرج من فم الشيخ حول ما جرى لرجل عرفه الكثيرون منهم، عايشوه، وجالسوه، وأكلوا وصلوا معه في هذا المكان، وشاطروه حلمه الكبير الذي سيطر عليه في أيامه الأخيرة، وتناثر في خواطر وعقول أهل القرية جميعا، فنسوا كل شيء، أرضهم وبهائمهم وحياتهم الغارقة في التفاصيل الصغيرة، المهم منها والتافه، ولم يتذكروا سوى هذا الحلم.

وعرفت من أسئلة الرجال وردود إمام المسجد أن الحاج حسين مر في نهاية حياته بمحنة قاسية. كان يجلس على قارعة الطريق يحدث الناس عن الشجرة المباركة، والكنوز المطمورة تحتها، والرياح الذكية التي تهب من عندها، والطائر العملاق الذي مرق إلى السماء البعيدة، ثم احترق، وبعثر الهواء رماده في أماكن شتى.

لم يصدقه أحد فانطوى على نفسه يحدثها، فيسمعه من يقترب منه، وأحيانا يهمس إليها بصوت غير مسموع، أو يحرك شفتيه فقط دون

أن تخرج منه أي نبرة، ثم يتوه لساعات طويلة، الشمس تأكل قفاه، والغبار يشاكس عمامته، والذباب يحوم حول وجهه، لكنه يظل خامدا في مكانه، ثم يقوم فجأة، ويولي وجهه شطر الجبل، ويرفع ذراعه، ويشير بسبابته إلى هناك ويصرخ:

ـ إنها هناك.

(٦)

ذات ضحى وجده الناس يمشي تجاه النهر، أشعث أغبر، حافي القدمين، مقدد الشفتين، وجلبابه مليء بالثقوب مختلفة الأحجام والأشكال. كان يزبد ويرغي، وينادي على كائنات لا نسمعها ولا نراها، ثم يعطس ويسعل طويلا، والرذاذ يتناثر من فمه، ويطير في هواء النهر. فلما وصل إلى الماء، رمى نفسه بكامل ملابسه فيه، فابتلعه الموج، حتى ظن الناس أنه قد أصبح من الغارقين.

وتنادى شبان كانوا يتابعونه من بعيد، وجرى اثنان منهم تجاه الماء، وخلعا ملابسهما في سرعة خاطفة، ثم سبحا وراءه، لكنهم لم يعثروا له على أثر. وجاء قارب صيد كان أصحابه يرمون شباكهم على مقربة من جزيرة صغيرة، وشاركوا في البحث، من دون جدوى. لما أعياهم الجهد المضني، ألقوا بأجسادهم على الشاطيء يلتقطون أنفاسهم. وسمع الناس في القرية فهرولوا إلى النهر، وبعضهم يبكي الحاج حسين، وآخرون يضربون الأكف في الأكف ويقولون في أسى:

ـ رحم الله الرجل الطيب.

وقال أحدهم وهو يعقد جبينه ويطلق عينيه الضيقتين إلى الشاطئ الآخر:

ـ أليس هذا الحاج حسين؟

وحملق الناس ما وسعهم، فرءوا شخصا يمشي ببطء شديد على الشاطيء، ويطوح يديه في الهواء. وبعد خطوات مشاها تجاه الشمال، راح يصرخ:

ـ الشجرة المباركة هنا، هنا... هنا.

ثم صعد تجاه الجبل، ووقف هناك على مرمى البصر، وجثا على ركبتيه، ثم سجد طويلا. وتابع الناس ما تبين منه بلهفة ودهشة، وقرر بعضهم أن يعبروا النهر إليه. وجاءوا بالقارب ودفعوه نحو الشرق، والشمس ترسل أشعتها اللافحة إلى رءوسهم المثقلة بالتفكير في مصير الرجل.

وصلوا إليه فوجدوه لا يزال ساجدا مكانه، وملابسه ناشفة، كأنه لم يعبر النهر سابحا منذ قليل. حملقوا فيه وامتلأت قلوبهم إجلالا له، وامتنوا لكراماته التي أخفاها عنهم كل هذه السنين. مد أحدهم إصبعه إلى كتفه ونقر عليه، فلم يرفع الحاج رأسه. فقال الرجل:

ـ إنه مستغرق في السجود.

فوقف الرجال على رأسه، وطال وقوفهم. وساقت الريح حصى كثيرا سقط من فوق الجبل، فضرب أجسادهم ورءوسهم، فرفعوا أكفهم يدفعون الأذى عن أعينهم ووجوههم. وقال أحدهم في ضجر:

ـ اخلعوا هذا الرجل من مكانه قبل أن تسقط علينا الصخور.

ومال اثنان منهم إليه، فرفعوه من مكانه، من دون أن يحرك ساكنا. كان مغمض العينين، وعلى وجهه الوضيء ارتسمت ابتسامة مشرقة، جعلتهم يظنون أنه لا يزال حيا. فلما قلبوه يمنة ويسرة اكتشفوا أنه قد فارق الحياة. حملوه فوق أكتافهم، وعادوا به في القارب. حين هموا لغسله قبل أن يكفنوه، لاحظوا أن كفه اليمنى مطوية بشدة، وتنبعث منها رائحة طيبة. صرخ أحدهم في فرح:

ـ الله أكبر، إنها رائحة الجنة.

ومد آخر أصابعه في وجل، حتى أناخها على قبضة الحاج حسين، ثم راح يفرد كفه إصبعًا إصبعًا، من البنصر إلى الإبهام. وكلما فرد أحدها كبر الشيء الأخضر الراقد على راحة الكف. وحين فتحت اليد كاملة، حملق الناس في ورقة شجر صغيرة نائمة في هدوء بين خطوط الكف. أمعن كل منهم النظر إليها، وهز رأسه لعله يتذكر إلى أي نوع من الأشجار تنتمي. واتفقوا جميعا على أنها ورقة شجرة لم يروها من قبل. وقال أحدهم:

ـ لا توجد شجرة هذه أوراقها.

فرد عليه آخر:

ـ أو موجودة في بلاد غير بلادنا.

فقال له اثنان في صوت واحد:

ـ وهل ذهب الحاج حسين إلى بلاد غريبة.

ثم تذكروا دفعة واحدة كل كلامه عن الشجرة المباركة، وآمنوا بصوابه، لكن أحدهم قال في سخرية:

ـ شجرة تنبت في الصخر؟

فرد عليه آخر:

ـ هذا ما كان يقول به الحاج حسين، وكنا نسخر منه، كما تفعل أنت الآن، رغم العلامات الجديدة التي ظهرت.

وتذكر آخر كلام الحاج حسين عن الروائح الطيبة التي تنبعث من الشجرة، وعن لذيذ فاكهتها التي ليس كمثلها فاكهة، فقال:

ـ عرفنا طيب الرائحة، التي لا تزال تفوح في كل أرجاء المكان، فماذا عن طعم الفاكهة؟

فقال آخر:

ـ يقال إن في ورقة الشجرة بعضا من طعم فاكهتها.

فتنبه ثالث، وقال:

ـ سأكون أول المستطعمين.

ثم مد يده ليلتقط الورقة الحية في الكف الميتة، لكن الورقة تحركت من مكانها، فجفل الناس المتحلقون حول جثة الحاج حسين برهة، لكنهم اعتقدوا أن الهواء المتدفق من كوة بالخص هو الذي حرك الورقة من مكانها، فجربوا أن يلتقطوها مرة ثانية، لكنها ارتفعت قليلًا، ودارت في المكان، ثم مرقت من النافذة، دون أن تردها الرياح، وغابت عن الأعين.

في اليوم التالي سمع الصيادون ما قاله الناس عن ورقة الشجرة التي استعصت على الإمساك بها، أو حتى مس ملمسها، فأخبروهم

أنهم قد رءوا ورقة شجر تعبر النهر، تطير فوق الماء بشبر واحد، تدور حول نفسها بحركات منتظمة لافتة، ثم تتقدم إلى الأمام، وهي تلمع في عين شمس العصر الدفيئة، فتشع منها ألوان مبهرة، تنعكس على أجنحة فراشات جميلة تسير في ركابها، تتبعها أينما سارت، تلثم الماء وترتفع.

ولما وضعوا الحاج حسين في الكفن، كان وجهه لا يزال وضيئًا، والابتسامة تعلو ملامحه فيبدو وكأنه لم يفارق الحياة. لما أعاد أحدهم التدقيق في يده التي كانت قابضة على الورقة، وجد مكانها محفورا في راحة يد الحاج، على الهيئة نفسها التي كانت عليها الورقة. التعرجات عند أطرافها، والعمق الكائن عند منتصفها، والعروق الدقيقة النابتة على أجنابها، ولما مس مكان الورقة وجده ناعما، يختلف ملمسه عن بقية ملمس كف الحاج الميتة، بل شعر بحرارة هذا الموضع، على العكس من بقية اليد المتجمدة.

وحكى ما عرفه للناس، فراحوا يقلدونه. يحملقون في مكان ورقة الشجرة بيد الشيخ، ثم يلمسونه، فيهتفون:

ـ قادر على كل شيء.

وحملوا النعش إلى المقبرة المقامة على الطرف الجنوبي للقرية. ساروا بها بضع خطوات وهم يرددون «لا إله إلا الله... دائم باقي وجه الله»، لكنهم فجأة شعروا أن الخشبة ثقيلة كجبل، فحطوها عن أكتافهم، وتبادلوا نظرات يختلط فيها الاستغراب بالوجل. وزادت مساحة العجب في أحداقهم وهم يرون النعش يرتفع عن الأرض، ويبدأ في التحرك تجاه الشمال الشرقي. تحرك في البداية ببطء، فحلق الناس

به، وهم يصرخون «الله أكبر... الله أكبر»، وقال بعضهم «بركاتك يا سيدنا الشيخ»، ثم زاد من سرعته حتى وجد الشيوخ الكبار أنفسهم عاجزين عن متابعته، فخلوا أياديهم، وتركوا أماكنها لأيادي الشباب، فجروا وزاء النعش يلهثون، حتى بُهرت أنفاسهم، وزاغت أبصارهم، فراحوا يتركون أياديهم تباعًا.

ودار النعش حول نفسه دورة كاملة فنفض عنه كل من علق به، ثم ارتفع قليلا، ومرق بسرعة شديدة، والناس يتابعونه وهو يطير فوق النهر. عبر الماء، وحط على الشاطئ الآخر قليلا، وكأنه يستريح، ثم راح يرتفع مرة أخرى، والناس تتابعه مهللة. ويحكي الشباب من أصحاب الأبصار القوية للشيوخ كليلي العيون ما يجري، فيبسملون ويحوقلون. ثم لم يعد لدى أي واحد ما يقوله، بعد أن ارتفع النعش صوب الفضاء البعيد، وذاب كأنه لم يوجد يوما.

اختلف الناس في تفسير ما جرى، ولا يزالون مختلفين. وسمعت منهم وأنا أدور في شوارع القرية ونهار معلقة في يدي، لا يراها غيري، أشياء كثيرة. بعضهم كان يقول إن الحاج خطفه الرُّخ، الذي خطف أبو زيد الهلالي، وذهب به إلى وادٍ بعيد، ليدفنه تحت الشجرة التي كان يعتقد أنها بجوارنا، ترفرف تحت أسنة الجبل، الذي يطل علينا. بعضهم كان يتصور أن الرجل لم يمت أصلًا، إنما دخل في إغفاءة طويلة بدأها لحظة سجوده أمام الصخر الصوان، واستمرت حتى تكفينه، ثم استيقظ هناك في العالم الجديد، الذي تقف على رأسه شجرة عملاقة، طويلة، جذورها في الأرض وأطراف غصونها في السماء.

آخرون، وهؤلاء هم الأكثرية، كانوا يصرون على أنه ضحية الكنز العظيم الذي توصل إلى مكان. بعد أن قضى ليالي طويلة يطلق البخور ويقرأ الحروف المبهمة ويستجلب قدرات الجن الخارقة. كانوا يقولون إنه قد تمكن ذات ليلة من أن يفلق الأرض ويرى الذهب والماس الذي تلألأ في الظلمة فغيم بصره لبرهة قليلة، استغلها حراس الكنز في ضربه بقوة على رأسه، ففقد الوعي إلى الأبد، وانكب على وجهه فظن الناس أنه سجد سجدته الكبرى.

كان بعض هؤلاء يشيرون بأيديهم إلى قطعة من الجبل الجاثم فوق الشط الآخر للنهر ويقولون:

- الكنز هناك، ذهب وماس، وما خفي كان أعظم.

وسهر هؤلاء طويلا يتحدثون عن الكنز، ويحلمون بالثراء الفاحش. وقال لي عبد الكريم إن بعضهم استعانوا بالعرافين وضاربي الودع، وقرءوا أيامًا في كتب صفراء، وجلبوا إلى البلدة رجالا قيل إن بوسعهم أن يستحضروا الجان. أطلقوا البخور، وهمهموا بالحروف المبهمة، وتاهوا بين الجالسين لساعات، وكأنهم في عالم آخر، ثم عادوا يصفون الكنز، ومكان وجوده. الناس تابعتهم في كل مرة بلهفة شديدة، سمعوا عما في الكنز، فسال لعابهم، وتورمت جيوبهم بآمال وأمنيات لا حد لها. وفي كل مرة كانوا يقولون لهؤلاء:

- المهم كيف نفتحه.

فكان كل واحد منهم يطلب طلبات عجيبة، بخورًا وطيورًا نادرة بألوان من الصعب الحصول عليها، أو حيوانات غير أليفة لم يروها

يوما. وضجر الناس بهذه المطالب الغريبة، وأعيتهم الحيلة، لكن ذات مرة تطوع شابان وقالا معا:

ـ أين هذه الحيوانات، ونحن نحضرها.

فرفع الرجل يده، وقال لهم في حياد:

ـ هناك وراء هذا الجبل.

وصعدا سويًا إلى الجبل في صباح اليوم التالي. غابا أياما، وصعد رجال إلى أول الجبل يبحثون عنهما، لكنهم لم يجدوا لهما أي أثر، ومرت شهور ففقد الناس الأمل في رجوعهما، لكنهم لم يفقدوا الأمل في أن يصلوا يوما ما إلى الكنز المطمور تحت سفح الجبل، بين الصخر والطين، بين القسوة واللين.

وسمعت إمام المسجد يقول للناس إن الحاج حسين قد كشف الله عنه الحجاب، لأنه ولي له، ورأى قبل موته موقعه في الجنة، فهام به حبا، وخلب سحر الفردوس الأعلى لبه، فتركه على باب الجنون، يهذي بما يراه وراء الحجب، ونحن لا نصدق لأن لأبصارنا حدودا لا نتخطاها، ولا نعقلها لأن الجهل يركب رءوسنا، وننسى أن الإنسان خلق ضعيفا. ثم يهز رأسه، ويمصمص شفتيه ويقول:

ـ ننسى ما ورد في الأثر عمن يتقي الله فيكون سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها.

فيقول له أحدهم:

ـ أتقصد أن...؟

ـ نعم كان الحاج من أولياء الله الصالحين، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

لكن أغرب ما سمعت هو ذلك الذي ردده أحد الشيوخ الطاعنين في السن. سحب نفسا طويلًا من النرجيلة، وقال:

ـ الحاج حسين كان مخاوي جنية.

وصدم كلامه شابين كانا يدعوان الناس لبناء ضريح للحاج حسين، في المكان الذي سجد فيه سجدته الأخيرة، فهبا واقفين وصرخ أحدهما في وجهه قائلا:

ـ لولا شيبتك لضربناك.

لكن الشيخ ترك النرجيلة، ونظر إليهما في غضب، وقال:

ـ أنا لا أكذب، هذا ما سمعته من الحاج حسين نفسه قبل أن يمسه الجنون.

وقال له واحد منهما في غيظ:

ـ عرفنا أنه كان صديق شبابك، كنتما صالحين، هو واصل وأنت أضلتك الغواية.

فبصق الشيخ عليه، وقال في قرف:

ـ أنت جاهل ابن جاهل، اغرب عن وجهي، وإلا أسمعتك ما لا تطيق.

وزفر الشابان في حنق، ثم رمياه بشظى من عيونهما، وقاما من مكانهما، ومضيا غاضبين. فمضى الشيخ يكمل حكايته. من تبقى

من الناس تابعوه بانتباه شديد، وفي عيونهم آثار الشكوك في كلامه. لكنهم انتبهوا إليه بشدة حين قال:

ـ كان الحاج مولعا بالبحث في الكتب الصفراء عن الكنوز. في يوم قرأ من كتاب قديم حتى جف ريقه، فجأة خرج له دخان أبيض من بين السطور، وتشكل على هيئة جنية جميلة، سلبته إرادته.

وسمعت نهار معي ما قاله الرجل، فغمزتني في يدي وهمست:

ـ كاذب، صادق.

ـ فالتفت إليها مستطلعا، فواصلت:

ـ لم تخرج له جنية من بين سطور الكتاب القديم، بل جاءه هاتف في المنام، وحكى له عن الشجرة. كان على هيئة رجل مهيب الطلعة، يشرق وجهه بضياء غامر. وشفتاه رطبتان بالتسابيح. في يده قنديل يضيء بلا زيت، وكتاب صفحاته خضراء، مليء بحروف متفرقة، تتحرك فتكتب الكلمات التي تخرج من فم الرجل بلون أبيض ناصع، كأنه خطوط من نور، فيقرأها الحاج حسين في نهم. وحين استيقظ في الصباح وجد الكلمات محفورة في رأسه، كأنه يطالعها للتو. ثم رآها محفورة على لوح مربع من جذع شجرة، يتنقل أمام ناظريه في كل مكان يذهب إليه. كان يشير إلى ما هو مكتوب، ويقرأ ويعيد القراءة، والناس تنظر إليه في إشفاق شديد.

فنظرت في صفحة وجهها، وقلت لها في لهفة:

ـ ماذا كان مكتوبا على اللوح؟

صمتت نهار برهة، ثم قالت:

ـ قرأته منذ سنين، ويحتاج تذكره إلى تمهل.

ـ أين؟

ـ في مملكتنا.

ـ وما الذي ذهب به إليكم؟

ضحكت وقالت بنبرة لا تخلو من سخرية:

ـ أنسيت أن شجرتكم المباركة بنت شجرتنا التي رأيتها هناك.

فتذكرت كل شيء دفعة واحدة، وقلت:

ـ نعم، لكني أريد أن أعرف ما كان مكتوبا بدقة.

فنظرت إليَّ مندهشة وسألتني:

ـ إلى هذا الحد الأمر يهمك؟

فقلت لها باسما:

ـ شيء داخلي يدفعني إلى هذا.

فهزت رأسها وقالت:

ـ لديَّ ما يجعلني أصدقك.

فنظرت إليها مليا، لكنني كنت مأخوذا بمعرفة المكتوب على اللوح الخشبي المربع. طلبت منها أن تعصر ذهنها لعلها تتذكر أي شيء منه. طلبت وألححت في الطلب والرجاء، فمالت على أذني وهمست:

ـ ستعرف عند عودتنا.

ـ عودتنا؟

ـ نعم، حين نطير إلى الفضاء البعيد، سنذهب إلى مكان شجرتنا العملاقة، وستقرأ ما تريد محفورا على جذعها.

فقلت لها غاضبا:

ـ بوسعك أن تعرفي الآن لو أردت.

فربتت كتفي وقالت:

ـ قلت لك ألف مرة إن لمعرفتي حدودًا.

فطأطأتُ رأسي، وزفرت في أسى، ثم قلت لها بلين شديد:

ـ لا عليك، تذكري على مهل، ففي العجلة الندامة.

وأدركت ما أعني، فقالت في ضيق:

ـ لا تريد أن تعود؟

فطوحت ذراعي في وجهها، وقلت بغضب:

ـ أنا من هنا، وقد عدت إلى موطني.

فتقدمت خطوة إلى الأمام، ثم أمالت جسدها حتى صارت في مواجهتي تماما، ومدت يديها، وأخذت وجهي بينهما، ومدت شفتيها وقبلتني بقوة، ثم أعادت رأسها إلى الوراء قليلا وركزت عينيها في عينيّ وقالت بصوت رخيم ساحر:

ـ تعرف أنني أستطيع أن أخطفك إلى هناك، لكنني لا أريد أن أجور على حريتك، وأجبرك على أن تفعل ما لا تريد.

فاحتقن وجهي بغضب شديد، وقلت لها:

ـ هناك غربتي، وهنا وطني.

فحبست دموعا تحجرت بمقلتيها وقالت:

ـ أكابد من أجلك الكثير، وإن لم أعد سأطرد من مملكة الجن إلى الأبد. أما أنت فلا سلطان عليك هنا.

فاستدعيت أحكاما كثيرة كنت قد قرأتها في كتب الأزهر، وقلت لها:

ـ كفاني خروجا على نواميس الكون، مثلي ومثلك لا يجب أن يجتمعا.

فابتعدت عدة خطوات واستدارت، وحملقت في قدها الممشوق، فسرت في كياني شهوة عارمة، بلا مقدمات، فقلت لها في رجاء:

ـ اشتقت إليك يا نهار.

فقالت وهي تخطفني من يدي وتغور بي في إحدى الزراعات المحيطة بالقرية:

ـ تعال لتطفئ نارك.

فقلت لها باسما:

ـ أتحتاج مثلك إلى الخفاء؟

فردت في دلال وغنج:

ـ بوسعك أن تختفي معي هنا في وسط الشارع، نفعل ما نريد، ولا يسمعنا ولا يرانا أحد.

فقلت لها بطريقة قاطعة:

ـ قلت لك أريد أن أعيش إنسانيتي.

فضحكت وقالت:

ـ في حدود علمي لا توجد في الكون كله جنية تدلل إنسيًّا مثلما أفعل أنا معك.

فسألتها سؤالا أعرف إجابته، لكنني أردت أن أستغلها في شيء آخر:

ـ لِمَ ؟

فقالت بملء فمها:

ـ لأني أحبك.

فقربتها مني حتى طوقت خصرها بذراعي، وأخذت رأسها على صدري وقلت:

ـ المحب لمن يحب مطيع.

فهزت رأسها مؤمنة على كلامي، لكنها لم تخطئ ما أقصد، فقالت:

ـ البقاء في الأرض، واللوح الخشبي.

فقلت لها في لهفة:

ـ بل اللوح الخشبي الآن.

فقالت:

ـ حين يجن الليل، ويظهر النجم القطبي مكتملا في كبد السماء، سأستدعي صديقتي. إنها تهبط عند المساء، وتجول قريبة مني، تعرف

أخباري ثم تعود إلى أمي. أحيانا أقابلها، وكثيرا ما تمر من بعيد، لا تحدثني، لكن ما إن تظهر حتى أشعر بها. في هذه الليلة سأطلب منها أن تعود في الغد ومعها ما هو مكتوب على اللوح الخشبي. ثم صمتت برهة وقالت:

ـ ستعرف ما تريد، لكن بشرط.

فقلت دون تحسب:

ـ أُشرطي كيفما شئت.

فقالت بصوت هامس، وعينين مليئتين بالرجاء:

ـ تعود معي يوما إلى هناك.

فهززت رأسي موافقا، لكنني قلت في حسم:

ـ نذهب ونعود، هنا الموطن وهناك الغربة، هنا نحن في بيتنا وهناك لسنا سوى ضيوف عابرين.

فلم تعارض، بل ضغطت على يدي، وقالت:

ـ لكل حادث حديث.

وهكذا بات الباب مواربا لمعرفتي ما جاء في اللوح، وعودتي إلى قلب الفضاء الرحيب.

وكنت لا أعرف سببا لإلحاحي عليها في الإحاطة بهذا الأمر. طاقة ليس لديّ تفسير لها كانت تجعلني مدفوعا إلى طلب المزيد في سبيل الوصول إلى الشجرة المباركة.

* * *

في طريق عودتنا مررنا بكوخ الحاج حسين، كان لا يزال يرفرف في الريح التي تضرب جنباته بلا هوادة، لكنه صامد رغم هشاشته الظاهرة، ينبع منه طرف لعود ذرة قديم على الزير الفارغ، الذي يبني فوقه جسرا بنيا طويلا من النمل، يبدأ في جحر صغير بالأرض، ويصعد إلى الزير، ثم يغرس أرجله الدقيقة في قشة نحيفة معلقة في طرف العود، ويواصل صعوده حتى يصل إلى العود نفسه، ومنه إلى هامة الكوخ، حيث يوجد جحر جديد محفور في جدار الطين الرقيق، الذي يغلف أعواد الذرة الناشفة المتلاصقة.

قلت لنهار:

ـ لنسترح قليلا هنا.

فأومأت موافقة، وجلست جواري. فردت رجليها، ثم ألقت رأسها فوق فخذي، واستسلمت للنعاس. وكانت المرة الأولى التي تنام فيها قبل أن أنام. وعشت أنا وقتا طويلا مع ذكرياتي المقيمة في أعطاف هذا الكوخ البسيط، تهت في الماضي ما وسعني، وكأنني أريد أن أهرب من اللحظة الراهنة المفعمة بالأسى. رميت بصري إلى القريب فلاحت القرية التي ودعتها منذ قليل غريبة عني، كأني لم أمر يوما بشوارعها، محييا كل من رأيت، فيرد التحية بأحسن منها.

رحل أناس كنت أعرفهم، وجاءت إلى القرية عائلات جديدة، هربت من الحروب التي تدور رحاها في الشمال، وفرت من جور السلاطين الجائرين، الذين يتعاقبون بلا هوادة فيغرقون الأرض في ظلم وتعاسة. امتلأت الشوارع بذرية غضة لا حديث لها إلا عن الكنز العظيم الذي عرفه الحاج حسين في آخر أيامه، وكاد أن يمسكه

بيديه لولا الحراس اليقظين، الذين حرصوا على قتله، ليدفنوا معه سره الخطير.

توغلت نهار في النوم، فوضعت يدي على صدرها الذي أعشق استدارته الرائعة، ثم غفوت قليلا. وفي لحظة بين الصحو والمنام رأيت شبحا أبيض يهل من بين الزراعات، حاملًا في يده بيرقًا أخضر، على يمينه تطير ثلاث حمامات خضر، وعلى صدره كتابة بحروف لا أعرفها. اقترب مني، فعرفته. كان الحاج حسين كما رأيته آخر مرة وهو يدور في الحلقة الخامسة من عمره. جاء ودخل الكوخ، وجلس بجواري، وراح يمسح بيده اليمنى على شعري، ويقول:

ـ أنت من ستكمل الطريق.

كررها ثلاث مرات، ثم أعطاني البيرق الأخضر، وأمر إحدى الحمامات بأن تحط على رأسي، ثم دس في يدي ورقة صغيرة، يلفها فراغ كامل إلا من عند المنتصف، توجد عدة حروف بلغة لا أعرفها، ثم قال لي:

ـ حين تستيقظ توضأ، واسجد لله طويلا، ثم اعصر رأسك، وافحص بعينيك كوخي البسيط، ولا تذهب حتى يتحقق لك المراد.

وانتفض فجأة، ثم أخذ يعود من حيث أتى، وجهه نحوي وتعلوه ابتسامة مشرقة، وظهره إلى الخلاء، لا يبين لي منه شيء، وهناك عند النخلة الطويلة التي تتوسط أحد الحقول البعيدة، رأيته يدور حول نفسه، دار دورات بطيئة متلاحقة، وتسارع الدوران، حتى بدا لي خيطا أبيض يلوح في الأفق، ثم صعد الخيط إلى أعلى حتى غاب في زرقة السماء.

فتحت عيني فوجدت نهار مستغرقة في نوم عميق، وجهها تكسوه علامات لم أرها من قبل. كان يكبر في نظري حتى أشعر أنه يملأ الأرض حولي، ثم يصغر حتى أكاد ألا أراه. ولم أدر إن كان يكبر فعلا أم أن شيئا أحل بعيني، فجعل بصري يزوغ إلى هذه الدرجة التي تظهر فيه الصور على غير هيئتها الحقيقية. لكنني نظرت إلى البعيد، فوجدت النخلة على حالها، وأعواد الذرة، وحتى النجيل الذي يفرش خضرته الرائقة حول الكوخ.

وعدت إلى وجه نهار فوجدته لا يزال يكبر ويصغر. ولأول مرة أشعر برعب منها منذ زواجنا. وازداد رعبي حين نظرت إلى قدميها فوجدتها على هيئة حوافر الماعز. اختفت الأصابع الخمسة في كل قدم، وحل محلها حافران أسودان، يكسوهما شعر بني كثيف. وألجمتني الصدمة، لكنني تماسكت، ثم غمزتها بقوة في كتفها، ففتحت عينيها، والتفتت إليّ فوجدت وجهها قد عاد إلى استدارته وملاحته القديمة، ومددت بصري إلى قدميها فوجدتها بيضاوين ممشوقتين، والأصابع العشرة متجاورة بانتظام، كأنها موزات صغيرات، لا مثيل لحسنها.

نهضت وقالت في فزع:

ـ هل نمت؟

ـ نعم.

ـ وأنت؟

ـ نمت أيضا قليلا.

ـ قبلي أم بعدي؟

فحككت ذقني بسبابتي وقلت:

ـ قبلك.

فصمتت برهة، أغمضت فيها عينيها، وكأنها تحولت إلى جماد، ثم فتحت عينيها وقالت:

ـ بل نمت بعدي.

فابتسمت وهززت رأسي وقلت:

ـ نعم.

وأغمضت عينيها مرة أخرى، وقالت:

ـ رأيتني وأنا نائمة، فلا عليك مما رأيت. إنه مجرد تهيؤ تصنعه قوة شريرة.

فرفعت وجهي إليها وسألتها:

ـ أي قوة؟

ـ واحدة من مملكتنا، تكرهني، وتحسدني على جمالي وعليك، فتقضي ليلها ونهارها في ممارسة السحر الأسود من أجل أن أظهر في عينيك قبيحة، كحيوان أجرب.

فربتّ كتفها وقلت:

ـ لا عليك يا نهار أنت في عيني الجمال الخالص.

فابتسمت في دلال، ثم صمتت برهة، وقالت:

ـ رأيت في منامي شيئا غريبا.

ـ خير إن شاء الله.

ـ شاهدت حيوانًا خرافيًّا ضخمًا، رأسه رأس ثور، وجسده هائل كحوت كبير، وأرجله دقيقة وطويلة لا تزيد متانتها عن أرجل الكلاب أو الخراف. وعلى جسده لا يوجد شعر أو وبر، بل أشواك مدببة كإبر حادة، تتجاور في كثافة شديدة. تقدم نحوي وحاول أن يبتلعني، ففررت منه وجريت ما وسعني، حتى وجدت كهفا ضيقا على أول جبل كالجبل الذي يطل علينا هناك. مرقت داخله، ودفعت أحجارا صغيرة كانت ملقاة داخله، ورصصتها فوق بعضها حتى سدت فوهة الكهف. ثم حملقت في جنبات المكان الذي اسودّ تمامًا، فرأيت جحرًا دقيقًا يكاد يضيء في العتمة، تدحرج منه شيء مستدير لامع، مددت يدي ولمسته فوجدته ناعمًا كالحرير.

وحملقت فيه فرأيت في بؤرته المنيرة حروفا متجاورة، بلغة غريبة. كانت الحروف تدور حول نفسها بسرعة هائلة، فلم أتبينها على وجه الدقة. عدت وحاولت أن أقبض بيدي على هذا الشيء، فخرجت من الجحر حية ملونة، ولدغتني في يدي. صرخت صرخة مدوية، انطلقت من جوف الكهف، فسمعها الحيوان الخرافي فجاء سريعا، ووقف على باب الكهف، وراح ينفخ بصوت زاعق، ارتج له المكان.

وأنا على مشارف الموت، السم يسري في عروقي وفم الحيوان الخرافي ينتظرني، انفلق الصخر، وخرج من طياته رجل مليح الوجه، يرتدي جلبابًا أبيض، وعلى كتفيه يحط طائران أخضران. تقدم نحوي، ووضع يده على رأسي وراح يمسحها، ويقرأ التسابيح، فشعرت أن العافية تدب في جسدي من جديد، وسمعت دبيب الحيوان الخرافي

وهو يهرب من أمام الكهف، ويطلق زعيقه في الفضاء الرحب. اقترب الرجل مني وقال:

ـ واصلي معه الطريق.

كررها ثلاث مرات، ثم مضى يشق الجبل، حتى انغلق عليه الصخر، وعاد كل شيء إلى هيئته الأولى.

ثم رفعت نهار جسدها حتى جلست في مواجهتي، وسألتني:

ـ ألديك تفسير لما جرى؟

فهززت رأسي وقلت:

ـ طريقان تلتقيان، إنه لغز.

ـ أي لغز؟

ـ الحروف المبهمة، والأوامر الجلية، والشيخ ذو الرداء الأبيض، والحمام الأخضر.

ـ ربما تكون رؤية عادية، طالما رأينا غيرها في نومنا.

فحككتُ جبيني بظفري الطويل وقلت لها معارضا:

ـ لا أعتقد أنها رؤية عادية.

وسادت لحظة صمت قطعتها قائلا:

ـ لقد رأيت ما حلمت به. لا بد أن هناك أمرا جللا ينتظرنا.

وقصصت عليها ما رأيت، وهي تتابع بشغف شديد. عند مواضع معينة من الحكاية، كان الجد والوجل يحل بعينيها. فلما انتهيت، ضحكت وقالت:

ـ منذ سيدنا سليمان عليه السلام لم يشترك جني مع إنسي في عمل كبير.

فأخذت يدها في يدي وقلت لها:

ـ طالما سحر أناس الجن في السحر وفتح الكنوز.

ـ هذا من صغار الأعمال.

فاكتست ملامحي بدهشة ووجل وقلت:

ـ ألديك أي خبر عن مهمة تنتظرنا أكبر من ذلك.

ـ لديّ إحساس عن شيء غير محدد، سأنقله إلى صديقتي مع حلول المساء، وأنتظر الخبر اليقين.

فزفرت في أسى وقلت:

ـ قدرنا أن ننتظر الأخبار من عندكم.

وفي هذه اللحظة لمحت عيني شيئا صغيرا ما بين الأبيض الناصع والأصفر الفاقع يطل من الركن العلوي للكوخ. كان دقيقا يكاد أن يستعصي على النظر، ولا يمكن لأحد أن يلتفت إليه إلا من يدقق النظر بشدة عند التقاء السقف بالجدار، أو من يُعطَى إلهاما أن يرسل بصره إلى تلك النقطة الصامتة. كان هذا الشيء يكاد أن يتوه في القش

الأصفر المتدلي من السقف، والذي يتناثر على جزء من الجدار، وتعلق به آثار الغبار الذي تسوقه الريح من الجسر القريب.

قلت لنهار:

ـ انظري.

ووجهت سبابتي ناحية الشيء، فراح نظرها معه. أمعنت النظر ثم قالت:

ـ يبدو أنها ورقة قديمة.

ـ ورقة أم خرقة بالية.

ـ بل ورقة.

ثم صمتت برهة وقالت:

ـ جاءني هاتف من هناك أن أطلع ما فيها.

ـ من أين؟

ـ من الفضاء البعيد.

ثم مدت إصبعها فانخلعت الورقة من مكانها، واستقرت في يدها. قدمتها إليّ وقالت:

ـ قطعة قديمة من البردي، افتحها.

فنظرت في عينيها وقلت:

ـ افتحيها أنتِ.

فصمتت برهة، ثم ابتسمت وقالت:

ـ ليس لديَّ إذن بفتحها.

ـ لِمَ؟

ـ إنها من إنسان لإنسان، كتبت في زمان بعيد، ومآلها إليك.

ـ أنا.

ـ نعم.

ثم تاهت برهة، وحلقت في وجهي بنظرة لم ألمحها في عينيها من قبل، وقالت بصوت غارق في الشجن والعجب:

ـ يبدو أنني مأمورة، ولا أعرف، أسير كالعمياء إلى غاية لم أقصدها، وأنا أتوهم أنني أمشي بخطى واثقة مبصرة إلى هدفي الأصيل.

فرفعت هامتي إليها مستفهما، لكنها أوقفتني بحركة من يدها وقالت:

ـ لا تسألني عن شيء الآن، حتى أتأكد.

ـ لكن....

ـ صدقني ليست لديَّ إجابة، فكل ما يدور برأسي الآن مجرد تهيؤ، ليس هناك من خبر، وإن كان فإن الحصول عليه ليس يسيرًا.

هممت لأفتح الورقة لكن صخبا شديدا تناهى إلينا. جاء الصوت من كل جانب، راح يقترب منا بانتظام وإصرار شديدين. ونظرت من باب الكوخ فوجدت مئات الناس تتقاطر وسط الزراعات، وعلى الجسر، وعند أول القرية.

ورآني أحدهم أطل من الكوخ، فأقبل نحوي جريا، وهو ينادي على الناس بصوت زاعق:

ـ الشيخ هنا.

وتوجهت الجموع قاصدة الكوخ، شبان وشيوخ وأطفال، رجال ونساء، كلهم يتسابقون في جد، شمس المغيب تحط على رؤوسهم، وأقدامهم تثير الغبار، فيختلط الصفار بالرماد، فتشحب الوجوه وتكفهر.

ووصل من رآنا إلينا، فحملق في وجهي مليًّا وقال:

ـ لا تهجرنا يا مولانا.

واحتشد الناس فوق رأسي، وجميعهم يقول في توسل ذليل:

ـ لا تهجرنا يا مولانا، تفضل وشرف بلدنا إلى الأبد.

وانخرطوا في لغط واسع، أدركت منه أنهم قد عرفوا موضوع المائدة. فمصمصت شفتيّ في أسى، وقلت في سري: «سامحك الله يا عبد الكريم». وكنت قد طلبت منه أن يحتفظ بسر ما جرى وأنا أودعه، ووعدته بزيارات متكررة، ووعدني بألا يخبر أحدًا بقصة المائدة. ومد عبد الكريم رأسه من بين الجموع، والخجل يكسو وجهه، وقال:

ـ سماح يا مولانا.

فأشرت إليه أن يتقدم، فوسع الناس له، حتى وصل إليَّ، فقال
وحاول أن يقبل يدي، لكنني سحبتها من يده، وأعطيته أذني
طلبها، فهمس في أسى:

ـ لم أخن العهد، لكن زوجتي قالت لجارتنا، وانتشر الخبر...

فربت كتفه وقلت له:

ـ لا عليك يا عبد الكريم، أنت رجل طيب، ولا أحد يعرف
يكون الخير.

وتسابق الناس في الحديث إليَّ، لكن رجلًا على عتبات المشي
نهرهم بشدة، وقال:

ـ لا ترهقوا الشيخ، ولنفوض كبارنا للحديث معه فيما نويناه.

والتفت إلى نهار فوجدتها تبتسم في خبث، لكنني أعدت وجهي
إليهم، فرأيت أمامي رجلين مهيبي الطلعة، يبتسمان في وقار، تقدما
حتى صار بيني وبينهم شبر واحد، ثم قال أحدهم:

ـ أنا علي الزهيري، صاحب كل هذه الأرض التي حولك، فاختر ما
شئت منها، لنبني لك بيتا، وتعيش معنا، ونصبح أهلا إلى أن يشاء الله.

وقال الآخر:

ـ وأنا محمود أبو غلاب لديَّ عشرة بيوت وحظائر ماشية وأرض،
فاختر أي دار منها، وتعيش معنا.

وغمزتني نهار في فخذي فالتفت إليها فقالت:

ـ لا ترفض.

فقلت لها في دهشة:

ـ هذا ليس رأيك.

لكنها ابتسمت وقالت:

ـ حدثت أمور تجعلنا في حاجة إلى أن نمكث في الأرض سنين.

فتهللت أساريري وقلت:

ـ نعم الخير.

وحولت وجهي شطر الناس، الذين لا يسمعون نهار ولا يرونها،
فوجدتهم صامتين في خشوع ودهشة. وقال الزهيري:

ـ نهنئ أنفسنا.

فابتسمت وسألته:

ـ علامَ ؟

فاقترب أكثر وقال:

ـ فهمنا من حديثك مع أهل الخطوة أنهم أذنوا لك بالبقاء معنا.

ـ أهل الخطوة ؟!

ـ إخوانك من السالكين.

وقال أبو غلاب:

ـ الأقطاب والأنجاب والمدركون وحاملو الكتاب.

ففهمت ما يعني، وتذكرت أيام الأزهر التي انقضت في تقلب بين أشواق
المتصوفة وتعاليم الفقهاء. وهززت رأسي، ونظرت إليهم جميعا، وقلت:

ـ أنتم أكرم من رأيت، ولا يرد لكم طلب.

فتهللوا، ومدوا أياديهم إليّ ليرفعوني من مكاني، لكنني قلت لهم بلهجة قاطعة:

ـ سأبقى معكم، لكن هنا، في كوخ الحاج حسين. إنه مكاني في بلدتكم.

فقال الزهيري مستعطفا وهو يمسح جنبات الكوخ بعينيه:

ـ هذا مكان لا يليق بك.

ابتسمت وقلت له:

ـ كان هذا موطن رجل صالح، ولا أجد أفضل منه.

فهزوا رءوسهم مطيعين، وقال الزهيري:

ـ كيفما ترى يا مولانا، أنت أدرى بالمكان الذي يليق بك، المهم أنك ستبقى هنا إلى جوارنا.

وانفلت من بين الحشد الشابان اللذان يسعيان إلى إقامة ضريح للحاج حسين، وكانا قد سمعا مع الناس ما قلته في حق الرجل، وقالا في صوت واحد، وهما ينظران إلى الزهيري وأبي غلاب:

ـ كان رجلا صالحًا، وليس مجنونًا.

فنظرا إليهما صامتين، لكن أحد الشابين قال في لهجة قاطعة:

ـ سنشهد الشيخ على ما قلتما عن صاحب هذا الكوخ، وما يحكم به نقبله.

فمسح الزهيري شاربه بيده وقال:

ـ كان يردد كلاما فوق عقولنا عن شجرة مباركة تنبت في الصخر، ثمارها من كل طعم، وورقها من كل شجر، تحميها الفراشات والعصافير، وترمي أفرعها على مساحة أكبر من أرضي.

وقال أبو غلاب:

ـ كان يقول إنها إحدى شجرتين في الكون كله، الأولى موجودة وراء الغمام، هناك على طرف الكون، والثانية هنا، ترانا ولا نراها... هذا كلام غريب!

وتوجه الشابان إليَّ وقال أحدهما:

ـ أكان الحاج حسين يهذي؟

فهززت رأسي نافيا. فسألني الثاني:

ـ الشجرة موجودة إذًا ؟

والتفتُّ إلى نهار فقالت:

ـ لا تقطع بشيء قبل أن يُؤذن لنا.

فقلت لهم، والناس تنظر إلى حيث التفت:

ـ ليس مأذونا لي بالكلام الآن في هذا الموضوع، لكن ليعرف الجميع أن الحاج حسين كان وليا من أولياء الله، خصه سبحانه بأسرار لا تأتي إلا لأمثاله، وحماه بعنايته حتى فارق الحياة إلى جنة الخلد، بمشيئة العلي القدير.

فقال أحد الشايبين:

ـ لنبني له ضريحا، هنا بجوار الكوخ، أو على أي بقعة في أرض الحاج الزهيري أو دار من دور أبي غلاب، هذا أقل ما يقدم من اعتذار للرجل الطيب عن رميه بالجنون والفسوق.

ولذت بصمت مطبق، وطالعت كل العيون وجهي لترى أثر الكلام في صفحته الرائقة، لكني كنت حريصا على أن أبدو محايدا إلى أقصى حد. ولم أنعم بهذا الحياد، إذ سألني الزهيري:

ـ أنبني له ضريحا يا مولانا؟

فنظرت إلى نهار فهمست لي بالإجابة، فقلت لهم:

ـ يومًا ما ستعود جثته، تهبط من الفضاء الذي طارت إليه، تعود طرية كأن صاحبها قد فارق الحياة للتو، ثم تحط هنا في الكوخ. ساعتها سيكون متاحا لكم أن تحملوها إلى أي بقعة تختارونها من أرضكم، وتدفنونها وتقيمون حولها الضريح.

وهزّ أبو غلاب رأسه ليستوعب ما قلت، وقال في صوت مليء بالعجب:

ـ معجزة فوق الخيال.

وسألني الزهيري:

ـ متى ستكون عودته؟

فقلت من دون تفكير:

ـ هذا في غامض علم الله.

فهز رأسه، ولذت بصمت، وتهت في ذكريات لا حدود لها، وفاض شرودي على ملامحي، فبدوت مرهقًا، وانقطعت صلتي لدقائق معدودات مع الحشد المتحلق حولي، ومدت نهار ذراعها إلى خصري وطوقتني، وقالت في عذوبة:

ـ ما أجمل الحب في هذا الكوخ البسيط، بين إنسي حائر وجنية عاشقة.

وتابع الناس رخاوة ملامحي من بعد شرود، وسمعوني وأنا أقول بصوت لين:

ـ حين يجن الظلام.

واعتقدوا أنني سبحت بعيدا إلى عالم لا يعرفونه، عالم لا مرئي ولا مسموع، طالما شنفوا آذانهم وهم يتابعون الحكايات العجيبة التي قيلت حوله، ولا تزال تقال في كل مكان، وستظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ونظر الزهيري إلى الناس وقال:

ـ لنعد إلى منازلنا ونترك مولانا الشيخ ليستريح.

ورجعوا بظهورهم، ووجوههم نحوي احتراما وإجلالا، حتى مالوا عن الكوخ جانبا، ومضوا في طريقهم إلى القرية، والليل يأتي على مهل، ويلف البيوت بالسواد، حتى غابت القرية عن عيني، ولم يبق من أثر لها سوى خيوط نور واهنة، تنبعث من قناديل الزيت، أو كوانين الشاي والطبيخ.

وقالت نهار وهي تنظر ناحية القرية التي لفها الليل والسكون:

ـ كالعادة، منقسمون ما بين خير وشر.

فنظرت إليها مستفهما، فقالت:

ـ منهم الكرام الطيبون، الذين يبحثون عن الصالحين فيرفعونهم ومنهم الخبثاء الذين رءوا في وجودك هنا سبيلًا للوصول إلى الكنوز

ـ الكنوز؟

ـ يعتقدون أن الرجل الذي أحضر مائدة من السماء حافلة بطعام شهيّ، بوسعه أن يأمر الأرض فتنفلق عن كنوزها المخبوءة.

ثم صمتت برهة، وقالت:

ـ الشابان المتحمسان للحاج حسين، أحدهما صادق يعتقد أن التمسح في الرجل وإحياء ذكراه تقربه من الله زلفى. أما الآخر فشيطان رجيم، يريد بناء ضريح يقف عليه خادما، ويفعل ما يفعله أدعياء الدراويش، فيقاسم الناس في أموالهم، وقد يزعم الولاية فينزلونه منزلة كبيرة، مثل تلك التي أنزلوك إيّاها.

ـ وماذا عن الزهيري وأبو غلاب؟

ـ من الطامعين في الكنوز، كم أنفقوا في البحث عنها، من دون جدوى، والآن يعتقدان أن ساعة الحظ قد حانت، وستتضاعف على يديك ثروتاهما أضعافا مضاعفة.

فمصمصت شفتيّ في أسى، وقلت:

ـ أغلب البشر فاسدون.

فضحكت وقالت:

ـ وأغلب الجن كذلك.

ثم صمتت برهة وواصلت:

ـ نحن مخلوقات تعيسة، كل نعمة وهبنا الله إيّاها يمتحننا فيها.

فزفرت في ضجر وقلت:

ـ هذا مصير البشر، لكن أعتقد أنكم معشر الجن أسعد بكثير.

فهزت رأسها مؤمنة على كلامي، وقالت:

ـ هذا حق، الإنسان خليفة الله في الأرض، وهبه من كل صفاته، وبقدر العطاء يكون الحساب.

فنظرت إليها مليّا وقلت:

ـ نحن مخلوقات عمياء لا ترى إلا تحت أقدامها، أما أنتم فترون البعيد.

فضغطت على يدي وقالت:

ـ معرفتنا لها حدود، ونصيبها ليس موزعا بالتساوي بين أقوامي.

ـ ومن أيّ قوم أنت؟

ـ قدراتي تضيق وتتسع حسب الأحوال. أحيانا أشعر أنني عمياء، وأحيانا أبصر التائهة.

فابتسمت وسألتها:

ـ على أي حال أنت الآن؟

فطوحت رأسها، ومدت شفتيها وقالت:

- أسوأ الحالات.

- لِمَ ؟

- قومي غاضبون منّي، بذلت جهدا خارقا كي أحملهم على الموافقة على الزواج منك. قبلوا بشرط أن أجلبك معي إلى هناك. أقنعتهم بالعودة معك، وكانوا قساة معي إلى أقصى حد. قلت لهم إنها رحلة سريعة وسنعود. اليوم بعد أن قررنا أن نمكث في الأرض طويلا، زادوا غضبا عليَّ، وسلبوني الكثير من قدراتي الخارقة.

- تذكري أنك أنت التي أشرت عليَّ أن أبقى هنا، بعد طول رفض.

فصمتت برهة ثم قالت:

- هناك أسباب سأقولها لك في حينها.

فامتلأ رأسي بالغضب، وقلت لها بنبرة حادة:

- أريد أن أعرف كل شيء الآن وهنا.

فأخذت وجهي بين راحتيها وهمست:

- لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم... أليس كذلك أيها الأزهري النابه؟

فنظرت في عينيها، فحالت الظلمة دون أن أقرأ ما فيها، كما تعودت، وقلت لها:

- لم أتعود منك كذبا.

فهزت كتفي بلطف وقالت:

- لم أكذب عليك قط.

- ولا مداراة.

- هذه حدثت لأسباب فوق طاقتي. وفي مرات عديدة لم أشأ أن أحملك همّا فوق همومك، فبلعت أخباري، وعانيت من آثارها، وأعطيتك وجها هاشا باشا في ساعات كدري.

وكانت تتحدث بصوت ساحر، غارق في الشجن، فهز أعماقي، فلم أدر بنفسي إلا وأنا أطوقها بذراعي، ثم أقبلها في وجنتيها بنهم، وزحفت بشفتيَّ إلى شفتيها، وأطبقت عليها بشدة، فلما التقى لعابي بلعابها سرت في فمي حلاوة لم أتذوق طعما مثلها من قبل، وسرى في عروقي خدر، وأحسست أن رأسي يكبر، وحلت بجسدي قوة جبارة. مددت يدي إلى شعرها أتحسسه، فروعني أن أصابعي تنغمس في تلافيف لدنة كأنها ورق الشجر، فانزلقت يدي إلى خصرها، وضغطت عليه، فشعرت أنني أطوق جذع شجرة أملس، على جوانبه براعم وشقوق صغيرة. أحسست أن كائنات دقيقة تدب على ذراعي. أشياء كالنمل والنحل والفراشات. اهتز كياني رعبا، لكن الرغبة الجامحة التي انتفخت لها شراييني، جعلتني أغمض عيني وأستمر في ممارسة الحب، مدفوعا أيضا بالطاقة الجسدية الغلابة التي حلت بي. جذبتُ نهار إليّ جذبة كادت أن تدخل جسدها في جسدي، ثم هززتها مرات لا حصر لها، أكبر بكثير من أي مرة سابقة، حتى حلت النشوة والراحة.

استلقيت على ظهري. مددت يدي إلى نهار المستلقية جنبي وتحسست جسدها فوجدته لحما طريًّا، وإلى شعرها فوجدته حريرًا

ناعمًا، فاعتقدت أن ما لمسته وتذوقته وقت المضاجعة شيء من الوهم الكاذب، أو من فعل السحر الأسود الذي تمارسه غريمتها هناك وراء الغيام. ذهبت عيني إلى سقف الكهف، وتابعت خيطًا من نور القمر الذي بزغ وأرسل أشعته إلى جدر بيوت الطمي وشوارع القرية المتربة وشواشي الزرع وقلوب العاشقين. كان النور ينتهي إلى ركن الكوخ، حيث القش المتدلي بغزارة، فيلمع كأنه سلاسل من ذهب.

مددت يدي في جيبي أبحث عن ورقة البردي، التي كنت قد خبأتها عند سماع ضجيج أهل القرية. أخرجتها وقلبتها بين أصابعي العشرة، لكن حروفها كانت مطموسة في الظلمة الكثيفة، فلم أتبين شيئا. وقلت لنهار، وأنا أمد الورقة إليها:

ـ لا شيء يظهر من حروفها، يبدو أننا سنضطر إلى الانتظار حتى الصباح كي نعرف ما فيها.

فضحكت وقالت:

ـ أتعتقد أن المشكلة ستنتهي بانقضاء الظلام؟

ـ نعم.

ـ لا... ستراها في نور الصبح المبهر حروفًا مرسومة لم تمر بعينيك يوما. إنها ليست الحروف التي تعلمتها، وليست اللغة التي طالعت بها كتب الأزهر.

فانقبضت وسألتها:

ـ بأي لغة هي؟

ـ خليط من لغات شتى، الهيروغلوفية والسريانية والفارسية، ولغة أهل الجن.

وشعرت أن شيئا دقيقا يدب على قدمي، ويزحف على ساقي، فمددت يدي وهرشت مكان الدبيب، وقلت لنهار:

ـ هذا معناه أن الحاج حسين لم يقرأ؟

فهزت رأسها وقالت:

ـ لو قرأ لتغير مصيره.

ثم صمتت برهة وقالت:

ـ هذه الورقة مكتوبة منذ آلاف السنين، تتنقل من مكان إلى مكان، ومن يد إلى يد، لا تبلى، ولا أحد يعرف ما فيها.

فنظرت إليها باندهاش، ثم ابتسمت في سخرية وقلت:

ـ كل هذه السنين لم يوجد من يقرأ هذه اللغات.

فربتت كتفي وقالت:

ـ إن حروفها من كل اللغات التي ذكرتها، لكن كلماتها لا تنتمي إلى أي منها.

فنقرت بإصبعي في جبهتي، وقلت:

ـ هذا معناه أننا لن نقرأها أبدًا.

ثم سادت لحظة صمت لم تطل، قطعتها سائلًا:

ـ ألا يمكن لأحد من الجان أن يقرأها؟

ـ قلة تعد على أصابع اليد.

ـ قلة؟

ـ هم الذين يعرفون أسرار الشجرة العظيمة القائمة في مملكتنا الكبيرة منذ سنوات لا تحصى.

فضحكت وقلت:

ـ ظننت أنك تعرفين الكثير عن شجرتكم.

ـ نحن نسمع عنها من أهلنا، ونراها حين يؤذن لنا، تبدو لأعيننا شيئا فوق الخيال، طيف أو حلم أو وهم، لكنها موجودة، تفرش مساحات هائلة، وتشرع أفرعها في الفضاء الرحب. تكبر كل يوم عرضًا وطولًا وارتفاعًا.

ـ وشجرتنا؟

ـ هذه لكم، لكنكم لم تعرفوا حتى الآن كيف الوصول إليها. القلة التي تعرف أسرار شجرتنا تعرف أيضا كل شيء عن شجرتكم المباركة، لكن أمثالي من عوام الجان، يسمعون فقط عن شجرة الأرض هذه، لكن ليس مأذونا لهم برؤيتها، ولا التمتع بثمرها وظلالها ورائحتها الطيبة.

فتذكرت ما شعرت به وقت المضاجعة، وقلت في صوت مفعم بالأمل:

ـ ربما ذقت ولمست وشممت شيئا منها يا نهار.

فهزت رأسها وقالت:

ـ هكذا جرى للحاج حسين فعرف، لكن أحدًا لم يصدقه.

ـ أيعني هذا أنني يمكن أن أضع قدميّ يوما على الطريق؟

ـ نعم، وسوف أساعدك.

وسادت لحظة صمت قطعتها نهار قائلة:

ـ الحاج حسين لم يجد واحدة مثلي تساعده فسقط في منتصف الطريق، أما أنت بوسعك أن تواصل، فتكون أول إنسان يصل إلى الحقيقة الجلية.

فهززت رأسي في أسى وقلت:

ـ لا يعلم الغيب إلا هو.

(٧)

نظرنا في البعيد فوجدنا ضوءا خافتا يسير على الجسر. كان يتجه نحونا. حين اقترب سمعنا همهمات وهسهسات لم تلبث أن صارت حروفا وكلمات، ثم تبينت أن صاحبي الصوت هما الزهيري وأبو غلاب. وأطلا بجسديهما الكبيرين من فوهة الكوخ، وقالا في صوت واحد:

ـ السلام عليكم يا مولانا.

ووضعا شيئا مستديرا على الأرض، خلصت جوانبه في ضوء القمر المنسكب من فوهة الكوخ، ثم رفع عنه الزهيري غطاء أبيض، فوجدته طبقا من الخوص، عليه صحون تفوح منها رائحة طعام شهي، وقال أبو غلاب:

ـ لقمة على ما قسم يا مولانا.

ثم أردف:

ـ نعرف أن بوسعك أن تنزل علينا مائدة من السماء في غمضة عين، مائدة أفضل من هذه بكثير، لكن هذا ما بوسع أمثالنا أن يقدموه.

فنظرت إلى نهار فوجدتها ممتنة لهما، فقلت لهما:

ـ يجعله عامر.

وقربت الطبق مني، وقلت لهما:

ـ تفضلا باسم الله.

فقال الزهيري وهو يشمر ذراعيه:

ـ كنا سنأكل حتى لو لم تطلب منا، لننال البركة يا مولانا.

وقبل أن أمد يدي إلى الطعام قالت لي نهار:

ـ النجم القطبي أصبح في أبهى صورة له.

فأشرت لها بيدي:

ـ اذهبي، صحبتك السلامة.

وكان الزهيري وأبو غلاب يتابعان حديثي مع نهار بعجب ووجل، تلفتا حولهما وأرسلا نظريهما في كل جنبات الكوخ، ثم تبادلا النظرات في صمت، وعادا إلى الطبق يزدردان الطعام بنهم شديد، وكأنهما يأكلان آخر زاد لهما في الدنيا.

شاركتهما الطعام بشهية مفتوحة وقلب طروب، ورمى الليل سواده خارج الكهف، بعد أن غاب القمر في طيات السحب الداكنة التي ساقتها الريح من الغرب. وجاءت من الزراعات أصوات الضفادع والجنادب، وتناهى من بعيد نباح كلاب تتعارك، فردت عليها الذئاب في عواء زاعق. وبعد فترة وجيزة ترامى إلينا آذان العشاء من الجامع الكائن على الطرف الآخر من القرية، فقال أبو غلاب:

- نصلي معك العشاء يا مولانا، هذه فرصة لا تعوض.

ولما انتهينا من الصلاة، فتح أبو غلاب صرة كانت معه عن قوالح ذرة جافة، وعلبة من الصفيح بها شاي وسكر، وعلبة ثقاب، وبراد يكاد أن يذوب في الظلمة من لونه الداكن، وثلاثة فنجانين من الصاج الأبيض. رص القوالح على هيئة هرم صغير، وأشعل فيها النيران، ثم دفن البراد بين ألسنة اللهب، بعد أن ملأه بالماء من القلة الكبيرة التي أحضرها معه.

وصب الشاي الساخن في الفنجانين، وأعطاني أولها، وقال:

- شاي هندي معتبر.

فسحبت رشفة ساخنة وقلت:

- أكل طعامكم الأخيار وذكركم الله فيمن عنده.

فتهللت أساريره وقال:

- مطرح ما يسري يمري يا مولانا.

وثقل الطعام على جسدي فتثاءبت، ولذت بكسل وصمت، وانشغل ذهني بنهار التي ذهبت ولم تعد. وتبادل الرجلان النظرات مرة أخرى، وشرع الزهيري في لملمة أطراف المنديل الكبير المفروش فوق طبق الخوص. أما أبو غلاب فتابع حيرتي بنفس باردة، حتى أحسست أنه يريد أن يندس في داخلي فيعرف فيما أفكر، وما الذي يشغل بالي.

ولم يمض وقت طويل حتى حلت نهار وهي تلهث، جلست بجواري، فقلت لها بصوت مسكون بالرجاء:

- حمد لله على السلامة.

فأومأت برأسها، ووارت عني عينيها، فحلت في رأسي خيبة، لكنني طردتها، وأمسكت بأهداب الأمل، وقلت لها:

- عسى أن تكون رحلة موفقة.

فهزت رأسها وقالت:

- على الأقل ما بعدها غير ما قبلها.

وتابع الرجلان كلامي، ولم يدريا ما يفعلان مع رجل يكلم نفسه، أو يكلم شيئًا أو أحدًا لا يريانه، فهبا واقفين وقال الزهيري:

- نستأذن يا مولانا.

وعززه أبو غلاب بالقول:

- نتركك في خلوتك... لا يصح أن يكون بينك وبين جنود الله متطفلون.

ثم مضيا يسعلان في نسمة هبت فجأة، ولم يلبث صوت سعالهما أن خفت، وكان السحاب لا يزال جاثمًا فوق صدر القمر، فابتلعتهما الظلمة الطارئة.

* * *

اختليت إلى نهار. كانت مجهدة إلى حد لم تبد عليه أبدًا من قبل،

وكانت عيناها تلمعان بشدة في الظلام كأنها جمرتان كبيرتان. أسندت رأسها على كتفي، وقالت:

- كانت رحلة طويلة.

فنظرت في وجهها مليا، وقلت:

- لم تغيبي سوى ساعات قلائل.

فضحكت وقالت:

- قلائل بحساب البشر.

فعرفت ما تقصد، ولذت بالصمت انتظارا لأسمع ما عندها. فردت طولها على بساط قديم كنا نفترشه، ووضعت رأسها على فخذي، ورمت عينيها إلى سقف الكوخ. وقالت:

- قابلتها هناك فوق الماء المالح. ناديتها فردت من جوف الفضاء، وهبطت كريح طيبة، تنسمتها فهاجت ذكرياتي النائمة. ما إن لمست يدها مصافحة، حتى شدتني معها إلى الأسفل، وحطت على البحر. جلسنا على بساط أبيض كاللبن، تهدهده الأمواج اللطيفة فنهتز متأرجحين بين الماء والنسيم العليل. قبل أن أفتح فمي، وجدتها تقول لي في حسم: «ليس عندي طلبك»، فانزعجت وتملكني حزن مقيم، لكنها ربتت كتفي وقالت ضاحكة: «هناك في الفضاء البعيد يتحدثون عن شجرة عملاقة في قاع هذا البحر، تشبه تلك القائمة لدينا، ونظيرتها الواقفة بين الصخر والماء العذب».

لما وجدتني صامتة قالت باسمة: «يمكن لنا أن نجول تحت الماء لنرى، وقد نجد ما نجيب به طلبك العزيز»، ثم مدت يدها في الهواء

فرأيت ضوءًا أبيض كالنهار يدور حول كفيها، ثم رمته عليَّ، وشدتني إلى القاع البعيد، وهناك رأيت العجب العجاب: دنيا ملونة تتحرك في كل اتجاه، ودهاليز محفورة بين حراشف وسنون مدببة وأهداب ناعمة لزجة، تنتهي إلى أعماق سوداء ينشع الضوء من أعطافها.

انطلقنا إلى أسفل، محاطين بألوان مبهرة، ثم فجأة صفا الماء وراق، وتحولت زرقته إلى لون أبيض كالفضة، تكسوه مسحة زرقاء خفيفة. وبانت هناك في الطرف البعيد أجمة خضراء هائلة، أشارت إليها صديقتي وقالت: «هذه هي الشجرة الثالثة»، فقلت لها متهللة: «تبدو دانية منا كأنها في قبضة أيدينا»، فضحكت وقالت: «إنها بعيدة جدًّا، أبعد مما تتصورين» فغزتني لحظة حزن قاتم، وتطلعت فرأيت أطراف أفرع الشجرة تكاد أن تلثم جباهنا، فعدت لأقول لها: «إنها قريبة»، فردت في غضب لم أعهده فيها من قبل وقالت: «قريبة وبعيدة.. عليها حراسة مشددة، والاقتراب منها يعني الموت المحقق». ثم أشارت بيدها هناك عند جذع الشجرة العملاق فتابعت عيناي إصبعها لأجد كائنات ضخمة تدور في المكان بلا هوادة. تفرست مليا فتمكنت من تحديد ملامحها، كانت ضخمة سوداء تشبه الحيتان، لها ذيول طويلة غليظة تضرب بها الماء فيرتج رجًّا، ولها أفكاك طويلة تنبت على جانبيها أنياب وقواطع طويلة مدببة، الناب منها كأنه حربة كاملة، وعيونها تبدو كمجامر كبيرة، تقدح بشرر يتطاير، ويموت في الماء.

* * *

وقفنا نترقب ما يجري وفي قلوبنا وجل يكاد أن يقتل الرغبة العارمة في اكتشاف المجهول ونيل ما نقصد. وحاولت أن أشجع

صاحبتي على الإقدام، لكنها جعلتني أحجم معها عن التقدم ولو خطوة واحدة، لاسيما حين قالت وهي ترتجف هلعا:

ـ لا يمكن أن نعبر هذا الكائن الغريب.

فنظرت إليها متعجبة وقلت:

ـ نحن كائنات شفافة، سنمرق من تحت أرجله دون أن يرانا.

فضحكت وقالت:

ـ يرى كل شيء، إنه كائن مسحور، يعرف الجن قبل الإنس.

ووجدتها تعود إلى الخلف، فقلت لها:

ـ ألم تعرفي هذا قبل أن نغطس إلى القاع البعيد.

قالت:

ـ أنا أعرف، لكن أردت أن تعرفي أنت بنفسك، حتى لا تعتقدي أنني تخليت عنك، وعن حبيبك الإنسي، القابع هناك بين أعواد البوص والجريد.

حين خرجنا إلى سطح الماء، قالت لي:

ـ لكل عقدة حل.

فنظرت إليها وفي عيني سؤال، لكنها عاجلتني بالإجابة:

ـ لا بد من مقابلة أحد خدام ملكنا العظيم، فعندهم أخبار الأشجار الثلاث.

وغادرتني سريعا وهي تقول:

ـ عودي إلى حبيبك.

فسألتها في وجل:

ـ متى ستعودين؟

فابتسمت وقالت:

ـ حين أعرف.

وفي طريق عودتنا حدثتني عن صاحبتها التي تخدم في بلاط ملك الجن، ويتاح لها أحيانا أن تتسلل إلى غرفة الأسرار وتطلع على بعض الأوراق النائمة في بطن صندوق حديدي. وقالت:

ـ حدثتني ذات مرة عن الأشجار الثلاث.

ثم صمتت برهة وقالت:

ـ يومها تعجبت فقد كنت أعرف أنها اثنتان، واحدة في الفضاء والثانية على الأرض، أما الثالثة فلم يتكلم عنها أحد ممن أعرف.

وصمتت نهار وشاركتها السكوت، فعلا في آذاننا نقيق الضفادع ونباح كلاب ترد على ذئب عوى، فقلت لها:

ـ نام والصباح رباح.

وفي الصبح غادرتني مبكرًا، وقالت وهي تهم للطيران:

ـ سأقابلها عند القمر.

فابتسمت وقلت لها دون أدنى جد:

ـ خذيني معك أرى القمر.

فضحكت وقالت:

ـ ليس الآن، سنذهب ذات ليلة إليه وأجعلك تدور في جنباته، وتعود وفي يدك أحجار من صخوره.

ـ صخوره؟

ـ نعم، القمر كالأرض، قطعة مستديرة من تراب ورمل وصخر.

وصمتت برهة وقالت:

ـ بعد قرون سيتمكن أنسي من النزول على سطحه، ويجد كل ما أقوله لك، أما في هذه الأيام ستكون أنت أول من يذهب إلى هناك، لكن لن تستطيع أن تحكي عن أي شيء رأيته، لأن أحدًا لن يكون بوسعه أن يختبر ما تقول، وقد يكون في هذا باب للتشكيك في كراماتك المزعومة.

ـ مزعومة؟

ـ فابتسمت وقالت:

ـ طبعا، كل ما نسب إليك فعلته أنا، أنسيت خوان الطعام، وحديثك الهامس إلى أحد لا يراه الناس.

وسرت في نفسي موجة من حزن، لكنها ربتت كتفي وقالت:

ـ لا فرق بيننا يا حبيبي، أردت فقط ألا تنسى الجوهرة الثمينة التي وهبك إياها رب العزة... العقل المتوقد، والمشاعر الفياضة.

فطفرت عيني بدمعة ساخنة وقلت في أسى:

ـ كاد هذا أن تطمره الظنون والخرافات.

فهزت رأسها وقالت:

ـ كثير مما يعتبره الناس خرافات هي حقائق في علم الغيب، لكن البشر لا يعلمون.

ثم ابتسمت مرة أخرى، وقالت:

ـ سأذهب، إنها تنتظرني الآن.

ثم مرقت واختفت في الفضاء الرحب، وحل سكون لبرهة قطعه خوار بهيمة تمر من أمام الخص، ونحنحة رجل يجرها في هدوء.

(٨)

اختليت ونفسي بينما الضحى العالي يملأ الأرض نورا، ورحت أستعيد قصتي مع نهار منذ أن رأيتها ذات صباح، وسرى في نفسي حزن وأنا أتذكر كلمتها الأخيرة عن العقل، الجوهرة التي في رأسي، وعن القلب، الجوهرة التي في صدري. ثم أتت من قيعان الذاكرة عبارة سمعتها منذ عقود من شيخي بهاء الدين القناوي:

«العقل هبة الله التي تميز الإنسان عن كثير من المخلوقات، لكننا لا يمكن أن نقطع طريقنا بيسر إلى الحقيقة، إلا إذا زاوجنا بين التفكير والإيمان».

وناداني هاتف من أعماقي:

«خل الدنيا وراء ظهرك، وهذب شهواتك ولا تصرفها إلا في حلال، ولا تحزن على شيء يفوتك، فالأجل ينتظرك دوما إن أخلصت».

ووجدت نفسي أقوم وأمشي بين الزراعات هائما على وجهي، نظرة إلى الخضرة الزاهية وأخرى إلى طرف السماء. وأطل من هناك الجبل الأشم، بلونه المتفاوت بين الصفرة الباهتة والسواد الخفيف

المزركش بقطع بنية مختلفة الأحجام. ألوان لا تنم أبدًا عن أن هناك شجرة عملاقة تعيش في كنفه، جذرها عند السفح وهامتها أعلى من الجبل نفسه وامتدادها يغطي جزءا كبيرا منه. أين هذا الجزء المغطى إن كان لون الجبل ممتدا، لا يقطعه شيء؟ أين المكان الذي خر فيه الحاج حسين ساجدا؟

ورآني رجلان فأقبلا عليَّ، وقال أطولهما:

ـ حلت البركة بغيطنا يا عم الشيخ عاكف، لا بد أن تأخذ شيئا، هذا بصل وذلك خيار، وهذه طماطم، وهناك تكعيبية عنب في طرف الحقل تتدلى منها العناقيد.

فقلت له:

ـ يكفيني عنقود واحد.

فجرى إلى طرف الحقل، وتقدم مني الرجل القصير، وسألني بصوت مرتعش:

ـ لا تؤاخذني يا عم الشيخ... كنا بالأمس نتساءل عن المكان الذي جئت منه إلى قريتنا.

فابتسمت وقلت له:

ـ هل هذا ضروري؟

ـ بعض الناس يقولون أنهم قد رءوك قبل أكثر من ثلاثين سنة، ثم غبت عن الأنظار، وهاأنت تعود.

ـ كنت على سفر.

- في بر الشام.

- لماذا بر الشام بالذات.

- هكذا يقول الناس.

وقلت في نفسي: الناس لا تترك أحدًا في حاله، ثم أجبته:

- كنت في بلاد المغاربة.

ولم يصمت الرجل، بل عاد يضيق الخناق عليَّ وقال:

- سمعت ذات مرة أن بلاد المغاربة غنية بالسحرة الكبار.

وشممت في كلامه رائحة غير طيبة، وفهمت ما يرمي إليه فأجبته على الفور:

- كنت أعلّم الناس هناك الفقه الذي تعلمته في الأزهر.

فاتسعت عيناه وقال:

- مولانا أزهري.

فقلت له وأنا أسعى إلى إنهاء الحديث:

- درست في الأزهر ثلاث سنين، لكن...

ولم يدعني أكمل، ولم أكن أعرف ما أقول، لكنه أراحني من عناء الكذب والتفكير، وقال باسما:

- ثم انجذبت.

فأومأت مصدقا على كلامه، وقلت بطريقة مطوطة تتواءم مع ما أريد أن يرسخ في ذهن الرجل:

- ناداني القطب، حامي الحمى، الولي الطاهر، فلبيت...

فصرخ الرجل:

- مدد يا سيدنا مدد..

وأدرت له ظهري، وكان صاحبه قد عاد وفي يده سلة صغيرة مليئة بالعناقيد الصافية، ومدها إليَّ فمددت يدي وفرطت سبع حبات، ثم قلت له:

- وزع الباقي على الفقراء، واعتبرني أكلته كله.

فأشرق وجهه وقال:

- أمرك يا سيدنا.

رفعت يدي اليمنى، فخلوا لي الطريق، وأوغلت راحلًا بين الزراعات، حتى وصلت إلى حافة بستان كبير، فمرقت داخله وألقيت جسدي تحت ظل شجرة، وغلبني النعاس فنمت ملء جفوني. حين استيقظت رحت أتذكر تفاصيل حلم غريب، ربما استغرق نومي كله، أو مرّ كطيف خاطف، بضغط الأحداث في برهة، ويتركنا نمدها بعد صحونا فتصير فترات طويلة قد تصل إلى سنين: رأيت كأنني أسير ليلًا في صحراء ممتدة بلا نهاية، حافي القدمين، أشعث الشعر، وعلى جسدي أسمال بالية. كان حلقي يابسا وبطني خاوية، وكانت عيني شاخصة إلى الطرف البعيد لترى بقعة النور التي تطل بين قطعتين سوداوين. وسمعت هاتفا ينادي من فوقي:

- عد إلى دارك أيها الغريب.

وكأنني رحت أبحث عنه فلم أعثر على أي أثر له، لكنني وقفت عند صخرة كبيرة، ثم صعدت فوقها، ورددت على الصوت الذي كان يكرر ما يقول بلا توقف:

- داري ليست في هذه الأرض.

وعندها توقف المنادي، وبعد فترة وجيزة عاد يقول:

- على الأرض تقيم جدارك أو تنقضه، وبعدها تبحث عن دار خارج الدنيا.

ووجدتني أقول للهاتف:

- تجل لي ولا تكلمني من وراء الغمام.

وسمعت ضحكة مجلجلة ارتج لها المكان، وجاء صوت يسألني:

- أتريد أن تراني؟

فأجبت في لهفة:

- نعم.

فعاد إلى الضحك وقال:

- أغمض عينيك واصمت، لا تكلم أحدًا حتى نفسك، وعندها ستراني.

ففعلت ما طلب مني، ثم عدت إلى القول:

- لم أر شيئا.

فجاء الصوت ضاحكا مرة أخرى وقال:

- إذا لا تزال أعمى.

نظرت حولي فأبصرت أشجار البرتقال متراصة في صفوف، وأعناقها منحنية بثمرها اللذيذ. مددت يدي وقطفت واحدة، قشرتها وفصصتها ورحت أمضغ في بطء، وأنا مشغول بالحلم الذي أشعل الظنون في رأسي. حاولت أن أجد تفسيرًا في التو لكن عييت عن الرد على التساؤلات التي أطلقتها في صمت، وأنا ألمح بطرف عيني الخنفسة وذكرها يلتصقان وينفصلان عن كل شيء. التقطت حصاة ورميتها، لكنهما لم يبرحا المكان، ووجدت نفسي أتساءل:

- هل تختلف علاقتي بنهار عن هذا؟

أضمرت الإجابة في صدري، خوفًا من أن أتفوه بها فتصل إلى أسماعها وهي في جوف الفضاء البعيد. لكن صدري راح يفور بغضب ابيضت له عيناي، وثقل رأسي، ورأيت أشجار البرتقال تبهت وتغور، ثم سقطت مكاني واسودت الدنيا. لا أدري كم مرّ من الوقت حتى حطّت يد بضة على جبهتي، وراحت تدلكها بلطف وحنان. فتحت عيني فوجدت نهار أمامي، ابتسمت لها وقلت بصوت خافت:

- الحمد لله على سلامتك.

فأخذت رأسي على صدرها وقالت:

- أفتقدك كثيرا.

ثم أردفت بعد أن زفرت في ألم:

ـ عدت من الرحلة بلغز جديد.

ـ لغز؟

ـ ألغاز هذا الكون لا تنتهي.

فقلت لها في فتور:

ـ لم أعد مهتما بشيء.

فامتلأ وجهها بالغضب وقالت:

ـ يجب أن تهتم حتى نجيب على لغزنا الكبير.

حكيت لها عن الحلم الذي حيرني، ووصفت لها الأشواك التي نبتت في نفسي، فقالت بصوت مفعم بالدلال:

ـ تلزمك رحلة إلى هناك.

ـ إلى أين؟

ـ عندنا في مملكة الجن.

زفرت غاضبا وقلت لها بطريقة قاطعة:

ـ انس هذا الموضوع.

فردت بصوت ناعم:

ـ أستطيع أن أختطفك إلى هناك، وتصبح أمام أمر واقع.

ـ تستطيعين فعلًا، لكن هذا سيحول حبي لك إلى كره عميق.

أطرقت صامتة، ثم قالت:

ـ لم تسألني عن اللغز الجديد.

ابتسمت في سخرية وقلت:

ـ ذهبت كي تأتينا بحل للغز الذي يعجزنا، فأتيت بلغز آخر.

ـ هذه المرة الحل لديك أنت.

ـ أنا؟!

ـ ألم أقل لك إن الله وهب البشر ما هو أقوى من طاقة الجن.

ـ تقصدين العقل والقلب. البرهان والحدس.

ـ أنتم خلفاء الله في الأرض، أعطاكم من صفاته، ومهما قلت لك من قبل كلاما يقدح في غروركم فهذا لا يجنح بي إلى إنكار قدراتكم العظيمة.

ـ بعيدا عن هذه الفلسفة، ما هو المطلوب مني بالضبط؟

ـ رحلة طويلة.

ـ إلى أين؟

ـ المحروسة.

وطلبت منها أن تقص على مسامعي ما جرى فقالت وملامحها قد اكتست بجدية لم أعهدها من قبل:

ـ سأحكي لك الأعاجيب.

شنفت أذني، وسلسلت بها رأته وسمعته، من دون توقف، وأنا أتقافز من هول ما روت، وقلبي ينبض بعشق هذه الجنية التي

تخاطر بنفسها من أجل سرٍّ، ربما لا يقلق أحدًا غيري في هذا العالم الأرضي الفسيح.

قالت:

جاءتني صديقتي عند القمر وفي يدها ورقة مطوية، خشنة كأنها مصنوعة من معدن خام، لامعة كأنها البرق. أعطتني إياها وقالت:

ـ خذلتني صاحبتي وجاد عليَّ بها الخادم الثالث عشر.

فتذكرت ما بينهما من عشق دفين، وقلت لها وأنا أضحك:

ـ الحب يصنع المعجزات.

وهبطنا سريعا إلى البحر. عدنا إلى المكان نفسه. الورقة في يدي، والماء لا يبللها أبدًا. في القاع البعيد لاحت أطراف الشجرة، وبدا الكائن المخيف بعينيه الناريتين، وفمه المرعب. قبل أن نصل إليه بمسافة كافية، قالت لي:

ـ افتحي الورقة.

فتحتها، ولمعت حروفها في عيني، فقالت:

ـ لنقرأها سويًّا حرفا بحرف كأن من يتكلم شخص واحد. إياك أن تسبقيني أو تتخلفي عنّي.

وقرأنا سويًّا:

« يا خالق كل شيء. يا فالق الحب والنوى. يا مخرج النهار من الليل. والحي من الميت. والميت من الحي. يا من وسعت قدرتك كل شيء. يا حنان يا منان. اجعل لنا من بعد عسر يسرا. افتح لنا الأبواب

التي استعصت على كل خلقك. وجد علينا بما استغلق عليهم من أسرارك العلية. هذه المخلوقة البديعة المزدهرة في القاع البعيد. وسط الملح الأجاج، هي بعض معجزاتك. وهذه الكائنات التي تحرسها أنت مسيرها. فاجعلها تتآلف ولا تتخالف. اجعل بيننا وبينها سدًّا. اغشها فلا تبصر. وصمها فلا تسمع. وأوقفها فلا تتحرك. اجعلها منّا. واجعلنا منها. شيء واحد ليس بين أجزائه فصل. موصول غير مقطوع. متجانس بلا نفور. متعانق بلا جفاء. يا من علّمت مخلوقاتك كل الأسماء، وكل الأفعال، وكل المعاني، وكل المدركات، وكل الموجودات. الحي والميت. الثابت والمتحرك. اجعلنا ندرك ما لا يمكننا إدراكه إلا بحولك وقوتك. ونعرف ما لا يبلغ أفهامنا إلا بإرادة منك. مكنّا من أن نطوي أسرار الزمان والمكان، ونصل إلى غايتنا مشمولين برعايتك وحمايتك. يا الله. يارب. يا قادر. يا لطيف. يا لطيف. يا لطيف. يا قيوم. يا قيوم. يا قيوم. يا عليم. يا عليم. يا عليم. يا واهب. يا واهب. يا واهب. آمين».

وما إن انتهينا من كلامنا هذا حتى انغلقت عينا الكائن الرهيب، لكن فمه ظل مفتوحا وأطلت من بين فكيه الحراب المسنونة، وكأنها مصوبة إلينا. فقالت لي صاحبتي:

ـ أعيدي التسابيح.

فأعدنا ما قلناه، فانغلق فمه، لكنه ظل واقفا على رجليه كأنه يتحفز للهجوم علينا. صرخت فيَّ مرة أخرى:

ـ أعيدي التسابيح.

قرأنا سويًّا، حرفا بحرف، وما إن وصلنا إلى «آمين» حتى وجدنا

أرجل الكائن قد تراخت ثم سقط على جنبيه، وصوت شخيره يهز الماء، ويصنع دوامات تصعد سريعا إلى السطح. تقدمنا في وجل، فألفينا كائنات على شاكلته في كل الاتجاهات، فسرت في نفسي كآبة، وأحسست أن التسابيح يجب أن تتكرر إلى الأبد. وما يدريني لعلها لا تنفع عند لحظة معينة، أو أمام كائن أضخم وأشرس. لكن صاحبتي ضحكت وقالت:

ـ لا تخافي فكل منها مسئول عن الناحية التي يوجه إليها عينيه وفمه المدجج بالقواطع الرهيبة. مأمور أن يظل مكانه لا يبرحه، ولا يتحرك في أي اتجاه. سندخل من الجهة التي حررناها، وعلى الله قصد السبيل.

وتقدمنا في ماء صاف كأنه نهار أبلج، حتى وصلنا إلى شواشي الشجرة، ولمسناها بأيدينا. أشارت إليَّ ثم راحت تغوص، فتبعتها إلى المجهول. دقائق اختلط فيها الخوف بالدهشة، حتى انتهينا إلى القاع. كنا معلقتين بالجذع الضخم، الذي يشغل حيزا عريضا من البحر الهائج. عند زاوية من الجذر وجدنا كائنا يجلس يقرأ في كتاب مسطور. وجهه وجه أنسي، وجسده يشبه جسد سمكة كبيرة. عليه حراشيف وقشور، وتنبت فيه رءوس خصر، كأنها حشائش برية يانعة. وقفنا أمامه فابتسم، ثم مد يده وقال:

ـ جئتما في الموعد.

فقالت له صاحبتي:

ـ خادم الملك يقرئك السلام، ويطلب منك مساعدتنا.

فابتسم وقال:

ـ وصلني الأمر قبل هبوطكما من الفضاء البعيد.

ثم نظر إليَّ وقال:

ـ كيف حال حبيبك الإنسي، الذي ينتظر دوره، أو ينتظره الدور. دور مرسوم، وحظ مقسوم، وقدر مكتوب في سطر طالما قرأته قبل آلاف السنين.

فقلت له بصوت متهدج:

ـ أأنت تعرفه؟

فقال مبتسما:

ـ منذ أن كان جنينا يدب في بطن أمه. جاء من الشمال إلى اليمين، مدفوعا برسالة تتهادى إليه.

ثم مد إليَّ يده بعود من خشب، وقال:

ـ مسيه ففيه البركة.

مسسته فانبعثت رائحة طيبة في أرجاء المكان. رائحة شممتها يوما، هنا في «خُص» عم حسين. قلت له:

ـ ليست غريبة على أنفي.

فقال:

ـ رائحة مباركة، تنزل من السماء إلى الأرض، ومنها إلى البحر، لا يشمها إلا من وُعد.

ثم قام فإذا بقدميه مثبتتين في جذر الشجرة، وعينيه لا تبرح أزاهيرها المتدلاة. وبوقفته هديل حمام ويمام، وغردت عصافير، وتلألأت أسماك لم أرها من قبل.

قلت في عجب:

ـ حمام ويمام وعصافير في قاع البحر؟

فابتسم وقال:

ـ قادر على كل شيء.

ابتسم ففاض من عينيه نور أضاء المكان، ومد الكتاب إليَّ. كان ثقيلا زلقا. فقال:

ـ افتحيه.

ففتحته فوجدت كلاما يشبه ما هو مكتوب في الورقة التي وجدناها في الخص. فقلت له:

ـ رأيت مثل هذه الحروف من قبل.

فضحك وقال:

ـ نحن نرددها كالببغاوات، لكن أسرارها هناك عند البشر.

ـ البشر؟

ـ نعم البشر، من وهبهم الله العقل والقلب.

ثم تاه برهة وقال:

ـ خذي ما هو مسطور في تلك الصفحة، وضعيه إلى جانب ما هو

موجود لدى الإنسي الذي تعشقينه، وليذهب هو إلى حيث يجد من يضع الحروف على الحروف، والكلام على الكلام، والسطور على السطور، والورقة على أختها، ليعرف كل شيء.

فسألته والحيرة تأكلني:

ـ إلى أي مكان سيذهب؟

فقال:

ـ إلى المحروسة.

فصمتُّ برهة وسألته مرة أخرى:

ـ في أي بقعة؟ وعند أي شخص؟

فضحك وقال:

ـ علم الجان يقف عند هذه، ولو كنا نعرف ما سرنا في هذا الطريق.

وشعرت أن هناك أمرا يدبر هناك في الفضاء البعيد، لا أعلم عنه شيئا، لكن لم يكن هناك بد من إكمال الرحلة. وقفز إلى ذهني فجأة قول الخادم الأكبر لملكنا لي ذات يوم:

ـ بقاؤك مع من تحبين مرهون بمساعدتنا على أن نصل إلى ما نريد.

(٩)

لما جاء ذكر المحروسة، حلت برأسي الليالي العصيبة التي قضيتها هاربا من عسس السلطان وعسكره، فلذت بصمت حزين، وراحت هي تحكي عما سمعته من صديقتها:

قابلتني فوق سطح القمر، كان بدرا كما يراه سكان الأرض، وكان كوكبكم يلوح من بعيد كرة معتمة، نظرت إليها وقلت لها:

- هناك في بقعة ما على سطح تلك الكرة الصغيرة توجد شجرة عملاقة لا نعرف مكانها.

فضحكت وقالت:

- وأخرى في قاع البحر.

- على الأقل هذه رأيناها من بعيد أما شجرة الأرض فلم يظهر لنا منها شيء.

- قيل لي ابتعدي وصاحبتك عن شجرة البحر، فملكنا العظيم لا يريد أحدًا من الجان أن يقترب منها، والحراس الشداد الغلاظ

الذين رأيناهم يقفون أمامها تابعون له، يأتمرون بأمر قائد حرسه. وقد لمحونا، ونقلوا الأمر إلى الملك فغضب، وأرسل في استدعاء أهلنا، وتلقوا توبيخًا وتحذيرًا شديدًا.

- ظننت أننا سنجد في البحر ما يكشف لنا سر شجرة الأرض.

- أسرار شجرة البحر كلها عند ملكنا، امتلكها بعد جهد طويل، انكشفت فيه طوايا، وطويت مسافات، وزهقت أنفس، وانفتحت أبواب كانت موصدة. باتت للجن الآن شجرتان، في الجو والبحر، أما شجرة البر، فكثير من أسرارها عند بني الإنسان.

- وصندوق الأسرار؟

- ليس فيه عن شجرة الأرض سوى القليل.. لا يزال الجزء الأكبر فيها مجهولًا لملكنا، لكنه لا ييأس، يريد أن يمتلك الشجرات الثلاث.

- طماع كعادته.

- بل حريص على مصالح قومه.

- ألا تكفيه شجرتان.

- لا يكفي أبدًا.

- يبدو أنك أنت أيضا مقتنعة بهذا الأمر.

- طبعا، مصلحتنا في هذا.

- يريدون أن يطلقوا صراعا ضاريا في الكون بين الجن والإنس.

ـ حبك لإنسي أنساك أهلك.

ـ أنا أروم السلام.

ـ أنت لا تعرفين ما سيجري... ملكنا يعرف ولذا يسعى لتعزيز قوته من الآن.

ـ يعرف ماذا؟

ـ البشر سيغزون الفضاء بعد قرون، ويبحثون عن شجرتنا، وسيهبطون إلى قاع البحار والمحيطات العميقة، ويصلون إلى الشجرة الثانية، أما شجرتهم فأمرها سيكون يسيرًا عليهم.

ـ هذه أوهام.

ـ بل حقائق في رأس قادتنا وسادتنا.

ثم صمتت برهة وقالت لي:

ـ ملكنا يعوّل عليك كثيرا يا نهار.

ـ أنا؟!

ـ الورقة التي عثر عليها عاكف في خُص الحاج حسين هي نصف الطريق إلى شجرة الأرض.

ـ والنصف الآخر؟

ـ يقال إنه عند رجل في المحروسة، شيخ طاعن في السن، حصنها ضد السرقة والفناء، ولا يستطيع أحد أن يطلع عليها مهما كان

إلا بإذنه، وهو لا يأذن لأحد، لا إنس ولا جان. هكذا يُقال، لكن لا أحد لديه الحقيقة كاملة.

فابتسمت وقلت:

ـ أخبرني ذات مرة عبد الكريم أنه سمع أن الحاج حسين كان يقول إن السر مدفون تحت جدار قصر رجل مهيب.

ـ قلت شيخا طاعنا يقطن في دار متداعية، وليس قصرًا منيفًا... هكذا يُنقل عن الخدم الذين يتبعون ملكنا.

فقلت لها في غضب:

ـ ملككم يريد أن يستغل حبي لواحدة من رعاياه، ويسخرني ليحصل على ما يعجز عنه، فليذهب إلى الدار المتداعية أو القصر المنيف ويبحث عمّا يريد.

فرفعت عينيها في عيني وقالت:

ـ صاحبتي قالت لي إن بقائي حية متوقف على نجاحي في إقناعك بالسعي وراء هذه الورقة حتى تعثر عليها... مكتوب في كتب قديمة أن من سيعثر عليها إنسي وليس جنيًّا.

تاهت في شرود طويل ثم قالت:

ـ العثور على الورقة سيقربنا من الشجرة المباركة، لكنه ليس الخطوة الأخيرة.

ثم صمتت برهة وواصلت:

ـ ألم أقل من قبل إنني أشعر أن شيئا ما يسيرني إلى حيث ما يريد؟

وقمت من مكاني، وهي تتبعني، وخرجت من الحديقة صامتا، لا أعرف ما أقول، حتى وصلنا إلى الخص، فألقيت جسدي على الحصيرة، ورفعت عيني إلى بقعة السماء التي أطلت من كوة صغيرة وقلت:

- إلهي لا تدعني وحيدا.

* * *

شردت منها في أيام قديمة، حين كنت أدب مرحا على بلاط الأزهر، في يدي كتبي، وفي فمي قرآن وأدعية مأثورة، وقلبي منشرح للعلم. كان الشيخ بهي الدين القناوي يقول لي: «ستكون عالما عظيما»، وكان ينصحني بعيدا عن بقية التلاميذ بقراءة كل ما تقع عليه عيني، لكن بعقل ابن رشد، ونفس ابن حزم، وقلب ابن حنبل، وفهم ابن خلدون.

وتبعته راضيا، قرأت الكثير، وملت إلى العقل ميلا كبيرا، وقست عليه كل ما كان يمر أمامي من مسائل، حتى ذاع صيتي بين زملائي، فأطلقوا عليَّ «شجيرة المعرفة»، وسعيت لأن تصبح شجرة كاملة سامقة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، لكن خاب مسعاي، ووجدت نفسي أبحث عن شجرة أخرى، لا أدري إن كانت حقيقة أم خرافة. نعم رأيت من بعيد شجرتهم في الفضاء، لكن ما يدريني إن كانت شجرة بالفعل. ألا يمكن أن يكون كل هذا مجرد تهيؤ، وهم، ضلال كبير. ألا يمكن أن يكون مرضًا نفسيًّا عضالًا شطرني إلى: نصفين، عالمين، حقيقتين، إنسانين، أو يكون حلم ليل، أو كابوسا مخيفا.

وعدت أضع كلام شيخي في الميزان وأحيله إلى ما جرى في حياتي فلم أجد نفسي قد أخلصت للكثير منه، بل ربما أهملته جميعا. ويكفي

أنني لم أحقق أمله فيَّ، وتوقعاته لي بمستقبل كبير في دنيا العلم الرحيبة. كان ينظر في عيني ويقول:

- ستكون حجة في الفقه والمعرفة.

لكن الفرصة لم تتح أمامي كاملة لأتبحر في علوم الدين والدنيا. خطفتني السياسة من العلم، حين فتح لي صديقي محمد القشيري بابا وسيعا بينهما. كان يقول دائمًا إن العلم من دون عمل لا قيمة له، وأكبر عمل يقوم به العالم هو مقاومة الباطل والظلم ونصرة الحق والعدل. وكان يقضي ليالي طويلة يتحدث عن خير مصر الذي ينهبه السلطان والأمراء والحاشية الكبيرة، ويستعيد ما يعرفه عنهم ويقول:

- لا شرعية لهم، ولا خلاق لهم.

وفي ليلة لا أنساها وضعت يدي في يده مبايعا على المقاومة، ثم اكتشفت من بعد أن الطريق إلى مناهضة السلطة يمر بالسلطة نفسها. أمراء منقسمون على أنفسهم، بينهم ضغائن وأحقاد وصراعات لا نهاية لها. حاول القشيري أن يتصل بالتجار وشيوخ الطوائف الحرفية وعلماء الأزهر، لكن أحدًا من هؤلاء لم يجرؤ على الاتفاق معه في أي شيء. عاد ذات عصر وقال لي:

- ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

فرفعت هامتي إليه مستفهما، فقال:

- لن يقضي على الحكام الظالمين سوى حكام أقرب للعدل.

فقلت له:

- بل الناس المشتاقة إلى العدل والحرية.

وذات ليلة فاتحنا شيخنا القناوي فيما انتهينا إليه فشد على يدينا، وقال:

- هذا ما أراه من زمن بعيد.

ثم نهض وضرب الأرض بعكازه، وقادنا فتبعناه بإرادة كنا نعتقد أنها لن تتراخى أبدًا حتى نسقط السلطان الجائر.

لكن الناس لم تأت إلينا، وبعض من كان معنا انفضوا من حولنا، ودارت الدوائر، وانسقنا إلى طريق مظلم، وتحولنا بمرور الأيام إلى أدوات ضعيفة في أيد باطشة لا ترحم، فتاه العلم مني في زحمة الحسابات والهواجس والمخاوف، وانتهيت إلى هروب طويل. فررت من المحروسة إلى الصعيد، ولم أكن أعلم أنني سأفر من الأرض إلى الفضاء، أيام قضيتها في حسباني فاتضح أنها ثلاثون سنة أو يزيد، ذهب فيها السلطان الجائر، وجاء سلطان آخر، جائر أيضا، لكنه لا يعرفني، ولا يطلق عسسه للبحث عني، ويقول لهم بصرامة شديدة:

- أريده حيا أو ميتا.

وظننت أن حكايتي مع السلاطين قد انطوت، وصارت ذكرى مؤلمة أهرب من استحضارها دوما، حتى جاءني في اليوم التالي مرسال من حاكم إقليم منفلوط يستدعيني إليه، فطلبت منه أن يذهب ويعود في آخر النهار، فهز رأسه مطيعا. ونشبت مخالب القلق في صدري، ودق قلبي دقات عنيفة، ونظرت إلى نهار أستعين بها، فابتسمت وقالت:

- إنها البداية التي نرومها.

وضايقني ردها، فصرخت فيها غاضبا:

- لا يأتي من السلاطين خير.

فضحكت وقالت:

- هذه المرة قد يخيب ظنك.

- أجنية، وتقول قد؟!!

- جميع الخلق يقولونها.

ونظرت في عينيها لعلي أقرأ شيئا، لكنها لم تمهلني أستنتج شيئا، وقالت:

- وصلته كراماتك، وسيستعين بك في أمر مهم.

- لا بد أنه يتعلق بالكنوز، فالحكام لم يكفهم نهب ما على الأرض، ويبحثون عمّا تحتها.

- الكنوز مهمة لدى الجميع، لكنها لا تساوي عند الحاكم شيئا مقابل شفاء ابنته.

ثم صمتت برهة وقالت:

- مرض عجز أمامه الحكماء.

ضحكتُ وقلت:

- والآن جاء دور الحكيم الأكبر.

فغمزت بعينها وقالت:

ـ بل جاء دور العبد الصالح.

ونظرت نحو القرية وقلت بصوت مسموع:

ـ سامحك الله يا عبد الكريم.

ووضعت نهار يدها على كتفي وقالت:

ـ تلومه وهو الذي فتح لك الطريق لتنال صيتا لم تكن تحلم به.

ضحكتُ وقلت:

ـ والآن جاء الدور لأدفع الثمن.

ضغطت على كتفي وقالت:

ـ لا تخف، سأكون معك، وإن أعيتنا الحيلة سأعود إلى قومي، وهناك سيجوبون الأرض بحثا عن دواء لابنة الحاكم، وعندها ستكون لك الحظوة لديه، وقد يقطع عليك أملاكا أو مكافأة ضخمة، وقد يجعلك واعظا في أهل المدينة، فتعود إلى علوم الدين والدنيا.

وعاد المرسال ومعه جنديان وحصانان، وقفوا أمام الخص، وقال:

ـ اركب يا مولانا، والجنديان سيسيران خلفنا.

فقلت له:

ـ المسافة إلى قصر الحاكم طويلة ستعيي من يقطعها مشيا.

فضحك وقال:

ـ سنمشي إلى النهر فقط، وهناك تنتظرنا سفينة صغيرة.

فقلت له:

ـ لماذا إذن اصطحبت معك حصانين.

ـ هذه أوامر الحاكم.

فهززت رأسي وقلت:

ـ سأبلغه شكري على كرمه الغزير، لكن أفضل أن نمشي سويًّا، والحصانان وراءنا.

فقال المرسال:

ـ أمرك يا مولانا، نحن مأمورون في كل الأحوال أن نفعل ما تريد.

وسرنا إلى النهر، وهناك وجدنا سفينة جديدة في انتظارنا، ركبناها وراحت تمخر بنا الماء صوب الجنوب.

نظرت إلى الشاطئ الآخر من النهر فلم أجد سوى مساحة صغيرة نبت فيها حشائش برية، وفوقها يمتد الجبل، ولا تبدو بينهما أي علامة على وجود الشجرة المباركة. وتابع المرسال المكان الذي تذهب إليه عيني، وقال:

ـ هناك سجد الحاج حسين قبل سنوات بعيدة.

فرفعت عيني إليه مندهشا وقلت:

ـ أتعرفه؟

ـ أنا من قرية مجاورة، وحكايته نتداولها في ساعات السمر، وكثير منا أضافوا إليها من أذهانهم حتى صارت أسطورة خالدة.

فوجدت فرصة سانحة كي أسأله عن الشجرة المباركة، وعما يعرفه عنها، فقلت له:

ـ كان الشيخ يبحث عن أسطورة أكبر.

فنظر في عيني مليا وقال:

ـ ليست أسطورة، إنها موجودة لكن لا نراها.

فاستجمعت أفكاري سريعا وقلت:

ـ نعم، لكنها حقيقة خضعت للأقاويل، كعادة البشر، حتى كادت أن تصير أسطورة، بل ربما صارت كذلك، ونجري نحن وراء السراب.

ثم تابعت بعد توقف قصير لأصحح مساري:

ـ هي ليست خرافة أبدًا، لكن نسج الناس حولها الخرافات.

ارتسمت على وجه الرجل علامة الارتياح وقال:

ـ الكون مليء بالأسرار.

وصمت برهة وقال:

ـ عنيتُ أنا بحكاية الشجرة سنوات من عمري، وبحثت في الكتب القديمة، فوجدت بعض الإشارات الغامضة، التي تحتاج إلى عقل ذكي وبصيرة، حتى يمكن تبيانها.

وأدركت من كلامه أنه أكبر من مجرد مرسال، فقلت له:

ـ هل كلفك الحاكم بهذه المهمة؟

ـ نعم.

وأفزعني رده، فقلت له:

ـ ولِمَ يهتم الحاكم بهذا الأمر؟

فقال:

ـ حكيم أكد له أن دواء ابنته هو قطرات من دماء شجرة مباركة لا يراها الناس. ولما طلب من الحكيم أن يوضح مقولته، لم يسعفه بشيء سوى جملة واحدة قال له فيها:

ـ هنا يقف علمي عاجزا، ابحث عن رجل مهتم بمطالعة الكتب القديمة.

وبحث الحاكم فاهتدى إليَّ، وبذلت كل ما أستطيع من جهد، لكن أعيتني الحيل، ولم تسعفني خزانة كتبي المليئة بمخطوطات نادرة متنوعة. كل شيء عندي، أدب من شعر ونثر، وكتب في السحر والفقه والتفسير، وكتب عن تاريخ الفراعنة وطقوسهم.

ثم صمت قليلا ونظر إليَّ وقال:

ـ كنت أشعر دوما أن هناك ما هو أبعد من دفتي كتاب، ولم أكن أملك القدر من الإخلاص الذي يتيح لصاحبه أن يرى ببصيرته ما يعجزه عن رؤيته الأبصار.

فهمت ما يقصد فقلت:

ـ زمن المعجزات قد ولى يا عزيزي.

فعاجلني برد أربكني كثيرا:

ـ انتهت المعجزات بانتهاء عصر الأنبياء، لكن الكرامات لم تنته.

ـ كرامات.. أنت حسن الظن بالناس.

ـ عندما يستطيع رجل أن ينزل مائدة من السماء فلا تشكيك في كراماته.. إنها نعمة لم تؤت إلا للمسيح عليه السلام.

فارتجف قلبي وقلت:

ـ لا تبالغ يا سيدي، ولا تتبع أناسا يصنعون الأساطير.

ـ لكن حكاياتك ملأت البر كله، حتى وصلت إلى الحاكم. ومن يعلم فربما تصل إلى القصر الكبير، وعندها قد تصير مستشارا للسلطان أو طبيبا له، خاصة إن شفيت بنت الحاكم على يديك.

وتملكني شعور بأن ألقي بنفسي من السفينة، وأسبح إلى الشاطئ الآخر، وأصعد الجبل، وأنضم إلى المطاريد، أو ألجأ إلى كهف يأويني حتى آخر عمري. لكنني سمعت همس نهار بجواري تقول:

ـ لا تجبن، فما تخاف منه لن تجد ما هو أحسن منه.

فملت إليها وقلت:

ـ طريق جديد، ودنيا مجهولة.

والتفت الجنديان إليَّ، فأشار لهما صاحب الكتب القديمة، التي لم أكن قد سألته عن اسمه، بأن يبتعدا، ثم ذهب خلفهما، وسمعته يقول لهما:

ـ أهل الخطوة يتصلون بعوالم لا نراها.

لكنني كنت طيلة الوقت أشكك في نية هذا الرجل حيالي. كان لسانه ينطلق بكلام وفي عينيه يرتسم كلام آخر. وشعرت أنه مكره على القدوم إليَّ، لكنه كان طيلة الوقت يعاملني بأدب وإكبار. وفوجئت به يقول لي:

ـ قبل أربعين عاما كان شيخي بهي الدين القناوي يوجهني إلى قراءة الليث بن سعد ويؤكد لي أنه لا يقل مكانة عن الفقهاء الأربعة، مالك وأبي حنيفة وابن حنبل والشافعي، لكنني كنت مولعا بعالم الأرواح، ودلالات الأرقام، وفتنة السحر، فانحرفت عن الطريق، وصرت إنسانا مختلفا، وليس الفقيه العظيم الذي كان يتوقعه القناوي رحمة الله عليه.

فنظرت إليه وقلت:

ـ متى فارقنا؟

وأتاني صوت نهار سريعا:

ـ الرجل حي يرزق، لكنه قعيد وطاعن في السن.

فنظرت إلى الرجل مرة ثانية وقلت:

ـ أقصد متى كف عن التدريس في الأزهر الشريف؟

فضحك الرجل مرة أخرى عن أسنان مثرمة وقال:

ـ لا بد أن صاحب الكرامات يعلم.

فقلت له بصوت استحضرت فيه أقصى حد من الثقة:

ـ فوق كل ذي علم عليم.

فخجل وقال:

ـ هجر فقهينا القناوي التدريس قبل عشر سنين.

ثم صمت برهة وسألني:

ـ هل التقيت القناوي من قبل؟

فقلت على الفور:

ـ سمعت عنه، وأدركني بعض علمه من تلاميذ له، وكتب منسوبة إليه.

فتاه لحظة في الأفق، ثم عاد ووضع عينيه في عيني وقال:

ـ عذبوه في آخر أيامه بالأزهر، حتى صار قعيدا.

ـ عذبوه؟!!

ـ ليس هناك أحد فوق الإهانة عند الأمراء.

ـ ولِمَ عذبوه؟

ـ اتهموه بأنه الأب الروحي لجماعة رافضة للحكم. كان العسس قد اكتشفوا بعض أعضائها فسعى الجند إلى القبض عليهم، فتمكنوا من ذلك، لكن قلة هربت وتفرقت في البلاد.

ثم صمت برهة، فالتقطت أنفاسي المبهورة، وتهت في نفسي، وحلت لحظات الخوف كأن السنين لم تمر، والسلطان لم يتغير، لكنني فجأة أصبحت أكثر خوفا حين قال لي:

ـ حاكم منفلوط هو من اكتشف اتصال القناوي بالرافضة، وكافأه السلطان بترفيع عال، فتح له الباب ليصير على الكرسي الذي يجلس عليه الآن.

ـ يا له من رجل ذكي!

فزفر في تألم واضح وقال:

ـ لكن لعنة القناوي حلت به.

ـ كيف؟

ـ مرضت ابنته.

ـ هذا قدر الله.

فهز رأسه مؤمنا على كلامي، لكنه عاد يقول:

ـ الناس تقول إن القناوي رفع يديه إلى السماء قبيل صلاة الجمعة التي أعقبت خروجه من السجن راجيا من الله أن يعاقب من ظلمه.

فوجدت فرجة ضيقة قد فتحت أمام تحسين حالي وطمأنة نفسي فقلت له:

ـ وهل اتضح لهم أن القناوي مظلوم؟

ـ توسط له شيخ مشايخ الطرق الصوفية لدى السلطان الجديد فأفرج عنه، واعتبره مظلومًا، لكن الحقيقة علمها عند ربي.

غمغمت غاضبا وقلت:

ـ حرموا الآلاف من أن يستفيدوا من علم الرجل.

فضحك وقال:

ـ أتدري ما طلبه السلطان من القناوي بعد خروجه من السجن؟

ـ أن يلزم داره.

ـ بل يساعد السحرة والمتصوفة الذين كانوا منهمكين منذ شهور لتحديد مكان الشجرة المباركة. لكن القناوي أبى.

فنظرت إلى الجبل وقلت:

ـ هل تمكنوا من تحديد مكانها؟

ـ تقريبا، وجاء السلطان راكبا النهر، ونزل في المكان الذي حددوه له، ولم يجد شيئا. لكنهم طلبوا منه أن يضرب خيمته هنا لأيام، وغرق السحرة في إطلاق البخور، وذاب المتصوفة في قراءة الأوراد، ومرت سبعة أيام، قلق فيها السلطان على عرشه، فعاد سريعا، والغضب يكاد أن يعميه، وتوعدهم جميعا بالعقاب.

فجأة توقف الرجل عن الكلام، وكأن شيئا قد ربط لسانه. ومرت دقائق عاد بعدها يقول وهو يضحك:

ـ أحك لك عن أشياء تعرفها.

فرفعت عيني إليه في دهشة مخلوطة بظنون غير طيبة، وقلت مستنكرا:

ـ أعرفها؟

فقال:

ـ ما وصلنا عن كراماتك يا مولانا يجعلني مطمئنا إلى ما أقول.

ـ وما وصلكم عني في هذه الناحية؟

ـ يقول الناس إن الأحداث التي جرت تأتيك طوعًا حين تريد أن تلم بها، وأنك تكشف الكثير مما يدور في أذهان من يحيطون بك.

ابتسمت صامتا وقلت في نفسي: «هكذا يصنع الناس أساطيرهم».

وجاءني صوت نهار:

ـ لا تسخر من الأساطير التي أحيتك من عدم.

ملت إليها قائلا:

ـ أنت لا تدرين شيئا عن النار التي تأكلني.

ـ دائمًا أنت قلق متشائم، لا ترى في الحياة غير وجهها المتجهم.

ـ من لا يحزن يمت قلبه.

ـ ومن يفرح يتقو على الأيام.

ـ كثرة الضحك تميت القلب.

ـ وكثرة الحزن تقتل النفس.

ـ لا إفراط ولا تفريط.

ـ عدت إلى تعاليم الشيخ القناوي.

ـ يا ليتني حفظتها قولا وأخلصت لها فعلا.

نظرت حولي فوجدت رجل الكتب القديمة والجنديين صامتين وأفواههم مفتوحة في عجب، وقال الجندي:

- مولانا يكلم من لا نراهم.

فلكزه الرجل وقال:

- إنه يطلق حكما عظيمة، اسمعوها وعوها، فلن تتاح لكم هذه الفرصة مرة أخرى. ثم أخذ يردد «يا ليتنا جميعا نحفظ قولا ونخلص فعلا». ونظر إليَّ وقال:

- آفتنا يا مولانا الفصام بين ما نقول وما نفعل، إنه لمقت كبير، ألم يقل الله سبحانه وتعالى في محكم آياته: «كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون».

فهززت رأسي مؤمنا على كلامه وقلت:

- كلنا مصابون بهذا الداء اللعين، إلا من رحم ربي.

وتذكرت الفتاة التي تسير بنا السفينة إليها وقلت:

- إلى أي حد وصلت في كتبك القديمة حول مرض ابنة الحاكم.

فرفع رأسه وقال:

- تسألني يا مولانا عما تعرف.

فذكرته بقولي السابق: «فوق كل ذي علم عليم»، ووضعت يدي على كتفه وقلت له:

- حتى نبدأ من حيث انتهيت.

فامتلأت عيناه بالفرح وقال:

- هل سأشاركك هذه المهمة؟

- نعم.

- إنه لشرف كبير.

- بل حق لك، أنت تكمل ما بدأت، وواجب عليَّ أن أستفيد مما لديك.

- هذا تواضع منك.

- ليس الأمر تواضعا، بل إن المنطق يوجب ذلك.

- ظني أنك مستكف.

- لا يبدأ من الصفر إلا أحمق، هكذا علمنا شيخنا القناوي.

- لكنني لم أبتعد كثيرا عن الصفر، بل عدت إليه بعد تجارب وحيل.

- لا يضيع جهد هباء، وما توصلت إليه مهما صغر في نظرك فلا يستقيم لعالم أن يجهله أو يهمله.

- كلامك يذكرني بما قاله فلاسفة اليونان القدامى.

فضحكت وقلت له:

- كان الشيخ القناوي يطالبنا بأن نقرأهم بوعي وتدبر، لأن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى بها، لكنه كثيرا ما اتهم أرسطو بالذات أنه لص.

- أنا شخصيا عنيت بهذا الاتهام، فوجدت إشارات تدل على أنه قد سطا على كتب عديدة من مكتبة الإسكندرية قبل أن يحرقها الرومان كان ألفها فلاسفة مصريون قدماء لكن من يدري لعل الأدلة تتراكم

بمرور الأيام وتصبح دامغة.

وسمعت نهار تهمس في أذني:

ـ سيأتي بعد قرون من يؤكد الحقيقة.

نقلت الجملة إلى رجل الكتب القديمة، وأضفت إليها:

ـ الدنيا مليئة بالأكاذيب.

فابتسم وقال:

ـ ما قيل أضخم بكثير مما كتب، وبعض الأقوال استقرت بعد قرون من إطلاقها في سطور مكتوبة، ولا يوجد دليل قاطع على أن من نسبت إليهم قد قالوها.

ثم نفخ متوجعا وقال:

ـ من يدري فقد يظهر بعد أن نموت بقرون من يثبت أن الشجرة المباركة وهم كبير عشش في أذهان الكثيرين على مدار الأيام.

وهنا سمعت نهار تقول:

ـ هي حقيقة لا تقبل الجدل.

فقلت له:

ـ لديّ يقين راسخ أن الشجرة هناك، قريبة من المكان الذي ركبنا عنده هذه السفينة.. سنصل إليها يوما ما.

(١٠)

في صباح اليوم التالي لاح القصر من بعيد في حضن الماء والخضرة كخيال رائع، وراحت الباخرة ترسو على مهل، وتقدم عسس كثير إلينا وفتحوا الطريق أمامنا حتى ابتلعنا البهو الكبير

وجدنا الحاكم في انتظارنا. رحب بنا وأخذنا إلى بهو وسيع، وكنا قد فارقنا الضحى بقليل. نظر في وجهي مليا، ثم نادى:

ـ أحضروا الإفطار.

فقلت له: إفطاري معي.

وأخرجت من مخلاة صغيرة معلقة في كتفي شطيرة خبز يابسة، وثلاث تمرات.

فضحك الحاكم وقال:

ـ لتأكل طعامنا ولو مرة يا مولانا.

ولاح سماط عليه ما لذ وطاب. سبحت جموعه من المكوس الباهظة التي أثقل بها كاهل المزارعين والرعاة المساكين.

فقلت له:

ـ مأمور ألا آكل إلا مما معي.

احتار لحظة لكنني عاجلته:

ـ إن أردت أن تكرمني فليوزع الطعام على الفقراء.

فقال على الفور:

ـ ارفعوا السماط، ونادوا الناس ليأكلوا.

قلت له مبتسما:

ـ ليعد كل شيء إلى أصله.

ففهم ما أريد، فقال:

ـ جمعناه بالحلال، ولم نأخذ سوى ما هو حق لنا.

تذكرت أحاديث الناس عن ظلمه البين، وقلت:

ـ أين ابنتك يا سيدي؟

فأشار إلى الطابق العلوي، وقال:

ـ ترقد هناك مريضة لا تبرح مكانها.

وصعدنا الدرج، فوجدتها تئن على فراش وثير. وجه أصفر كليمونة ناضجة، وجسد منهك كأن جبلا قد انقض عليه. اقتربت منها ووضعت يدي على رأسها، وقرأت من القرآن في سرّي آية: «وإذا مرضت فهو يشفين». كررتها ثلاث مرات، ثم مددت يدي إلى ذراعها ورحت أدلكه في همة. وأخذت عنقها بين كفيّ، وحركته

يمنة ويسرة، فزال عنه بعض تيبسه، ثم رحت أضرب ظهرها بكف يدي ضربا خفيفا. فعلت كل هذا وأنا أتلو في سرّي تسابيح كانت نهار تمليها عليّ بلا انقطاع. فلما انتهيت مددت يدي إليها وقلت لها:

ـ انهضي.

نظرت إليّ بعينين كسيرتين، وكادت أن تخفي ذراعيها تحت الغطاء. لكن يدي بقيت ممدودة، وامتلأت عيني بامتنان وتشجيع، فسحبت ذراعها اليمنى ومدتها إليّ. فأخذتها وسحبتها برفق حتى جلست. وعندها صرخ والدها:

ـ الله أكبر. الله أكبر.

وامتلأت عجبا لفرحته، لكن نهار أفهمتني أن البنت راقدة على ظهرها منذ سنوات، ولم تجلس ولو مرة واحدة، فأيقنت قيمة ما جرى، وقلت للرجل:

ـ يأتي المرض بغتة، ويذهب رويدا.

فقال مبتسما:

ـ المهم أننا بدأنا أولى خطوات الشفاء.

ووجدتني أربت على كتفه، وأقول:

ـ سنكمل الطريق مهما كلفنا ذلك من عناء.

فأشار إلى بهو القصر، وقال:

ـ كل ما لديّ ملك يمينك.

ضحكت وقلت له:

ـ متاع زائل لا يخصنا منه شيء.

فوجم ونظر إلى الطبيب، فقال لي:

ـ فتحنا كتب الأسرار، فقيل لنا إن الدواء يسري في عروق شجرة عظيمة.

قلت له:

ـ سمعت منك هذا الكلام من قبل، ولا حيلة لدينا الآن.

وهنا تدخل الحاكم قائلا:

ـ معنا أول الخيط يا مولانا، والبقية في يدكم.

وسمعت نهار تقول لي على الفور:

ـ سله عما انتهوا إليه.

فهمست في أذنها:

ـ لا أدري سر لهفتك على هذا؟

فضحكت وقالت:

ـ ألست معي، نسعى وراء هذه الحكاية منذ زمن.

وطردت ظنونا حلت برأسي بغتة، وقلت لها:

ـ هذه أسرار يعجز عن كشفها الجان، وتطالبين إنسيًّا بأن يأتي بها.

ضغطت على يدي وقالت:

ـ قلت لك من قبل إن لكم ما ليس لنا.

ضربت كفا بكف، وقلت لها، والحاكم وصاحبه يتابعان في صمت:

ـ العقل مرة أخرى. هاهو عاجز كسيح، مطمور تحت أكداس من الأساطير.

فوضعت يدها على رأسي وقالت:

ـ لا تتعجل، دوره قادم، ومعه قلبك الذي سيسع الدنيا بأسرها.

ووضعت يدي على كتف الطبيب، وقلت له:

ـ أريد التحدث معك على انفراد.

وصحبني إلى ردهة جانبية، وجلسنا متقابلين. كانت عيناه مملوءتين بالأسئلة، وكان عقلي مفعما بالحيرة.

قلت من دون مواربة:

ـ دواء مريضتكم في المحروسة.

فقال متهللا:

ـ دلنا على مكان العطار الذي تقصده، ولتبحر سفينة من الآن إلى هناك.

ـ ليس عطارا.

ـ أطبيب هو؟

ـ وليس طبيبا.

ـ من يكون إذن.

ـ ورقة مدفونة تحت جدار بيت أحد الأمراء.

فتملكه فزع، وقال:

ـ طريقٌ من يذهب إليه قد لا يعود.

ثم تنحنح وقال:

ـ أي ورقة تلك؟

ـ ورقة بها سطور قليلة، نضعها على سطور في ورقة لديَّ. الحرف فوق الحرف، والكلمة فوق الكلمة، فإن تطابقتا، فتح الله علينا بما يبحث الجميع عنه.

فقال مندهشا:

ـ إذن عدنا إلى الشجرة.

ـ ليس غيرها.

فقال:

ـ هذا أمر لا ينظره سوى السلطان.

وأخبرناه فسأل:

ـ أي أمير تقصد؟

فقالت لي نهار:

ـ قصره موصوف في كتاب لدى ملك الجان.

فقلت لها:

ـ لماذا لا يكمل ملككم معروفه، ويأت إلينا بها.

فقالت:

ـ ألم أقل لك، علمنا يقف عند هذا الحد.

وسمعني الحاكم، وكأنني أكلم نفسي فأعاد سؤاله:

ـ أي أمير تقصد؟

فقلت له:

ـ ليس لديّ جواب الآن. في الغد قد أصل إلى شيء.

فغمزتني نهار وقالت:

ـ قل له: قصر الأمير شهاب الدين.

فأخبرته أن الجواب قد أتى الآن، ثم نطقت بالاسم المقصود، فحك ذقنه بأظافره وقال:

ـ وقعت الواقعة.

وأمن الطبيب على كلامه:

ـ هذا رجل نافذ، فارس مغوار، وعنيد، ومفرط في أنانيته. لن يفتح لنا باب قصره، وإن فتحه، فلن يسمح لنا بالحفر تحت جدرانه. هذا أمر مستحيل.

فقالت لي نهار:

ـ ليشتري والي منفلوط قصر الأمير بأي ثمن يريده.

فأخبرتها بما ذكرته لي، فقال الحاكم:

ـ هذا قصر أهداه إليه السلطان، ولن يفرط فيه ولو بكل كنوز الأرض.

فقلت له على الفور:

ـ ليكن الحديث مع السلطان.

ـ هذه مخاطرة، قد يكون ثمنها عنقي.

ـ أليس السلطان يسعى وراء الشجرة؟

ـ نعم.

ـ إذن لو أخبرناه بمقصدنا فلا أشك في مساعدته لنا.

ـ ربما.

ـ بل حتما سيفعل. لقد جاء إلى هنا قبل سنتين بحثا عن الشجرة المباركة، وعاد كسيف البال، فإن لاحت له فرصة فلن يضيعها.

فنظر الوالي إلى طبيبه، وقال:

ـ هذه مسألة تحتاج إلى تخطيط.

ثم أطرق لحظة، ونظر إليَّ وقال:

ـ لن يصل إلى المراد سواك يا مولانا.

فاجتاحتني أعاصير الخوف، وقلت له:

ـ مهمة ليست لي على الإطلاق.

ـ لِمَ؟

فلم أدر ما أقول، لكن نهار طلبت مني أن أخبره بالحقيقة، من دون تردد.

فهمست لها:

ـ ولاؤه له، وخوفه منه، قد يدفعانه إلى تسليم رقبتي إلى السلطان.

فقالت:

ـ حبه لابنته أكبر من كل شيء، وأي شخص، حتى ولو كان السلطان نفسه.

فملت على الحاكم وقلت له:

ـ ماض قديم لا بد من تصفيته قبل أي خطوة جديدة.

فأصاخ السمع وقال باسما:

ـ كلي آذان مصغية.

وسردت عليه حكايتي التي طردتني إلى هنا وأنا أغالب ارتجافة سرت في جسدي، وكأن الزمن لم يتغير، وكأنني قد خرجت من المحروسة قبل ساعات، أجرى نحو الجنوب المنسي، أبحث عن مكان أعزل وأناس لا يعرفون حكايتي وزملائي الأزهريين مع السلطان الغاشم.

وتابعني الحاكم صامتا، وبعض ارتجافي انتقل إليه، وحلت بوجهه كآبة مفضوحة. ولما انتهيت قال لي:

- أأنت؟

فرفعت رأسي إليه وقلت:

- أعندك خبر بما جرى؟

فضحك وقال:

- بحثنا عنك سنين، وأعيتنا الحيل. وصفوك لنا، وأعطونا الاسم، وسرنا نسأل الناس فلم نعثر لك على أثر. اليوم أنت في بيتي، أمامي، أستطيع أن أمسك. قد يساورني الشيطان بأن أقبض عليك، أقتلك، لكنني لن أفعل هذا أبدًا. جئتني ضيفا، بل طبيبا لابنتي، وهي عندي أغلى من كل شيء، حتى من عرشي الصغير. وجئت بغير ما ذهبت، وليًّا له كرامات تعجز أمامها إرادتي، وتتصاغر حتى تتلاشى.

وامتلأت نفسي عجبا، ففي الوقت كانوا هم ينهبون الأرض بحثا عني، كنت أنا هناك في الفضاء. وحديث الحاكم جعل نهار تقول باسمة:

- عملنا لك معروفا لن تنساه.

وصمت والي منفلوط برهة وقال:

- عموما هذه حكاية قديمة، وربما لا يعرفها السلطان الجديد وحاشيته وحرسه، كان وقتها أميرا وأعتقد أنه لم يكن يتابع ما يجري بين أبيه والخارجين عليه. أما القناوي فقد عجز، وتشتت شمل جماعته في البلاد. بعضهم أمسكوا بهم، وألقي في غياهب السجن. بعضهم مات من الرهبة. بعضهم تبدل وعاد وصار الآن من بين جند السلطان بعد أن أقسم الولاء، ونال المنافع. ثلاثة فقط هربوا، أنت

واحد منهم، لكنهم ذابوا كما يذوب الملح في الماء. أحدهم قيل إنه عبر صحراء سيناء إلى الشام. والآخر قيل إنه هرب إلى الغرب وربما أكلته السباع. أنت فقط الذي لم يرد العسس بأي شيء عنك، لكن في كل الأحوال أعدّوك ممن انتهى خطرهم، ففرد واحد هارب، سيكون كل همه أن يتخفى لا أن يتحدى.

وقال الطبيب مؤمنا على كلام الحاكم:

- حتى لو بعض حرس السلطان لا يزالون يتذكرون الشيخ عاكف، فأحواله تغيرت. لقد صار لدى الناس العبد الصالح، والقطب الكبير، وليس الفتى الغرير الخارج على السلطة.

ونظر الحاكم إليَّ وقال:

- أخذا في الحيطة، ستغير يا عاكف من بعض ملامحك. ذقنك يطول عن هذا، وعمامتك تكبر، وتخف شاربك، وتسمي نفسك «عابد» مثلا.

وقالت نهار:

- لا تغير اسمك.

فقلت له:

- تغيير الاسم قد يفيد في البداية، لكنه حتما سيثير الشكوك. ربما أرسل السلطان في السؤال عني، فإن قيل له اسمي الحقيقي، سيذهب عقله إلى ناحية لا ترجوها لاسيما إن استمع إلى عسسه. وعاكف، اسم يحمله آلاف المصريين.

هنا اقترح الطبيب أن أسمي نفسي «الشيخ محمد عاكف» الذي يذاع بين الناس بأنه الشيخ عاكف. وراقت الفكرة لنا، بمن فينا نهار.

وقال والي منفلوط:

ـ المهم ألا تسعى وأنت في المحروسة إلى زيارة شيخك القناوي.

ولاحت في الأفق أيام جديدة، لا أحد يعرف ما تطويه من أسرار وأخبار. نمت ليلتها وأنا أتقلب يمنة ويسرة، وفي داخلي يقين بأن الحاكم وطبيبه يصارعان السهاد، وكل منهما يفكر في خطة محبوكة، تمكننا من النفاذ إلى ما نريد في يسر.

في صباح اليوم التالي استدعاني الحاكم، فذهبت إليه، وجدته لم يغادر مخدعه بعد، وفي عينيه أرق مقيم. اقتربت منه وقلت له بصوت مفعم بالمرارة:

ـ مولاي لم ينم، كذلك أنا.

فتعجب وقال:

ـ ألم ينكشف لك شيء في الليلة الفائتة.

فقلت له بصوت مطمئن:

ـ لا يعلم الغيب إلا الله.

فهز رأسه وقال:

ـ نعم، ولكن يقال إنك من أهل الكشف يا مولانا.

ـ لا أعلم إلا ما أراد لي الله أن أعلمه. هذا غيض من فيض.

تلميحات وشذرات وخاطرات تشير ولا تعّين، بعضها كالأحلام يحتاج إلى تفسير، بعضها كالإلهام يحتاج إلى بصيرة.

فهز رأسه وقال:

ـ أصبحت كالمستجير من الرمضاء بالنار.

قلت له:

ـ لا بد أن أرق الليلة الفائتة ترك لك شيئا مما تبحث عنه.

فنظر مليًّا في عيني وقال:

ـ الصدق نجاة.

رفعت هامتي إليه، فوجدت الدموع قد طفرت من عينيه. وسادت لحظة صمت قطعها الحاكم قائلا:

ـ ألم نقل إن السلطان يسعى وراء الشجرة المباركة؟

ـ بلى.

ـ إذن فحرصه على كشف أسرارها مثل حرصنا، وربما أكبر بكثير.

ثم ضحك بفتور وقال:

ـ أنا أبحث عن الطب، وأنت تسعى إلى الروح والمعنى، أما السلطان فيجري كعادته وراء الثروة. لقد قال له السحرة إنها شجرة من ذهب، يكسوها لحاء نبات، وفي لبها يجري سائل إن جد وتجزأ

صار جواهر ثمينة. لقد جاء بسحرته من أجل المال، الذي كان يحتاجه وقتها ليعد جيشه الزاحف إلى عرض البحار.

فضحكت وقلت:

ـ حبس خزائن مصر تحت كرسيه، ويبحث عن المزيد.

فاكتسى وجه الحاكم بخوف عابر، وقال:

ـ انس كلام الشيخ القناوي، حتى لا تفتح علينا باب الجحيم.

واستأذن الطبيب في الدخول علينا، وجاء بأرقه وحيرته. أخبره الوالي بما انتهى إليه فقال على الفور:

ـ هذا أسلم طريق.

فقال الحاكم:

ـ سأرسل اليوم كتابا إلى السلطان.

وجلسنا سويًّا لنكتب الرسالة.

بسم الله الرحمن الرحيم

«إلى سلطان البلاد المعظم. سدد الله خطاه، ونصره على أعدائه، ومكن لعرشه في الأرض، وأطال لنا في أجله، وبارك له في ذريته، وفتح عليه بالرأي السديد، والحكمة السابغة، وجعل له في كل ما قصد خيرا عميما.

لقد جاءنا رجل صالح، يدعى الشيخ عاكف، له من البركات والكرامات ما شهد به أهل الصعيد. وله من المعرفة اللدنية ما كشف

مستورًا ومحجوبًا، وهتك أسرارا دفينة. جاء ذات صباح وروى لنا الكثير عن أمر يهم عظمتكم، وتسعون خلفه من زمن. قال إن له إلى الشجرة المباركة منفذا، وعنده عنها خبرا يقينا. وأقسم أمامنا أننا إن تبعناه وصلنا إلى المراد. وأخرج لنا من بين طيات جبته ورقة بردي، مكتوبة بحروف استعصى علينا الوقوف عليها، وأعيتنا الحيل في فهم ما استغلق علينا من سطورها. وأنبأنا أن معانيها لن تكتمل إلا بواحدة مثلها مطمورة في مكان قريب من قصركم، لم يخبرنا به، وسيخبركم به. فإن أردتم سنركب إليكم البحر فور تلقي ردكم».

خادمكم المطيع: والي منفلوط

* * *

بعد أيام جاءنا الرد، وكان مبشرا، فالسلطان يستعجلني، ويطلب مني أن أحضر ومعي ورقة البردي، ثم وردت عبارة هيجت ذكرياتي، التي لم ولن يطمرها نسيان. فقد قال السلطان: «كل إمكاناتنا في خدمة مقصدكم، المال والرجال وعلماء الأزهر ودراويش التكايا». وسرى في نفسي حزن لإلحاق السلطان علماء الأزهر بماله وفرسانه، وكأنهم جزء من متاعه وبنيان سلطانه الذي شيده على الظلم.

ركبت البحر مع طبيب الحاكم، ونفر من جنده لحراستنا. الورقة في جبتي، وعيني تطالع المساحات التي يتعانق فيها الماء والسماء. وحين مرت السفينة من أمام المكان الذي سجد فيه الحاج حسين سجدته الأخيرة، رفعت هامتي إلى هامة الجبل، والتقت عيناي بالصخرة الراسخة المتدلية في وقار، والتي يقال إن الشجرة المباركة تكاد تلامسها.

لاحظ الطبيب شرودي إلى هذه البقعة، فابتسم وقال:

ـ قبل سنين، جاءنا رجل مغربي، وأطلق بخوره في بهو قصر الحاكم، وراح يتمتم بكلمات غريبة. ظل على حاله ساعات، ثم قال: توجد هناك، في مكان قريب من هنا، لكنها محجوبة عن «خدامي»، علمها عند من هم أكبر بكثير.

فضحكت وقلت:

ـ هل لديك خبر يقين عما انتهى إليه من أتى بهم السلطان نفسه؟

ـ نعم، سمعنا كلاما كثيرا، لكنه لم يخل من شائعات أو تهويلات.

ـ تهويلات؟

ـ قيل إن أحد المغاربة الذين اصطحبهم السلطان ادعى أنه قد أمسك بأحد أغصان الشجرة، ثم مد يده إلى أنف السلطان، كي يشم الرائحة التي علقت بيده، فمد السلطان أنفه، ثم راح يستنشق ويقول: اقتربنا. لكن الابتسامات الساخرة التي ارتسمت على شفاه بقية المغاربة وقتها، جعلت البعض يقول إن ما ملأ أنف السلطان ليس سوى رائحة المسك والعنبر.

تعاقبت الليالي والنهارات ثقيلة، حتى أطلت المحروسة ذات فجر، ملفوفة في غلالات ضوء الفوانيس، فبدأ قلبي يدق بعنف، وهلت الذكريات ثقيلة كأن جبل المقطم قد انخلع من مكانه، وحط على رأسي وقلبي ونفسي، وخطواتي التي همدت فوق السفينة السابحة.

واستعدت ما كان القناوي يقوله لنا ناقلا عن ابن بطوطة:

«هي أم البلاد المتناهية في كثرة العمارة، المتباهية بالحسن والنضارة، مجمع الوارد والصادر، وفيها ما شئت من عالم وجاهل، وجاد وهازل، وحليم وسفيه، ووضيع ونبيه، ومنكر ومعروف. تموج موج البحر بسكانها، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها».

وقلت في نفسي:

ـ لا تضيقي بي يا محروسة، ولا تعيديني إلى الجنوب خائب الرجاء.

(١١)

كان حرس السلطان في انتظارنا. تجريدة كاملة مكونة من رجال غلاظ شداد، لا يعصون السلطان ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون. تقدم قائدهم نحوي، ومد يده فأعطيته كفي، وسحت في ظنون لا نهاية لها. قال هاتف داخلي: لو كان قد أمسك بكفك قبل ثلاثين سنة لقطعها، أو وضع فيها الأغلال وساقك إلى السجن.

وتمتمت قائلا: سبحان مغير الأحوال. فرفع الحارس الأكبر رأسه إليَّ، فأهديته ابتسامة خافتة، لكنها شجعته على أن يسألني:

ـ عرفنا عنك الكثير قبل وصولك يا مولانا.

وسرى خوف في أوصالي، لم يلبث أن تبدد حين قال:

ـ لدينا ما يكفي عن كراماتك، والحجب التي هتك الله سترها لك.

قلت له على الفور:

ـ لا يعلم الغيب إلا الله، العليم الخبير.

هز رأسه مؤمنا على قولي، ثم تنحنح وقال:

ـ ظروف صعبة، ونظر قصير، والأفق المسدود يصيب النفس بكآبة سوداء.

فقلت له:

ـ داء ليس له من دواء سوى التوكل.

صمت برهة، ونظر إلى جنوده، الذين يتابعون الحوار في صمت، ثم همس في أذني:

ـ قيل لي إنك تقرأ الطالع، وخوفي من القادم يقض مضجعي، فلا تبخل عليَّ بعلمك يا مولانا.

وعندها سمعت نهار تقول:

ـ من صالحك أن تكسب ثقة هذا الداهية.

شددت على يده وقلت له:

ـ القادم أفضل، فلا تحزن.

امتلأ وجهه فرحا، ثم قال:

ـ هذه كفي فاقرأ خطوطها.

ربت على كتفه وقلت:

ـ وهبنا الله ما هو أعلى من ذلك.

فرفع هامته، ووضع عينيه في عيني، وقال:

ـ قال لي المغربي كلاما كهذا عن الشجرة، أوجز فأخل، وتركني في متاهات لا تنتهي.

ـ الجهل بما سيأتي نعمة.

ـ ومعرفته راحة.

ـ قتل الإنسان ما أكفره.

ـ نحن بشر يا مولانا، تسكننا الهواجس، ويضنينا الجري وراء الآمال المعلقة.

وسادت لحظة صمت، جاءني خلالها صوت نهار آمرًا:

ـ طمئنه.

فقلت له على الفور:

ـ سنجلس سويًّا خلال فترة إقامتي بالمحروسة، وأرى لك ما تريد.

ضحك حتى كاد أن يقع مكانه وقال:

ـ أتعتقد أن بوسعي أن أراك ثانيا.. حين تصل إلى السلطان لن تغادره إلا إلى الصعيد، بحثًا عن الشجرة المباركة.

فربت كتفه وقلت:

ـ لا تقطع بما لا تعلم.

فالتفت إليَّ متعجبًا، فقلت له:

ـ لك دور في هذه المهمة الشاقة، فلا تكن في عجلة من أمرك.

ولاحت قلعة الجبل من بعيد، عالية مهيبة، تطل هامتها من السور العالي الذي يطوقها، وتبدو الأشجار الباسقة المرصوصة بعناية على يمينها

ويسارها كأنها حراب ممشوقة، تطعن الفضاء، وتوحي لكل من تسول له نفسه أن يتمرد على السلطان بأنه هالك لا محالة. توجهنا في طريق عريض تنبت على جانبيه الرياحين، وهلت من الزمان الماضي كلمات الشيخ القناوي، الذي كان كلما مشي فيه وهو يهم إلى الأزهر قال:

ـ رائحة طيبة تطمرها روائح الظلم النتنة المنبعثة بلا هوادة من مقر السلطان المغرور.

كنا نضحك ونقول له:

ـ يتعطر بزجاجة معتقة كل يوم، وكذلك زوجته المتجبرة، وجواريه الحسان.

فكان يقول:

ـ كل عطور الأرض لا تبدد رائحة الفساد والطغيان.

فاضت خواطري، فرأيت نفسي أسير في هذه الطريق محشورا بين الأجساد الملتهبة، الزاحفة بثقة إلى هذا القصر، الذي أسس على الفجور. الأيادي مرفوعة، والخناجر صارخة، والعزائم صلبة، والمقصد نبيل، إسقاط الطاغية. أخذتني نشوة عزلتني عن العسس والحرس الذين يدبون بجانبي وألقت بي في مسار الأمنيات التي هربت منذ زمن، فرأيت الحاكم يخرج ذليلا، يركب جواده، ويطلب الغفران والرحيل.

لكن وصولنا إلى باب قلعة الجبل، نبهني إلى الحقيقة الزاعقة المرة، التي تأكدت حين جلسنا بانتظار الإذن لنا بالدخول إلى السلطان.

* * *

لم يُضع السلطان وقتا، كان متلهفا على الثروة، مدفوعا بغريزته الأصيلة في حب المال، وهي مسألة يتهامس بها أفراد الحاشية، وكنا نعرفها عن من سبقه أيام الأزهر العامرة بالمعرفة والذكريات والشوق الجارف إلى الحرية. كانت الأيام الأخيرة قد حملت أخبارا سيئة عن اعتزام الفرنجة تجريد حملة بحرية ضخمة لغزو مصر. وكان على السلطان أن يجهز جيشا جرارا لصدها، فاستدعى أتابك العسكر الأمير شهاب الدين وكلفه بالمهمة، لكن الرجل أخبر السلطان بأن هذا يحتاج إلى أموال طائلة، وعول على أن عظمته سيخرج بعض ما لديه من أموال متكدسة، لكنه فوجئ به يأمر بفرض مكوس جديدة على الرعية.

سمعنا أن خلافا ثار بين الاثنين حول طريقة جمع الأموال اللازمة للمعركة. كان الأمير يرى أن فرض المكوس سيؤدي إلى تذمر الناس المثقلين بها على رءوسهم وأملاكهم من أموال للسلطة، وأنه لا يمكن لجيش أن يذهب مطمئنا لملاقاة العدو ووراءه شعب مغبون. أما السلطان فلا يعنيه إلا أن تظل ثروته على حالها لا تنقص لأي سبب.

لهذا تهلل وجه السلطان حين سمع مني أن الوصول إلى الشجرة المباركة ممكن، وأن المقادير قد جادت أخيرا بمن يستطيع أن يهتك الأستار، ويخترق الحجب، ويأتي بمن لا يأتي به الأوائل.

راح السلطان يتابع باهتمام ما أقوله، وهو يغرس عينيه في عيني، ربما ليعرف ما إذا كنت كاذبا مثل الذين خدعوه من قبل أم أنني لا أقول إلا صدقا. تفرسني كرجل محنك، يعرف أصناف الرجال،

وثرثرت كثيرا، لكنه لم يقاطعني، لكن حين ذكرت له قصر الأمير شهاب الدين، امتلأ وجهه دهشة لا تخلو من تهيب، وقال:

ـ لماذا هذا القصر بالذات؟

فابتسمت في ثبات وقلت:

ـ تحت جدار فيه ما نبحث عنه.

صمت السلطان برهة وقال:

ـ أي جدار؟

فقلت على الفور، ما سبق أن سمعته من نهار:

ـ الجدار الأوسط.

وهنا قهقه السلطان، قائلا:

ـ هذا معناه أن نهدم القصر تماما.

ونظر إلى الوزير الذي يقف على يساره مستطلعا رأيه، فرد عليه في هدوء:

ـ هو في الأصل قصرك يا مولاي، ولك أن تسترده وقت شئت.

فهز السلطان رأسه قائلا:

ـ هذا هدية قدمتها للأمير، ومن العيب أن أستردها.

حك الوزير ذقنه وقال:

- يمكنك أن تمنحه غيره... لمولاي قصور أخرى، وفيها ما هو أروع من قصره.

رفع السلطان وجهه ناحيتي لعله يقرأ في ملامحي أي موقف مما يردده الوزير. وصلني ما يقصد فقلت له على الفور:

- إنه الرأي السديد يا مولاي.

همست نهار في أذني بكلمات أعدتها على مسامع السلطان:

- النجوم تقول لي إن الأمير شهاب لن يمانع.

ارتد بصر السلطان كسيرا، فقد أدرك من كلامي أنني أعي أنه يخشى الأمير.

وكان كل من في القصر ومن خارجه من بين العسس والخشداشية والخدم، وحتى الصناع والزراع والعربان والعطارين والجعيدية والعيارين والخمارين، يدركون أن الأمير هو الذي يمسك بمقاليد الحكم من خلف الستار.

لكن السلطان العاجز عن تدبير الأمور كما كان أسلافه يفعلون، يرقد على خزائن من الذهب والفضة والياقوت والمرجان، وصرر النقود المكدسة، بعضها ورثه عن أبيه الذي امتد ملكه إلى الشام، والبعض الآخر جمعه من نهب أقوات الرعية. كان يقول لنفسه في الهزيع الأخير من الليل:

- بالمال أشترى الجند، وأنهي سطوة شهاب الدين.

في الصباح يستيقظ مهموما، منقبض القلب وشارد الخاطر، حين

يقتحمه اليقين الجارح بأن سلطانه لا يزال مسنودا على سيوف رجال شهاب الدين الأشداء.

في اليوم التالي استدعى السلطان أميره المهاب، وأجلسه بين يديه، ثم نظر عميقًا في عينيه الحادتين وقال:

- رأيت أن أمنحك قصرًا آخر.

وامتلأ وجه الأمير بدهشة لم تخل من غضب، لكن السلطان عاجله قائلاً:

- إنه أجمل قصوري، ولا يليق به إلا قائد جنودنا، ورافع رايتنا، والمخلص لنا بلا حدود.

وتهلل وجه الأمير، إذ كان يتطلع إلى أن يظفر يوما بالقصر الأخضر، الذي ينزل فيه السلطان صيفا، مستمتعا بنسائم طرية تداعب نوافذه الوسيعة. وكان يسمى هكذا لأن حوائطه الخارجية تنام عليها تعريشات من العنب واللبلاب والورود، فيبدو للقادم من بعيد كأنه حديقة معلقة على صهوة جبل المقطم.

اعتقد الأمير في البداية أنه سيحتفظ بالقصر المطل على النيل إلى جانب الأخضر، لكنه فوجئ بالسلطان يقول له:

- لا يمكنني أن أسترد هدية إلا إذا أهديتك أفضل منها.

وثارت برأسه ظنون، لكنه لم يلبث أن استبعدها، فهو يعرف أن السلطان يهابه. وقال في نفسه: «القصر الأخضر منيع، وبعيدا عن عيون المتلصصين». وعندها أومأ للسلطان موافقًا، بل قال له في فرح:

ـ لو أراد مولاي القصرين، فهما له، وبوسعي أن أضرب خيمة وسط جنودي، أحيا فيها بقية عمري.

وكان السلطان يعرف أن أميره أبعد ما يكون عن الزهد، وإن كان يتصنع هذا دومًا، حتى يحرم منافسيه من أن يجدوا إليه نقطة ضعف، طالما أذلت أعناق أمراء قبله. ولهذا ابتسم له قائلًا:

ـ لا يليق بك إلا قصر منيف، ودع الخيام لعابري السبيل، ويكفيك منها ما تضربه في ساحات المعارك.

وما إن تسلم السلطان قصره القديم، حتى أطلق رجاله يشيعون في الناس أنه سيغير من تقسيماته، ليوسع البهو، بعد أن يدمج به الحجرات الجانبية. وهكذا مهد الطريق أمام عملية الحفر والتنقيب، دون أن يترك مجالًا لأي شكوك تساور رجالًا متربصين به.

أما عن عاكف فقد قيل إنه رجل مبارك، يجلس ليقرأ أثناء الحفر والإنشاء، آيات وتعاويذ، تطرد الشياطين، وتأتي بالبركة، وتجلب السعادة.

(١٢)

كان القصر المقصود شاهقًا، متسع الأرجاء، يتكون من إيوانين، الشرقي يطل على إسطبلات الخيل، ويمكن لمن يحل به أن يرى جانبا من سوق القاهرة، وبيوت الفقراء الواطئة التي تنام تحت جبل المقطم. أما الغربي فيرى النيل، الذي يجري في هدوء غير حافل بالصدور التي تغلي من ظلم السلطان، ولا بالسواعد التي تشتد استعدادًا لصدة الغزاة. وتطل هناك قرى الجيزة كبقع رمادية وصفراء بين المروج الخضراء، وتلافيف الشجر، وعراجين النخل الباسق.

في الإيوان الشرقي يوجد الباب الكبير، الذي يخرج منه الأمير والخاصة، وفي الجانب القبلي منه يوجد باب صغير لدخول وخروج الخدم. تدخل الشمس إلى كافة الحجرات من المناور الموزعة بعناية هندسية بديعة. في الليالي القمرية يتسلل النور الشحيح إلى المخادع والمجالس، والنسائم تتخلل الجدران كأنها تسري بين فروع شجر متباعدة.

القصر مكون من طابقين، تتوزع في واجهتها مشربيات بديعة ونوافذ من الجص، معشقة بالزجاج الملون، بعضها بارز والآخر

غائر، وبينها سلم خشبي مزخرف، عليه نقوش أمر شهاب الدين بإضافتها، ليسجل أمجاده الحربية.

الطابق الأرضي به قاعة وسيعة للاحتفالات والاجتماعات، ومخازن الغلال، واسطبلات الخيل، وحجرات القائمين على رعايتها، وغرف الخدم، أما العلوي فبه غرف النوم.

وكل من الإيوانين يحوي على بائكات ثلاثية العقود، ترتكز على أعمدة رخام، تنيخ على قواعد عريضة وتيجان.

في الماضي لم يكن يريح السلطان إلا هذا القصر، رغم بساطته، ولم يكن يتنزل عنه إلى أمير جيوشه لولا عهد قطعه على نفسه ذات يوم أمام الأمراء والأعيان أنه سيهديه إلى شهاب الدين إن انتصر. فلما عاد الجيش مظفرا، لم يذهب الأمير إلى بيته، بل جاء إلى القصر وجلس في بهوه، وبلغ الخبر السلطان فأتى هو إليه. يومها قال الناس:

ـ ركب شهاب الدين المُلك، ولا حول لصاحبه ولا قوة.

اليوم استرد السلطان قصره، فبدا أمام الناس وكأنه استرد كرامته، لاسيما بعد أن أطلق رجاله يقولون همسا في الأسواق إن شهاب الدين خرج مرغمًا.

* * *

في صباح اليوم التالي كان الجيش يستعد للزحف إلى الإسكندرية ليركب البحر صوب قبرص ورودس، وكنا نحن نستعد للذهاب إلى القصر. ولما بلغناه وجدنا مئات الهدادين في انتظارنا، تعلو وجوههم غبرة، وفي عيونهم انكسار. كان يتقدمهم رجل بدين، تنز

جبهته بشر مستطير، ويتراقص في يده سوط، يكاد زيته يتفصد من تلافيفه القاسية. وأشار بيده فارتفعت الفئوس والقواديم والمرزبات والأجنات المسنونة إلى الأكتاف، وخطفت الأيادي المقاطف المتراخية، وسار الركب إلى مدخل القصر.

عبرنا الجدر المتلاحقة كأنها صفوف جند متحفزة، حتى بلغنا الجدار الأوسط، وهنا أشار الرجل البدين للهدادين المنكسرين:

ـ هنا.

فوقفوا يرمقون الجدار الشامخ بعيون مستسلمة، لم تلبث أن طفحت بتحفز عابر، وانهالت على قطع الأحجار ضربا، حتى راحت تتخلع وتهوي إلى الأسفل، مثيرة وراءها غبارًا كثيفًا. وكلما شقوا قاطوعا وضعوا مكانه عروق خشب الزان المتينة، لتحمل سطح الطابق الثاني. استندت العروق على ألواح عريضة من الصلب، أناموها على خلاف اتجاه الجدار. عند الظهيرة كان الجدار قد انهار تمامًا، وحلت محله عشرة مساند خشبية.

بين ألواح الصلب النائمة بدأ الحفر، وراح الجميع يتطلعون إلى عاكف، فابتسم لهم، وقال ما قالته له نهار:

ـ خلوا الميمنة والميسرة، واحفروا في المنتصف، فهنا المراد.

قبل أن يأكل الشفق الشمس المجهدة أطلت من بين طيات الطمي جرة كبيرة أكبر من أي جرة رأيتها في المحروسة، حفر الهدادون حولها، وأخرجوها من دون أن يخدشها فأس، وقدموها لعاكف، ومئات العيون تتطلع إليه.

فزع فيهم الرجل البدين، فتراجعوا، وأشار إليهم أن يتبعوه، فراحوا يجرون أرجلهم المنهكة إلى الخارج. عند باب القصر، أوقفهم وقال لهم بصوت كأنه خوار:

ـ ستقبضون أجوركم، وتذهبون إلى بيوتكم صامتين، ما رأيتموه اليوم هو سر من أسرار السلطان، فلا تأتوا على طرف منه حتى لزوجاتكم، ومن يخالف هذا الأمر سيلقى عذابا لا قبل له به.

وصاح هداد من الصف الخلفي:

ـ لم نر، ولم نسمع، ولم نشم شيئًا، حتى رءوسنا لم يغبرها اليوم أي تراب.

فنظر إلى البقية وقال:

ـ كونوا جميعا على موقف صاحبكم.

لكن أحدهم قال ضاحكًا:

ـ أي سرّ في جرة؟ لو كان ذهبا أو ياقوت أو مرجان، فلدى مولانا، أعزه الله، أكثر من ذلك.

عندها انهال الرجل البدين عليه بالسوط، فزعق والدم ينبجس من وجهه:

ـ والله لم أقصد شيئا.

لكن الضرب لم يتوقف، إلا عندما رآني الضارب أهرول إليه، فلما بلغته، أمسكت يده، وأخذت منه سوطه، والغضب يملأ عيني. ثم ناديت الهداد المضروب، وقلت له بحزم:

ـ اقتص منه.

فقال الرجل، وهو يمسح خيط دم لطخ شفتيه:

ـ سامحته يا شيخنا.

لكنني عاجلته قائلًا:

ـ مسامحة أم خوف من وعيده.

والتزم الرجل الصمت، فنهرته:

ـ انتصر لنفسك.

لكنه اقترب مني وقال هامسًا:

ـ أكلتنا الأيام منذ أن أصاب شيخنا القناوي عجز أقعد عكازه عن أن يدب على الطريق.

فصُعقت، وارتددت خطوات، وفي نفسي ذهول ووجل. ثم عدت واقتربت منه، وحملقت فيه مليًا: فقال الرجل:

ـ في السجن الذي أنقذك الله منه يا صاحبي، كان يفعل بنا، أكثر من هذا.

وران صمت لم يطل، قطعه الرجل:

ـ كانوا يدقون المسامير في عظامي، ويسرجون الفوانيس تحت إبطي، حتى يتساقط جلدي، وتكسحت عظامي ونفسي.

ثم كشف عن ذراعيه وقال:

ـ هذه آثار الكلاليب والمقاريض.

وحملقت فيه مليًّا، فعرفته. ربت كتفه، وهمست في أذنه:

ـ أمسك عليك لسانك يا صفوان، ولنا لقاء غدا بعد صلاة العشاء في الجامع الأزهر، وعندها سأسمع منك الكثير.

فشد على يدي، وقال:

ـ عرفتني بنور قلبك يا صاحبي، فلا تخذلني.

فقلت له، وأنا أتعجب منه:

ـ الدنيا ضيقة يا أخي.

فابتسم وقال:

ـ أنت كما أنت لم تتغير، كيف لا أدري، أما أنا فقد أكل الزمان عليَّ وشرب، حتى ضاعت ملامحي القديمة.

فهززت رأسي وأنا أشد على يده:

ـ سأعرفك ولو كان فراقنا قد طال ألف عام، فروحك تخالط روحي، وصورتك محفورة في أعماقي السحيقة، لن تصل إليها عاديات الدهر.

ومضيت، يجرفني الحنين، وتعقد الدهشة لساني، وكلي خوف من ألا يقدر صفوان الفيومي على طي السر بين جوانحه.

* * *

مضينا بالجرة إلى السلطان، فأخذها متلهفا. وضعها أمامه، وأمر بنزع سدادة من الطين والقش، كانت تغلق فمها تمامًا، ثم مدها إليَّ وقال:

ـ هنا بغيتك يا شيخنا.

فابتسمت وقلت من طرف لساني:

ـ وبغية مولاي.

ونكّست الجرة على فمها، فتساقطت منها صرة كبيرة، التقطتها ورحت أفكها برفق، والعيون تتابعني بشغف ولهفة. وجدت بها رملًا ناصع البياض، وقطعة صخر سوداء طويلة مفرطحة، محفورة على جانبيها حروف غريبة، قالت لي نهار إنها «الهيروغلفية»، فلما سألني السلطان عن تفسير ما هو مكتوب، قلت له ما همست به إليّ:

«خلقت النيل في مجراه

لنفع بلاد مصر

فجرته من العمق إلى النور

كما تشاء

لكي يمكن لشعوب الأرض الحياة

تعطيهم الرزق

لأنك أنت نفسك خلقت

سكان البلاد

أنت سيد الجميع

ذلك الذي غضب عليهم بعد قتال اليوم

أنت ملك جميع البلدان

ذلك الذي يرسل النور من جديد

ليظهر فجر جديد

لقد خلقت نيلا في السماء

ليسقط ماء للجميع

ويبدع شلالات تصفع الجبل

وأمواجا هائلة

في البحر الكبير

لكي تحمل الخصوبة إلى حقولهم

وتسقي السكان ماء

ما قدرته عظيم

أنت الإله السرمدي

نيل السماء عطاؤك

إلى الشعوب الأجنبية

إلى وحوش الصحاري

إلى الإنسان البدائي

إلى أولئك الذين يدبون على أقدامهم

لكن النيل الحقيقي

هو الذي يجري من ينابيع الأرض

من أجل مصر

لكل الأرض والحدائق

لكل النبات والأشجار»

* * *

«الحيوان يرعى

في هدوء شامل

الخضرة تكسو الأشجار والنبات

وتترعرع من جديد

يغادر الطير عشه

ويحلق فوق الأشجار الباسقة

محركا أجنحته

متجها نحوك

الغنم يدب على أقدامه الصغيرة

الحيوان المفترس يهجر مخابئه الليلية

جميع من يزحف ويجوب

جميع من يطير في الهواء

يزخر بالحياة

عندما تظهرين لهم

وتبعثين الضوء والدفء

إلى أجسامهم

إلى دمائهم»

(عصر إخناتون العظيم)

ووجدنا إناء من الفخار، عليه زخارف جميلة. في قعره تأخذ تلك الزخارف خطوطا متموجة، وعلى كامل استدارته أغصان شجرة متقاطعة. وهمست نهار في أذني:

ـ هذا من صنع البداري.

فقلت للسلطان، فهز رأسه، ونظر إلى والي منفلوط وقال:

ـ من عندك.

فابتسم وقال:

ـ كله عند مولانا السلطان.

ووجدنا كذلك نواة لثمرة مانجو كبيرة، عليها خطوط كأنها خريطة تدل على كنز ثمين. أمسكتها ونفضت ذرات الرمل العالقة بالقشرة، وهززتها في يدي، فأيقنت أن بها شيئا. ظننت أنه لبها بعد أن جفت فيه الحياة، لكن حين فلقتها، وجدت قطعة من جلد، عليها كتابة تشبه تلك المحفورة على الصخرة. حين فتحت الصرة تماما وجدت على قماشها السميك طبقة مسحوق ناعم خفيفة. وقالت لي نهار:

ـ هذه مادة كيميائية عجيبة حفظت الموجودات من عاديات الزمن.

فقلت لها باسمًا:

ـ صرة محنطة.

بادلتني الابتسامة وقالت:

ـ هي كذلك.

لمّا أخبرت السلطان، قال متهللًا:

ـ ربما هي المادة التي كانت تستخدم في التحنيط عند الفراعنة.

مد يده حتى مس طرف سبابته القماش، وقال:

ـ حفظوا أجداث ملوكهم، أما نحن فنصير وجبة للدود، لا فرق في ذلك بين الزعران والسلطان.

هنا قال صاحب العسس:

ـ لكن أحدًا لا يعرف حتى الآن سر التحنيط يا مولاي.

فابتسمت نهار وقالت:

ـ صدق الرجل.

قلت لها متعجبًا:

ـ حتى الجن.

فقالت:

ـ حاولوا لكنهم عجزوا.

وتابع السلطان كلامي إلى نهار، ونظر بجانبي ليرى من أكلمه، لكنه لم يجد أحدًا، فقال باسمًا:

ـ شيخنا له أحوال عجيبة.

رد عليه كبير الحراس:

ـ كراماته بلغت الآفاق يا مولاي.

فتهللت أسارير السلطان، وقال:

ـ أشعر أنني اقتربت من الشجرة المباركة.

(١٣)

حين حل المساء، اقتربت من كبير الحرس، وقلت له هامسًا:

ـ أريد أن أصلى بالجامع الأزهر.

فابتسم وقال:

ـ سأرسل معك بعض رجالي.

لكني قلت له على الفور:

ـ أريد أن أذهب بمفردي.

امتلأ وجهه بجدية طارئة وقال:

ـ الطريق مملوءة بالعيارين.

فابتسمت ساخرا وقلت في سري: «لا عيارين إلا أنت وأمثالك وسلطانك المغرور الجشع»، ثم نطقت:

ـ الله يحمي من يشاء.

هز رأسه قائلًا:

ـ لك ما شئت، لكن يجب أن أخبر السلطان.

جلست مكاني، وأشرت إليه:

ـ اذهب إلى السلطان، وأنا هنا أنتظر.

بعد دقائق عاد:

ـ لك ما شئت، وفي الصباح تلتقي مولانا.

فنهضت ووليت وجهي نحو الباب، وسمعت نهار تقول لي:

ـ لا تصدقه، سيرسل أحد رجاله ليتبعك من بعيد.

ركبت حمارًا اكتريته، وسرت في شارع طويل مسقوف بالخشب والحصر والقش، أسترق السمع إلى همسات على المصاطب المتتابعة أمام الحوانيت. تناهى إلى سمعي كلام وهمس جعلني أتعجب، فقصة الشجرة المباركة وصلت إلى الدهماء، وهاهم يتحاكون عن السلطان الذي يتهلف في البحث عنها.

تهت في ذكريات وظنون لم أفق منها إلا على صراخ طفل سقط تحت حوافر خيول يركبها ثلاثة مماليك، كانت تضرب الأرض باتجاه قلعة الجبل. وجاءت امرأة من حارة جانبية تزعق على ابنها الذي كان مطروحًا على جانب الشارع، يمسك قصبة رجله، ويعوي من فرط الألم.

وكسل الحمار ومكر، فقدم إليَّ المكاري مهمازًا من خشب، وقال:

انغزه.

ونظرت إلى المكان الذي يشير إليه من رقبة الحمار فبانت في ضوء الفوانيس حفرة من لحم ينز منها دم، بعضه متجلط بين الشعر الخشن. فقلت للمكاري غاضبًا:

ـ ارفق بهذا الأعجم.

فضحك وقال:

ـ ألم تسمع بمهاميز المماليك التي صنعوها من الذهب والفضة؟

تحيرت من كلامه وسألته عما يعنيه، فقال:

ـ حكام البلد يجرحون خيولهم، فما بالك بحمير الحرافيش.

غضبت لقوله، ونهرته:

ـ لا تكن إمعة يا رجل، هم يسيئون فأحسن أنت، ألم تسمع عن أجدادك من المسلمين الأوائل، الذين حبسوا أوقافا على حيواناتهم.

ضحك حتى أفزعت قهقهته الحمار، وقال:

ـ والي الطواف[1] نفسه رآني أنغز حماري فلم يحاسبني، وأنت تزجرني وكأنك السلطان.

ثم صمت برهة وقال:

ـ أجدادنا حبسوا الأوقاف للحيوانات، أما المماليك فيجمعون الكلاب ويقتلونها.

وجدت من العبث أن أجاريه، فغيرت مجرى الحديث:

ـ ما حال أهل المحروسة؟

فرفع هامته إليَّ وسألني:

ـ هل أنت غريب؟

ـ أنا من أهل الجنوب.

ـ أنعم وأكرم.

ثم صمت برهة وقال:

ـ الجميع هنا يعانون، بمن فيهم التجار. شغلتي تجعلني أدور على الأسواق. لم أجد أحدًا مرتاحا. كل الخبازين والبزازين واللبانين واللحامين والخضريين والعطارين والرفاهين والبذارين والشماعين والدجاجين وصانعي اللباد والسلال والحصر والقفاصين، يشتكون من سوء الأحوال، حتى البغايا والزعيرات ومحترفي الهنك والرنك وأرباب الملاعب، يرثون أيام الهرج والمرج والمباذل والمجون، التي ولت.

وصمت مرة أخرى ثم قال:

ـ الشيء الوحيد الذي يكبر في هذا البلد هو الرشوة والبرطيل.

فضربت كفا بكف، وتذكرت أيام القناوي، وقلت:

ـ لا شيء يتغير في بلدنا المنكوب.

فلم يرد عليَّ وراح يدندن بأشعار لأبي الحسين الجزار:

كيف لا أشكر الجزارة ما عشـ ـت حفاظا وأرفض الآدابا

وبها صارت الكلاب ترجيـ ـني وبالشعر كنت أرجو الكلابا

هزني صوته، وفجعتني الكلمات، فقلت له:

ـ الويل لمن طالته حرفة الأدب.

فلم يعر قولي اعتبارا، ومضى يغني:

حسبي حرافا بحرفتي حسبي   صبحت منها معذب القلب

موسخ الثوب والصحيفة من   طول اكتسابي ذنبا بلا كسب

أعمل في اللحم للعشاء ولا   أنال منه العشاء فما ذنبي

خلا فؤادي ولي فم وسخ   كأنني في جزارتي كلبي

* * *

لم يتوقف عن الغناء، حتى وصلت إلى ساحة الأزهر العامرة بفوانيس تسكب نورها على رجال يهمون ليلحقوا صلاة العشاء. دخلت من باب المزينين، ومضيت حتى رواق القبلة، حيث تواعدنا على اللقاء، وهناك رأيت صفوان جالسا بجوار عمود، يطالع وجوه القادمين.

لما رآني همَّ ليقوم، لكنَّ أمرًا أقعده، وغمز بعينه لي، وأعطاني ظهره، وأنا في عجب. وكان قد أشار بإصبعه قبل أن يستدير، فنظرت خلفي فوجدت رجلًا، تدل سحنته على أنه من البصاصين، فأدركت جزع صاحبي، وجلست مكاني أنتظر إقامة الصلاة.

لما انتهت صلاة الجماعة، انخرط صفوان في نافلة «الشفع والوتر»، واقتربت منه، وإلى جانبه صليت النافلة، وانتهى قبلي فقال وهو يخرج: نلتقي على رأس حارة بهاء الدين في باب الفتوح.

وسمعت نهار تهمس قائلة:

ـ لن ينقذك من البصاصين غيري.

فابتسمت وقلت لها:

ـ افعلي ما شئت.

ونظرت جانبي فوجدت رجلًا يقاوم ليتخلص من شيء لا يراه، يجذبه الشيء بعنف إلى الخلف، حتى سقط على ظهره. وتوالى سقوط الرجال، وانخرطوا في هرج ومرج، واستولى على الناس العجب، وأخذوا في الفرار من الأبواب الجانبية، حتى خلا الجامع تماما.

وسمعت وأنا أهرول إلى باب الفتوح شيخ الجامع وهو يقول بصوت جهور:

ـ قادر على كل شيء.

ومضيت بين طبليات البائعين ودككهم، حتى وصلت إلى باب الفتوح، ببرجيه المستديرين، والطاقتين الكبيرتين اللتين تحتوي فتحتاهما على زخارف بديعة، تتوسطها أسطوانات صغيرة. وعلى ناصية الحارة وجدت صفوان ينتظرني، فأخذني من يدي ومضى متوغلا في الظلام، حتى بلغ بيتا متداعيًا، وطرق الباب، وانتظر. وفتحت امرأة ينطق الحسن في وجهها، وقالت بخفر:

ـ تفضلا.

ونظرت إلى صفوان، فابتسم وقال:

ـ زوجتي.

تذكرت أيام القناوي، حين كان صاحبي، رغم مشاعره الفياضة،

يعرض عن سيرة النساء، كلما ساقنا الحديث إليهن، ويقسم أن كلهن واحد، ثم يضحك ويقول: «رأيت أمي بأم عيني تعض أبي كل يوم سبع عضات على الأقل».

وعدت إليه أسأله:

ـ ألك منها ذرية؟

فقال:

ـ لي ابن وبنت من زوجتي الأولى، التي رحلت قبل ثلاث سنوات، أما حفصة، فلم تنجب.

وقرصتني نهار، قائلة:

ـ الزم، وإلا سيقتلك الفضول.

ابتسمت، لكن صفوان راح يحكي، كأنني لم أفارقه سوى ساعة من نهار. تكلم كثيرًا عن فترة هروبه عند برسوم، صديقنا القس الذي كان يؤمن بحركة القناوي ويعمل معنا من أجل تخليص مصر من حكم المستبدين. عاش مع برسوم ثلاث سنوات في كنيسة «أبو سرجة» حتى ظن أن العسس قد نسوا صورته، فخرج ذات عصر يتجول في الأماكن التي عشقها. رءوه وقبضوا عليه وألقوه في غياهب السجن، الذي راح يأكل جسده وروحه حتى أصابه «الفالج» فأخرجوه، وألقوه على قارعة الطريق. جلس يتسول على باب الأزهر، حتى رأته حفصة ذات مساء، فأشفقت عليه، وراقت لها وداعته ووسامته ونظافة ثيابه، وابتعاده عما ألفه الشحاذون أيامها بأسمالهم وعريهم، وقسمهم على الناس وإلحاحهم بأقوال تقشعر لها الجلود.

وسألته حفصة عن اسمه وحياته، فعرفت أنه كان من تلاميذ القناوي، وأنه دخل السجن في واقعة التمرد الشهيرة التي حكت عنها المحروسة سنوات. ولما طال بينهما الكلام، راق لها حلو حديثه، وحروفه التي تخرج من صميم قلب ينبض، وعيون تلمع، وعروق تنفر، فيبدو كأنه لا يمر بعجز وقعود.

لكنه صعقني حين قال:

ـ كانت حفصة زعيرة شماع شهير، جاءتني هنا بملاءتها وطرحتها الزاهية، وسروالها الأحمر، فنسيت كل شيء عنها إلا جمالها الأخاذ.

فحدجته بنظرة تقدح شررا، وقلت:

ـ أتتزوج عاهرة؟

فابتسم وقال:

ـ بل اسألها هي: كيف تزوجت قعيدا؟

وصمت برهة وقال:

ـ يبدو أنك قد نسيت في زحمة الحياة كلامك القديم عن باب التوبة المفتوح دائمًا أبدًا، وعن الأشعث الأغبر الذي لو أقسم على الله لأبره، وعن اللصوص الذين صاروا أولياء، واللعوبات اللاتي صرن عابدات قانتات.

وزفر متألمًا، وقال:

ـ أنت حكمت على الأمر بظاهره، ولو كنت قد سمعت حفصة وهي تردد على عتبة الأزهر ما قالته رابعة العدوية لعرفت من هي. لقد كان

صوتها مسموعًا لي وهي تبكي وتناجي ربها: «يا إلهي إنني غريبة يتيمة، أرسف في قيود الرق، لكن همي الكبير هو أن أعرف، أراضٍ أنت عني أم غير راض... إلهي أنت تعلم أن قلبي يتمنى طاعتك، ونور عيني في خدمة عتبتك. ولو كان الأمر بيدي لما انقطعت لحظة عن خدمتك، ولكنك تركتني تحت رحمة هذا المخلوق القاسي من عبادك».

وكان المخلوق القاسي رجلًا من الشلاق[٢]، التقطها من أمام الأزهر ذات ليلة، ووجدها بنتا غريرة، طيعة، فساقها إلى الحرام.

والتقط صفوان أنفاسه المبهورة وقال:

ـ حفصة بنت وليٍّ من أولياء الله، لكنها تشردت بعد موته.

ـ بنت وليٍّ وتمضي في طريق مكروه؟!

ـ عضها الجوع، ولم يكن هناك بد، وعسلها جذب إليها ذباب الخلق.

وانقطع فجأة، فقد اقتربت منّا، وفي يدها إبريق كبير وطست صغير، مدته إلى صفوان، وقالت له:

ـ صب على يد صاحبك.

ثم جاءت بالطعام راقدًا في قلب ثلاث سلاطين موضوعة فوق صينية، وأقسم صفوان أن تجلس بجانبه، فأزاحت طستًا مكفتًا بفضة متآكلة، وراحت تلملم جسدها استعدادا للجلوس بينما هو يقول:

ـ عاكف أخي الذي لم تلده أمي.

وسألتني عن مسقط رأسي فقلت لها:

ـ الصعيد.

تاهت، ومدت ناظريها إلى البعيد، وكأنها ترى أيامها التي راحت، وقالت:

ـ هناك قضيت أغلى أيامي وأحلاها. كان أبي رجلًا صالحًا، لكنه انخطف إلى طريق لا يعود من يمضي فيه، تعلق قلبه بشجرة مباركة، موجودة خفية، ضائعة موجودة، وعلم الناس أنه قد اقترب من سرها، فراقبوه، وكل له مآربه، فلما قبض، ظنوا أن السر معي فطاردوني، ولم أكن أعلم شيئًا، فلذت بفرار من بلد إلى بلد حتى حط هنّا رحالي.

كنت أسمعها بعناية وقلق، وكأن موجًا عاتيًا يتقاذفني، أو ربّما صرصرًا تدفعني يمنة ويسرة، فلما انتهت، همست في أذن صاحبي:

ـ الدنيا ضيقة.

رفع هامته إليّ متعجبًا لكنني كنت أرفع وجهي إلى حفصة وأسألها في عجب:

ـ هل أنت بنت الحاج حسين؟

امتلأ وجهها دهشة، وسألتني بصوت لا يخلو من انزعاج:

ـ أتعرفه؟!

قهقهت حتى كاد صدري أن ينخلع، ثم أغمضت عيني وتنهدت بقوة، وقلت لها:

ـ حللت أنا بالمكان الذي غادرته.

فرفعت وجهها في دهشة وقالت:

ـ أتقصد الخُص؟

ـ ليس غيره.

ـ ألا يزال على حاله.

ـ كما تركته، لم ينل منه شيء، يتمايل مع الريح، وتضرب شمس الصيف الحارقة جنباته، لكنه وتد مثبت في عناية، يقول الناس هناك إنها عناية الله، الذي كان الحاج حسين يهيم فيه عشقًا.

فتنهدت وقالت:

ـ كان صوامًا قوامًا، صافي النفس، لم يضمر لإنسان شرًا أبدًا، ينام كجدول صاف، ويستيقظ كشلال هادر، عاطفة حارة، وذهن متوقد، ونفس تواقة إلى الاكتمال.

ونظرت في عينيَّ صفوان وقلت:

ـ وفية لوالدها.

فقال:

ـ كانت له أفعال عجيبة، وأمور فوق النواميس. كلما حكت لي من حكاياته تمنيت لو رأيته يوما، وأخذت العهد على يديه، وصرت واحدًا من مريديه، أنام تحت رجليه، وأذني لا تسمع سوى كلامه، وعيني لا ترى سوى وجهه الذي ينيره الورع، يأمرني فأطيع، ويبتسم لي فتقبل الدنيا عليّ.

فضحكت وقلت:

ـ وكأنك لست تلميذ القناوي العظيم.

فقال:

ـ القناوي كان نوعًا آخر، رجل فقه وثورة، يرى الدين قوة تقتلع الظلم وتنشر العدل وتنتصر للحرية. أما الحاج حسين فكان يروم المحبة ويترك نفسه تسري وراء الحقيقة بلا كلل، أخلص فتلاشت المسافات بينه وبين خالقه، فصار عينه التي يرى بها، وأذنه التي يسمع بها. وظني يا عاكف أن الأمرين لا ينفصلان، امتلاء الروح وسمو الأخلاق والعمل والاجتهاد، العبادة وعمارة الأرض.

هززت رأسي، وتملكتني رغبة جارفة في رؤية القناوي، نسيت معها ما حذرني منه والي منفلوط، فقلت لصفوان متلهفًا:

ـ أريد أن أرى القناوي يا صفوان.

ربت كتفي وقال:

ـ عظم الله أجرك.

ـ أمات القناوي؟

ـ قبل أيام.

ـ لم يحدثني أحد عن هذا.

ـ وهل يعرفك أحد هنا؟

ـ أمثله يذهب هكذا في صمت، وهو الذي كان يملأ الدنيا ضجيجًا؟

ـ لم يجرؤ الناس على السير في جنازته. حمل أهله النعش ودفنوه وعادوا إلى منازلهم.

ـ وأنت يا صفوان؟

ـ زرت قبره ليلة أمس.

ـ تغيرت يا صفوان.

فابتسم وقال:

ـ ومن منا لا يتغير، أنت أيضا لم تعد تعنيك سوى الحقيقة، أما الشريعة فلم تعد من طلابها المخلصين، كما كنت أيام القناوي.

وهمست نهار في أذني:

ـ لا تضيع وقتا واسألها عن الورقة الغامضة.

وسألتها، فرفعت رأسها، وأغمضت عينيها قليلا، ثم قالت:

ـ سمعت أبي يتحدث عنها، لكني لم أرها أبدًا. كان يؤكد دوما أنه لن يراها إلا موعود.

فأنتابتني خيبة، لكنها تبددت حين قالت:

ـ سمعته ذات مرة يقول إن فك طلاسمها مكنون في كتاب مدفون أسفل جدار شامخ لقصر محارب فاتك، وسيأتي يوم ويستخرجه رجل يمر من هنا.

رنت ضحكة نهار وقالت في حبور:

ـ لا تقصد سواك.

فملت عليها وهمست في أذنها:

ـ لا تتعجلي.

ظنت حفصة أنني أقصدها، فقالت:

ـ لا عجلة في شيء، لكن أبي ما قال شيئًا إلا تحقق.

ونظر صفوان إليّ وقال:

ـ تلت على رأسي الرقية التي علمها لها أبوها، فذهب الفالج، وعدت أدبُّ في الشوارع كما كان دأبي أيام الصبا.

وهمست في أذني نهار:

ـ الرجل لا يكذب، كان أبوها مخلصًا فانفتحت أمامه كل الأبواب، وعرف عن الشجرة المباركة أكثر مما يعرف ملكنا الكبير.

شعرت بغصة في حلقي، لأن الفرصة لم تسنح أبدًا للعيش إلى جانب الحاج حسين، لأنهل من الحقيقة، كما نهلت من الشريعة ذات يوم بين يدي القناوي، وعرفت منه أن الدين ثورة عظيمة، أخمد البشر جذوتها المباركة حين حولوها إلى طقوس يؤديها أغلبهم بلا تدبر، ولم يعرفوا أن نفاق السلاطين الجائرين من أكبر الكبائر، وأن الاستسلام لأحكامهم الظالمة وكأنها قدر محتوم شرك خفي بالله. علمني القناوي كيف أجاهد من أجل الحرية، لكنه لم يعلمني كيف أحرر نفسي أولا. كنت أصرخ في صحن الأزهر والشوارع الخلفية في آذان الناس كي ينفضوا الخوف من قلوبهم ويتبعوا القناوي إلى القلعة في يوم الخلاص الكبير، وكان يصرخ داخلي جوع جارف إلى الطيران. طالما صعدت إلى سطح البيت المتداعي الذي كانت حوائطه تسترني وراقبت الطير الذي يمرق محلقا في الفضاء الرحب، وأغمضت عيني ورفعت ذراعيّ ورفرفت، وخلعت روحي من جسدي الضامر، وأطلقتها تحوم حول شواشي النخل، ثم تصعد إلى عمق السماء البعيد. ربما لو

قابلت الحاج حسين، وأخذت عليه العهد، وشربت من ريقه، لكنت طرت دون أن أبرح مكاني.

نظرت إلى حفصة فوجدت في جبينها نورًا غامضًا. قلت في نفسي: أورثها أبوها شيئا.

سمعت زفرة نهار، مملوءة بوجع، ثم مالت على رأسي وقالت:

ـ لا تشطح بعيدًا.

فأعدت بصري إلى وجه صفوان، وحلت برأسي فجأة صورة محمد القشيري، فسألته عنه. مصمص شفتيه وقال في أسى:

ـ مات في السجن.

لكني شطحت بعيدا هذه الليلة. لم يزر النوم عيني، وجلست في مخدعي هائمًا في ملكوت الله، وكانت نهار قد فارقتني إلى أهلها ملبية طلب والدتها، فسكن الصمت جانبي، وشردت ما وسعني الشرود، ونسيت السلطان الذي سأقابله في الغد، وأصحبه إلى قصر المحفور تحت جداره، لنجد ما كنا نبحث عنه من سنين، ونقترب من الحقيقة التي أرقتنا طويلًا. ولاح أمام ناظري «خص» الحاج حسين، الذي انطلق منه ذات يوم إلى الشاطيء الآخر وسجد بلا حراك.

في الصباح ذهبت إلى القلعة فوجدت السلطان جالسًا والجرة أمامه. كانت محتوياتها قد عادت إليها، واستقرت في قعرها، وكان السلطان شاردا هو الآخر، لكن في شيء غير الذي انتابني مع نور الفجر.

عاد السلطان من شروده وسألني:

- متى نفك الطلاسم؟

هززت رأسي وأجبته:

- حين يريد رب العباد.

ونظرت من النافذة إلى الآفاق البعيدة، لعلي ألمح نهار تهل هناك، لكن الفضاء كان صافيا، فعدت كسيرا، وشعرت بعجز عن فعل أي شيء. وتيقنت من أنني لم أعد أستطيع أن أفعل أي شيء بدونها، ووجدت نفسي أتساءل صامتا: هل أفادتني أم أهلكتني؟ لم يأت جواب سريع، فلذت بسكوت، قطعه السلطان ملحًا من جديد:

- نريد أن نصل إلى المراد.

وجدتني أقول له:

- لكلٍّ موعد محدد، هذه الصرة لن تبوح بأسرارها إلا عند منتصف الشهر العربي، وكما يعرف مولاي الهلال ولد أمس فقط، خيط مقوس في السماء، حين يتعافى ويستدير ويمتلئ بالنور، يمكننا أن نصل إلى شيء.

وتعجبت من نفسي التي استطاعت أن تلقي هذه الكذبة سريعًا، وتملكني شعور متضارب، بين فرح الخروج من هذه الورطة، وحزن لأنني ألفت الكذب، وجرحت أهم ركن بنى عليه القناوي مساره الذي لم يقدر له أن يكتمل. كان ينظر في عيوننا ويقول بثقة: الصدق نجاة، ثم يصمت قليلا ويردد: رسولنا اسمه «الصادق الأمين» لو لم يكن كذلك ما آمن الأوائل برسالته سريعا. التزم الصدق حتى في أحلك الظروف، ثم يقص علينا:

«قبيل المعركة التي كان المسلمون يدافعون فيها عن دينهم وأرضهم وعرضهم، قام الرسول ﷺ ومعه أبو بكر الصديق يستكشفان أحوال جيش المشركين، وهما يتجولان في مكان قريب من بئر بدر لقيا شيخا من العرب، فسأله الرسول عن جيش قريش وعن محمد وأصحابه، وما بلغه من أخبارهم، فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟ فقال له الرسول: إذا أخبرتنا أخبرناك. فقال: أو ذاك بذاك؟ قال: نعم. فقال الشيخ: فإنه بلغني أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا، وكان هو المكان الذي نزل فيه جيش المسلمين، وبلغني أن قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا، وكان هو المكان الذي عسكر فيه جيش المشركين فعلا، ثم قال الشيخ: لقد أخبرتكما عما أردتما، فأخبراني ممن أنتما؟ فقال الرسول: نحن من ماء. ثم انصرف ومعه أبو بكر، وتركا الشيخ يتساءل: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟»[٣].

كان القناوي يحكي القصة كما وردت في سيرة ابن هشام ويقول: تعلموا من رسولكم ألا تكذبوا حتى في أحلك الظروف وأقساها، وحتى ولو كنتم تخدعون عدوكم قبل النزال. الرسول أجاب: أنه من ماء، فما أعطى الرجل جوابًا يضر جيش المسلمين، ويعرضه هو نفسه ﷺ للخطر، ولكنه في الوقت ذاته لم يكذب قط، فجميعنا خلقنا من ماء مهين، وكل منا أيا كان لونه أو جنسه هو من ماء.

لاحظ السلطان حيرتي فقال:

ـ لتسترح يا شيخ عاكف، ونقابلك حين ينتصف الشهر.

وهممت بالانصرف لكنه استوقفني فجأة:

ـ لماذا لم تخبرنا بالأمس أننا نحتاج إلى الانتظار كل هذه الأيام؟

فأجبته دون أن أبذل أي جهد في صناعة الجواب:

ـ كل شيء بأوان يا مولاي.

هز رأسه، ومد يده مشيرا إلى الباب، فخرجت صامتا.

عدت إلى القصر الذي خصصه السلطان لإقامتي المؤقتة، والحيرة تأكلني من تأخر نهار. وانتابني في هذه اللحظة شعور لم يخالجني من قبل، أحسست معه أن حاجتي إلى نهار لا تتعدى مساعدتي في فك الطلاسم التي وجدناها في الجرة. رحت أستعرض محتوياتها، الرمل ناصع البياض، وقطعة الصخر السوداء المفرطحة، والحروف الغريبة المحفورة عليها، وبذرة المانجو، وقطعة الجلد التي كانت ترقد داخلها، ومسحوق التحنيط العجيب. ثم سرحت في حكايتي مع نهار، الحسناء العجيبة التي خايلتني في ساعات البكور، وخطفت روحي، ولم يستقر لها حال حتى خالط مائي ماءها.

سرى الليل ثقيلًا، وحملت الريح لي صوتًا يصرخ، فوقفت في شرفة القصر، وأرسلت ناظري في عمق الظلام، فارتسمت هناك في البعيد أشباحًا تتعارك، ثلاثة رجال وامرأة مشتبكون في شجار حام. أصغيت فعرفت أنهم جماعة من الحمارين مختلفون على الكراء. ناديت الحارس فأتاني مسرعًا، استفسرت منه عما يجري فقال بصوت خفيض:

ـ الناس تتشاجر من سوء الحال وضيق العيش. حمارون يتعاركون على توصيل رجل، كل منهم يريد أن يحظى هو به، وامرأة أحد الحمارين ضربت رأس حمار آخر بعصا غليظة، فانبجست منها دماء. المرأة تضرب وتصرخ، وزوجها يعافر تحت جسد الحمار السمين. رجل كالثور، رقد عليه حتى كاد أن يزهق روحه.

وصمت برهة ثم واصل:

ـ الناس جوعى والسلطان لا يعرف ما يجري... أخبره يا شيخنا لعله يعرف ظلم حاشيته.

فابتسمت وقلت له:

ـ من اختار الحاشية؟

لاذ بصمت واستأذن في الانصراف، لكنني أبقيته، وقلت له:

ـ أتهرب من الحق؟

فقال:

ـ يا شيخنا نحن كالهوام، ليس لنا إلا أن ندور ونلف من بعيد، ولا نقترب أبدًا من النار.

طلبت منه أن يجلس فأبى، فأمرته فجلس ساكنا لا يريم، ثم التفت حوله، وهمس في أذني:

ـ عرفت أنك هنا لأن السلطان يسعى وراء كنز مطمور، يقال إنه شجرة مخفية، جذورها من الماس، وفروعها من الذهب الخالص، وأوراقها من الياقوت والمرجان.

فنظرت إليه مليا وسألته من أين له بما يقول، فابتسم، ورد وهو يتنهد:

ـ لا شيء يخفى في بلادنا، ولو كان في حرز حريز. منذ زمن ونحن نعرف الرحلة التي قطعها السلطان إلى مكان الشجرة... منذ أيام عرفنا أنه وجد إليها سبيلًا بقدومك يا صاحب الكرامات، ومنذ ساعة واحدة قبض جند السلطان على رجل اسمه صفوان كان يحكي للناس في المسجد بعد صلاة العشاء عن السلطان الغارق في ملذاته وكنوزه.

ولسعني اسم من ذكر، وكأن خنجرا طعن صدري، وقلت له:

ـ صفوان من؟

ـ يقال إن اسمه: صفوان الفيومي.

فأيقنت أنه صاحبي، وقلت في نفسي:

ـ لن يتغير، لا يكتم سرًّا، ولا يستطيع أن ينام ليلة واحدة وفي رأسه شيء يلح عليه.

وتذكرت القناوي الذي كان يقول عنه دائمًا:

ـ شجاع، لكنه أهوج، لسانه يجلب له المتاعب، والسر بين جناحيه كالجمر لا يستطيع له حملا.

وطال الصمت، ونظرت إلى الحارس فوجدته يدلي رأسه نوما، فقلت له:

ـ يمكنك أن تذهب إلى بيتك الليلة، وعد في صباح الغد.

فتثاءب وقال:

ـ لا يمكنني أن أبرح مكاني هذا، أنا في خدمتك يا شيخنا، ولا تقلق سأفتح عيني، فيهرب النوم إلى غير رجعة، وأبيت ساهرًا عند بابك.

ابتسمت وقلت له:

ـ يحتاج الحاكم الظالم إلى حراس يمنعون عنه غضب الرعية، ويحتاج الأثرياء إليهم ليحموا أكداس أموالهم، أما أنا فلست في حاجة إلى حراسة.

لكنه قال في عناد:

ـ كيف يا شيخنا، وأنت الأمين على شجرة الجواهر، كنز السلطان الذي أعيته الحيل حتى يصل إليه.

فأغضبني قوله، لكنني كتمت في نفسي وقلت:

ـ أنت ترد على نفسك يا رجل، جلبني السلطان لأن الله فتح أمامي فرجة من الغيب، وأمثالي ترعاهم السماء.

هز رأسه ممعنا وقال:

ـ لكن إن مر كبير الحراس ووجد دركي خاليا سيعاقبني، وهو رجل غليظ القلب لا يرحم.

فقلت له:

ـ سأشفع لك عنده، وأقول إنني أمرتك أن تغادرني، وأنك تمنعت فألححت عليك حتى فارقتني على غير رغبة منك.

وما إن اطمأن، حتى عدل وضع سيفه على جانبه، ثم استأذن، وذهب صامتا.

وحين غاب في الظلام، تسللت وراءه حتى ابتلعني طريق جانبي يؤدي إلى باب الفتوح.

كان السواد شاملا، بعد أن أطفأت الحوانيت قناديلها، وران صمت مقيم على الشوارع والحارات، لم يقطعه سوى نباح الكلاب، وسعال رجل مصدور، يكح ويبصق ثم يسكت برهة ويعود إلى نهيجه من جديد. ولما اقتربت من بيت صفوان أتاني صوت نسائي يقرأ القرآن في تبتل وعذوبة رخية. أصغيت فأدركت أنه صوت حفصة. طرقت الباب، فسمعتها تنهي: «صدق الله العظيم» ثم قالت: ادخل يا صفوان، ما الذي أخرك؟

فتنحنحت وقلت بصوت خفيض:

ـ أنا عاكف يا سيدتي.

ففتحت فرجة ضيقة من الباب وقالت:

ـ صاحبك ذهب إلى صلاة العشاء ولم يعد إلى الآن.

فقلت بصوت يغلبه الحزن والانكسار:

ـ عاب على السلطان في المسجد فوشى به العسس فقبض عليه.

زفرت متألمة وحدجتني بنظرة معاتبة وقالت:

ـ ما دمت تعرف كان يجب أن تذهب إلى القلعة لتطلب من السلطان أن يطلق سراحه، لا أن تأتي إلى بيته وأنت تعرف غيابه.

فقلت لها معتذرا:

ـ جئت لأتأكد من الخبر أولا، وبعدها سيحدث ما تطلبين.

لمعت في الضوء الشحيح لقنديلها المعلق على جدار الحائط دموعا تبرق في مقلتيها، ثم وجمت برهة وقالت:

ـ لا تترك صاحبك.

تراجعت خطوة إلى الوراء، وقلت لها وأنا أستدير لأرجع من حيث أتيت.

ـ إن شاء الله سيبيت الليلة المقبلة في بيته.

خرجت من عندها لأجد نفسي أسير صامتا إلى القرافة لأزور قبر شيخي القناوي.

(١٤)

عدت إلى قصري المؤقت والحيرة تنهش روحي ولحمي. قضيت الليل في أرق، وحين نضح النور من خصاص النوافذ، مضيت إلى القلعة. في الطريق أرهقت ذهني في البحث عن سبيل إلى عقل السلطان وقلبه، لكن ذكرياتي مع صفوان تغلبني. كان أنشطنا وأخلصنا، يتقافز في صحن الأزهر دون كلل ولا ملل، وينقل الأخبار التي تجري في الخارج كأنه قد خلق لكتابة التاريخ، وحين يكلفنا القناوي بأن نفعل شيئًا يتقدم صفوان الصفوف. هو فقير مثلي فأحببته، وحين تنفد فلوسي يعطيني من القليل الذي بحوزته. هو أخي الذي لم تلده أمي. لا أنسى اليوم الذي تعاهدنا فيه على الصحبة مهما توالت عاديات الدهر.

اقترب مني يومها وقال في ثبات: أعطني كفك، فمددتها إليه، فقبض عليها بأصابعه العشرة وقال: لنكن معا في السراء والضراء. لكن ما جرى كان أكبر منا، خلعني منه، فهربت جنوبًا، لكن روحي ظلت معلقة به، حتى وأنا هناك في الفضاء البعيد، لم أنسه. حلمت

كثيرًا بأن أجده، وكم تألمت حين لم أعرفه من الوهلة الأولى وهو يضرب الأرض بفاسه تحت قصر شهاب الدين.

ما إن وصلت القلعة حتى طلبت مقابلة السلطان، فأمهلوني لأن الحمام الزاجل حمل إليه رسالة من ميدان المعركة، دفعته إلى طلب بعض أمراء المماليك وعلماء الأزهر. دخل عليّ كبير الحرس وقال في لهفة:

ـ جئت يا صاحب الكرامات، كان السلطان سيرسل إليك.

ثم ابتسم:

ـ لا بد أن النبأ جاءك من وراء الحجب، فأتيت ولم تتأخر.

نظرت في عينيه مليًا وسألته:

ـ لِمَ يريدني مولانا؟

ـ سيطلب منك أن تفيده عن مصير المعركة حامية الوطيس التي تقع الآن في عرض البحر.

ـ ألم تفده الرسائل بشيء؟

ـ شهاب الدين يطلب مددا، والسلطان يسعى في تدبيره.

ـ ذهب برجالنا الأشداء ويطلب المزيد؟!

ـ وجد جيش الفرنجة أكبر عددًا وأقوى عتادا، وهو لا يريد إلا أن يستولي على قبرص وردوس، اللتين تنطلق منهما الحملات البحرية التي تهدد بلادنا.

أومأت برأسي، ولذت بصمت عميم، وتاه خاطري في فجاج

لا نهاية لها، وغلبتني كآبة، وأنا أقول لنفسي: كيف أفاتح السلطان في أمر صفوان وهو الغارق في خوف جارف على ملكه، الذي يمكن أن يزول تحت ضربات الفرنجة.

مرت ساعات وأنا جالس في مكاني، أمامي صحن به تمر وإبريق من القهوة، ألتقط واحدة وأشفط وراءها جرعات من هذا السائل المر اللذيذ. فجأة جاءني كبير الحرس وقال:

ـ مولانا في انتظارك.

دخلت عليه فوجدته متجهما، يغرس أصابع يده اليمنى في جانب رأسه، ويميل على كوعه المثبت على مسند كرسيه المذهب. بصره زائغ. اقتربت منه وحييته، فرد التحية من دون أن يلتفت إليَّ، وعاد إلى شروده، بعد أن عدل وضعه على الكرسي، ثم فجأة قام من مكانه، وتقدم خطوات نحوي وقال:

ـ جئت لتساعدنا في نيل خيرات الشجرة المباركة، فوجدت أمامك ما هو أولى.

التزمت الصمت، منتظرًا أن يواصل حديثه، ويفسر ما أجمله، فلم يتأخر الجواب:

ـ انتظرنا الجواهر فجاءتنا ذات الصواري.

ـ أتقصد الحرب؟

ـ ليس غيرها.

ـ كلي آذان مصغية يا مولاي، لك الأمر وعلينا الطاعة.

ـ أريد طالعك لأعرف إلى أي بر سترسو حربنا ضد الفرنجة.

أبعدت عيني عن ناظريه، وأطرقت كسيف البال، فوجدته يقول في أسى:

ـ جوابك بان يا شيخ عاكف.

أعدت بصري إليه وقلت:

ـ تفاءل يا مولانا، فالنصر قريب.

ـ أرسل شهاب الدين في طلب مدد، وتدبيره ليس بالأمر اليسير. أرسلت معه جنودنا الأشداء، وأمراء المماليك يرفضون الاستغناء عن حراسهم ورجالهم الذين يستعملونهم في تحصيل المكوس وضبط الأسواق، وليس أمامي سوى أهل البلد، وهم لا دراية لهم بالحرب وفنونها.

ـ لكنها بلدهم يا مولانا، والدفاع عنها فريضة.

ـ الحروب لا تحسم بالنوايا الحسنة.

ـ لا بد أن بينهم من يعرف كيف يضرب بسيفه، ويرمي برمحه، أو حتى يعمل في سقاية الجند وتطبيبهم.

فهز رأسه وقال:

ـ طلبت من علماء الأزهر أن ينادوا في الناس إلى الجهاد، وسنختار من بين المتطوعين من يصلح، لكن قلبي غير مطمئن إلى قدرة هؤلاء على مجالدة العدو.

همست لنفسي:

ـ يهمك الحفاظ على عرشك، ولا يضنيك أن تلقي بالغلابة والمفلكين والمفلسين إلى التهلكة.

وواصل السلطان:

ـ أنت تؤمن بالعوام وتثق فيهم يا شيخ عاكف لأنك من أهل البلد. إنهم لا يجيدون إلا الضرب بالفئوس والتقول على سلطانهم.. ظلوا يتهامسون سنين طويلة عن سعيي وراء الشجرة الكنز، حتى تجاسر أحدهم وجهر بالقول في الناس بصحن الأزهر، جهر ولم يخف، وهذه بداية خروج الناس عليّ، فكان لا بد أن نقتل الفتنة في مهدها.

ـ أتقصد الرجل المخبول الذي يدعى صفوان.

امتلأت عينا السلطان دهشة وسألني:

ـ كيف وصل إليك الخبر؟

فابتسمت وأجبت على الفور:

ـ جاءني هاتف في المنام، وقص عليّ كل ما جرى.

ابتسم هو أيضا، وقال:

ـ أقال لك هاتفك اسمه؟

ـ صفوان الفيومي.

فامتلأ وجهه دهشة، وهز رأسه مصدقا، ثم تهللت أساريره، وقال:

ـ دليل آخر على كراماتك يا شيخنا، وستكتمل الأدلة والمعجزات حين تأتينا أنباء النصر، ونصل إلى الشجرة الموعودة، التي لهثت وراءها حتى وهن العظم والعزم مني، واشتعل الرأس شيبًا.

وتعجبت كيف انفتح الباب أمامي لأنقذ صفوان، وكيف لصاحبي أن يساعدني في إقناع السلطان بأن لي خوارق، وأعمالًا فوق النواميس.

تنحنحت، وأطلقت نصف كلمة، ثم أمسكت لساني، فرفع السلطان حاجبيه وسألني:

ـ أتريد أن تقول شيئًا؟

فقلت على الفور:

ـ وعظني الهاتف بما يحقق لمولانا مراده، وطرح شروطًا حتى تسير الأقدار في مجراها الطبيعي.

ـ عن أي شيء تتحدث؟

ـ أطلق سراح صفوان يا مولانا.

قهقه وقال:

ـ أتأمرني، وبما لا تريده نفسي؟

ـ حاشا لله يا مولانا، لكن هاتف الليل هو الذي طلب هذا، وبت مؤرقا، خوفا من أن يقع محظور، فلما بانت الشمس من سن الجبل، هرولت إلى القلعة.

ـ لكنني أمرت أن يصلب بعد صلاة الظهر، ويعلق على باب الفتوح، ويكتبون فوق رأسه: هذا جزاء من يخون ويشيع الفاحشة وينشر الفتنة.

- صفوان رجل بسيط، لسانه يغلب إرادته، وما قاله لا دليل لدى الناس عليه، إنما هي أقوال مرسلة، ستطير في الهواء، أما صلبه وقتله، فسيعطي ما ثرثر به قيمة، وسيعرف من لم يعرف حتى الآن أصل الحكاية... من يدرينا لعل صلبه يهيج الناس فيتمردون والجيش بعيد، وقد يشجع هذا المترددين من أمراء المماليك لينقضوا على عرش مولاي، وهم كما تعرف يتربصون بك حتى تسنح الفرصة، فأمسك عليك غضبك وألجمه، وأعفُ وأنت الحليم.

صمت برهة وقال:

- وما يدريك لو أطلقنا سراحه ألا يعود إلى ما قال فيكون استمرار حياته وبالًا عليّ.

ثم عاد إلى صمته، وقطعه مكملًا:

- نسجنه فلا يسمعه أحد بعد اليوم، أو نقتله سرا وندفنه، فيموت كلامه معه.

ابتسمت وقلت له:

- الكلام لا يموت يا مولانا، إنما يحيا أحيانا حين يجد سبيلًا إلى ذلك، وسجن صفوان أو قتله سراء، سيجعل الناس تتساءل عن سر اختفائه، وعندها سيسري نبأ الشجرة المباركة كما تسري النار في الهشيم.

حملق فيّ واكتسى وجهه بغضب شديد، وقال:

- أنت على وشك أن تطلب مني أن أكافئه على إساءته إليّ.. لقد أعطيت أمرًا ولا رجعة فيه.

لن يأتي العصر إلا وهذا الرجل قد قُبر.

وجدت في الرجل عنادًا وعزمًا على هلاك صفوان، فجفلت معه، وتذكرت ما يحكيه الناس عن تعطشه الدائم للدماء، وعن صلفه وتجبره، وحبه لاستعطاف علية القوم له. كان أحيانا يشعر بملل فيأمر بالقبض على حارس مفضل عند أي من الأمراء، ويقضي بقتله، فيأتيه الأمير مستعطفًا. يتلذذ بذله واسترحامه. يخرجه من عنده مكسور الخاطر، فيأتيه بأمير آخر، وهكذا حتى يجتمعوا تحت عرشه، ويوسعوه مدحًا وتذليلًا، فيفرج عن الحارس المسكين، الذي لا يعرف لماذا قبض عليه؟ ولماذا أفرج عنه؟ كان هذا يجري دومًا أيام قوته، فلما أضعف شهاب الدين منه، ونال من هيبته، وتذمر منه الأمراء تباعا، وكرهته الرعية، التي كانت في أول أيام حكمه، تعوِّل عليه وتعتقد في أن عهده سيكون عدلًا وسلامًا ورغدًا على الجميع.

* * *

اليوم وجد السلطان في صفوان ما يشبع جوعه إلى المدح، لكنني كرهت منذ نعومة أظافري التذلل لأهل الحكم، ووصفهم بسمات ليست فيهم لمجرد استرضائهم. كنت أيام الصعلكة غني عن هذا، وطالما سمعت القناوي العظيم يقول فينا: السلطان من ابتعد عن السلطان.

لكن حياة صفوان عندي غالية، وإخلاصه القديم لا يزال مستقرًا في أعماقي، وما أدراني، بل من المؤكد، أن ما أشاعه عن سعي السلطان وراء الكنوز بينما الناس جوعى تتساقط في الطرقات إعياء من فرط السغب، كان مقصودا لينبه السادرين والغافلين إلى ما يعيشون من بؤس، فينفجرون في وجه من أورثهم الفاقة والمسكنة.

لكنني كنت أعرف نقطة ضعفه، المنفذ الأوسع الذي يطرحه أرضا، وينزله من علياء غطرسته، إنه الجوع المتجدد إلى الثروة. اقتربت منه وقلت له في نبرة تكسوها جدية ظاهرة:

ـ لو قتل صفوان ستتغير الأحوال.

فحدجني بشواظ عينيه وسأل في ضيق وتبرم:

ـ أي أحوال؟

ـ قد لا ينتصر الجيش، وينقطع الخيط الذي نمسكه وراء الشجرة المباركة.

قهقه عاليا وصرخ كأنه حيوان يجأر:

ـ كل هذا من أجل ذلك الجربوع؟

ـ ليس من أجله، لكن اعتراضًا من القوة الخفية التي نستحضرها ونسترضيها على سفك الدماء.

ـ لا أفهمك اليوم يا شيخ عاكف.

ـ الهاتف الذي جاءني أمرني بأن أسدي لك نصحا، وقال لي بلهجة قاطعة: حياة العبد الفقير وراحة بدنه وإلا لن يصبو السلطان إلى ما يريد.

صرخ على الحاجب فأتاه مسرعًا. أمره أن يطلب كبير الحرس، فجاء يلهث. قال له وكأنه يتجرع كأسًا من السم:

ـ لا تقتلوا صفوان حتى أقضي فيه من جديد.

ثم التفت إليّ:

ـ أورثتنا عقدة جديدة كنت أظن أنها قد حلت إلى الأبد.

ـ ليست هناك عقد يا مولاي.

ـ كيف، وأنت تطلب راحة بدنه، وهذه لا تحصيل لها إلا بحريته، وحياته، وتلك تعني ألا نقدم على قتله، فإذا كان لا سجن ولا قتل فماذا بربك أفعل فيه؟

ـ نتركه لقدره، فإما أن يحيا أو أن يقتل بيد غير يد مولاي.

ـ لا تلغز من جديد يا شيخ.

ـ لا لغز ولا أحجية، بل تدبير محكم، نؤجر عليه، ويكفينا الله أي شرور تأتي منه.

ـ أهناك أجر من وراء ذلك الصفوان المخبول؟

ـ إذا أرسلناه مع المدد الذاهب إلى قبرص ورودس نكون قد أجرنا عنه، فإن قتل فقد مات شهيدا، وإن عاد نشترط عليه ألا يثرثر.

قهقه السلطان ما وسعه وقال:

ـ وما يمنعه من أن يثرثر مع المدد في طريقه إلى البحر الوسيع، فيصل خبرنا إلى شهاب الدين، فتقع الواقعة.

صمت برهة ثم صرخ:

ـ لا حل إلا قتله، وسندفع دية كبيرة إلى أهله، فيترحمون عليه ويشكروننا، لأننا أغنيناهم بعد طول فاقة.

ـ هاتفي أمرني بما نصحتك به، ولا قولا جديدا لديّ.

وفكر السلطان برهة وقال:

ـ أله ذرية؟

ـ له عيال توفت أمهم.

أمر السلطان كبير الحرس بالبحث عنهم، فجاءه في اليوم التالي يقول:

ـ لا أثر لهم، سمعوا أن أباهم قبض عليه فهربوا وتفرقوا في البلاد... لكن له زوجة تعيش وحيدة في بيته الجديد تنتظره.

فضحك السلطان وأمره:

ـ إليَّ بها.

وجاءت حفصة مكبلة في أغلال ثقيلة. فلما دخلت على السلطان طلب مني أن أفك أغلالها، ثم أمرها بأن ترفع البرقع، فأشرق حسنها في عينيه، ورأيته يتلمظ في شهوة وافتتان. دفعني ما حل بالسلطان إلى أن أمعن النظر في وجهها، وكنت أواري عنها ناظري من قبل، يوم ذهبت إلى بيت صفوان بصحبته، ويوم كلمتني من وراء الباب الموارب. برق بخاطري أمر لم أتبينه، لمع وانطفأ وترك وراءه حيرة وشرودًا، لم أفق منه إلا حين اقترب منها السلطان وقال:

ـ كان الأولى بهذا المخبول أن يلزم داره، فلا يبرح هذا الجمال الفتاك، وبدلًا من أن يهذي بما لا ينفع، أن يجلس القرفصاء أمام من لا يستحقها ويقرض فيها غزلًا يهز القلوب.

فتدللت في خفر وقالت:

ـ يا مولاي، صفوان رجل فقير، يحبك، ولا يضمر لك شرًّا.

صرخ فيها:

ـ وهل يقدر هذا الصعلوك على أن يفكر في أي أمر يضرني؟

ثم نادى كبير الحرس:

ـ إليَّ بصفوان.

وجاءوا به وقد ضمر جسده، وانكسرت هامته، فلما رأى حفصة اندهش وملأ الفزع ملامحه، لكن لم يلبث أن تماسك وقال للسلطان:

ـ قطعوني إربًا، وألقوا بلحمي للكلاب، ولا أحد يمس زوجتي.

فلم يمهله السلطان وقال على الفور:

ـ عفونا عنك، أما زوجتك فستبقى لدينا حتى تعود من الحرب.

نظر إليَّ مستفهمًا فقلت له:

ـ مولانا عفا عنك، لن تصلب، بل ستذهب مجاهدا، وستبقى حفصة لديه، أمانة عنده ـ واتكأت على كلمة أمانة حتى كدت أن أحفرها في وجه السلطان ـ ليضمن ألا تثرثر بما قلت في ذهابك ورواحك، فإن صنت السر، وحفظت العهد، ستعود لتأخذ زوجتك وتمضي إلى حال سبيلك.

لكن صفوان لم يستوقفه في كل ما أفضيت به إلا عند «ستبقى عنده»، فقال:

ـ وما الذي يمنع أن تبقى في بيتها، والحرس يتابعها من بعيد، فإن نكصت فوصولكم إليها يسير، وأنا أعلم ذلك.

لكن السلطان نظر إليّ وقال:

ـ استسمحتنا يا شيخ عاكف فلم نرد لك طلبا، لكن من شفعت له عندنا يتطاول علينا.

غمزت إلى صفوان بطرف عيني وقلت له:

ـ لا ترهق مولانا يا رجل، وكف عن المجادلة، وإلا ما جاء المساء إلا وأكلت الكلاب من لحمك.

أطرق صامتا، ثم نظر إلى السلطان وقال:

ـ لك السمع والطاعة يا مولانا.

وحين أعطانا السلطان ظهره ذاهبا إلى كرسيه، اقتربت منه سريعا وهمست في أذنه:

ـ لا تخش على حفصة أبدًا.

داس على راحتي بيده، وكان كبير الحرس يتابعنا صامتًا.

ونادى السلطان:

ـ إليّ بعنان.

جاءت عنان كبيرة الخدم مهرولة، فأمرها أن تأخذ حفصة وتعلمها أن تفعل شيئًا مفيدًا في القلعة. وقال لها صفوان وهي تهم بها منصرفة:

ـ إنها تجيد الحياكة.

هزت رأسها ثم سحبتها من يدها ومضت بها إلى الخارج صامتة. واقترب مني صفوان ثم همس في أذني:

ـ تابعها يا عاكف حتى لا يطمع فيها هذا الشهواني، ويضمها إلى جواريه.

خمن السلطان ما يجري من حديث هامس بيننا فقال لصفوان في غلظة:

ـ لدينا منهن ما يكفي يا حرفوش، فاذهب ولا تخف، وأمانها في يدك أنت وحدك، فإن أخلفت فسنفعل بها ما لا يخطر لك على بال.

في اليوم التالي كان علماء الأزهر قد جمعوا الآلاف من الشوارع والحواري، وجاءوا بكثير من الزراع والعربان، حتى امتلأت بهم الساحات التي تحيط بالقلعة. وجاء بعض أمراء السلاح وأمراء العشرات وأمروا بتوزيع السيوف والرماح والحراب والنبال عليهم، ووضعوهم في امتحان عسير. صفوهم على خمسة عشر ألف مقاتل. طلبوا منهم أن يستعدوا للذهاب إلى قبرص ورودس.

كان صفوان من بين الذين تم اختيارهم، ففي أيام القناوي تدرب كثيرا على المجالدة بالسيف، استعدادا لليوم الأكبر، الذي انتظرناه طويلا، لكنه لم يأت أبدًا. لم ينطفئ وهج هذا اليوم المنتظر في قلوبنا، كنت كلما تقدم العمر ازددت إيمانا بقدومه، وكلما كان الظلم يشتد ويعصر في الناس كنت أتمسك به. حتى وأنا ضائع هناك في الفضاء البعيد، أسبح في عالم الجن الأثير، لم يغب عن ذهني لحظة واحدة. حين قابلت صفوان بعد كل هذه السنين، وجدت الحلم لا يزال ساكنا بين جوانحه. فاض في يوم لقائنا ببيته وقال وهو يعض على الحروف:

ـ أيجود علينا الزمان برجل مثل القناوي؟

ثم نظر إليّ مليًّا وقال:

ـ الآن صار لك هيبة ومكانة يا عاكف، فخذ الراية، واكمل بنا المسيرة.

فضحكت من أعماقي ونظرت إلى الجنية التي كانت تستعبدني حتى صرت حطامًا، وقلت له:

ـ لا تحكم على ظاهري يا أخي، فقد جرت في نهري مياه عكرة، ولن تُصفى إلا بمعجزة.

(١٥)

زحف الجيش الجديد إلى عرض البحر، وزحفت في قلبي مشاعر غريبة، كنت أقاومها فتجتاحني، وزحف القمر نحو الاكتمال، فاقترب اليوم الموعود. كنت قد تلهيت عن نهار بمأساة صفوان، لكنني عدت للتفكير فيها بملء كياني، فمن غيرها يخرجني من المأزق الذى أجلته حتى تعود. غزاني خوف شديد، فالسلطان إن لم أفده بشيء عن كنزه المتوهم فقد يصلبني ويعلقني على باب الفتوح، في المكان نفسه الذي كان يعتزم أن يعلق فيه صاحبي. هو تشفعت أنا له، أما أنا فلا أحد بوسعه أن ينقذني من غضب رجل لا يرحم الضعفاء.

مضى الليل ثقيلًا عليّ وأنا أجالس أرقب القمر من النافذة، لأتابع اكتماله البطيء، ويسري داخلي خاطر بأن نهار ستظهر هناك في قلبه المنير، وتهبط عليّ بابتسامة مشرقة. لكن الوقت مر من دون أن تظهر، واستبد بي القلق ولا فكاك منه، وتمنيت ساعتها لو أن بوسعي أن أمرق إلى الفضاء البعيد لأبحث عنها في عالم الجن الساحر.

بمرور الوقت اكتشفت أن تفكيري في نهار لا يتعدى الاحتياج إليها كطريق لمعرفة بعض ما وراء عقلي، وهو ما ينتظره مني السلطان

الطامع. غابت الأنثى اللذيذة وحضرت العرافة المقتدرة. راح وجه نهار الحبيبة يغور، ويحل مكانه وجه جديد، كلما جاء طردته بقوة، ولمت نفسي وأنبتها تأنيبا مفرطًا. أورثني هذا الأمر حزنًا دفينًا، ورغبة طاغية في البكاء، وجلعني أعتقد أن حياتي حلقات متصلة من التعاسة، وأنني لا أقدر على أن أملك زمام نفسي. تذكرت ما كان القناوي يقوله لي دوما: اخلع من نفسك حظ الهوى. فكنت أرد عليه باسمًا: له نصيب في كل قلب يا شيخنا، فكان يربت على كتفي ويقول: قصدت الجري فيما لا طائل منه، والنظر إلى ما في يد غيرك، وتعجل بلوغ كل شيء قبل الأوان.

في الليلة التالية جاءت نهار. كنت أوليَّ وجهي شطر الجدار مستسلمًا لنوبة حزن، فوجدته فجأة ينفلق وينبت منه وجه نهار. سرى في قلبي خوف وكأن هذا المشهد جديد عليَّ. اقتربت مني وقالت:

ـ انتابك خوف، ولم تفرح لرؤيتي.

فزاورت نظري بعيدًا عن ناظريها، وقلت:

ـ ما الذي جعلك تعتقدين في هذا يا نهار؟ ما نسيتك لحظة، الوقت مر كئيبًا في غيابك، واحتياجي لك في ازدياد.

ضحكت في سخرية، وقالت:

ـ تحتاج إلى العرافة المحنكة، وليس إلى الحبيبة.

ـ لا تفتري عليَّ.

ـ أتتصورني أجهل حالك؟

ـ أي حال؟

ـ الحيرة واللهفة وضميرك الذي يؤنبك.

ـ عم تتحدثين؟

ـ الشوق الذي تغالبه، والعار الذي تحاول أن تخفيه.

ـ اشتياق لك، أما العار فلا مكان له عندي.

ـ بل يطاردك وأنت تخونني، وتخون صاحبك، الذي لا تدري إن كنت قد ساعدته على النجاة، أم كنت تفسح لنفسك الطريق للوصول إلى زوجته.

ـ أنت مجنونة، لم يدر بخلدي أبدًا ما تكذبين به.

ـ بل أنت الذي تكذب، لكن ليس بوسعك أن تخدع نفسك، وليس بإمكانك أن تخفي عني ما يسري في وجدانك.

ـ كل هذا الغرور، أتحسبين أنك إله؟

ـ حاشا لله، لكن رب الكون العظيم منحنا قدرة على أن نرى ما لا يراه البشر.

ـ لا تدعي طاقة الشر التي تطفح الآن على قسماتك وحديثك الغريب تفسد ما بيننا.

ـ شر! لم تر مني أبدًا سوى كل خير.

ـ أنسيت ما فعلته بالفتاة التي خطبتها في صباي، أصابها خبل على يديك، وحاصرتني حتى لم أجد مفرًّا من الامتثال لك.

ـ أنت مخطئ يا عاكف، كان بوسعك أن تقاوم، لكنك ضعيف، لم تدرك كنه ذاتك، ولم يلهمك الله بعد، أن تكتشف القوة الجبارة الكامنة داخلك... أنت مخطئ لأنك تتغافل عن أنك عشقتني، وسعيت ورائي، ولما أتيتك هربت مني، وكنت قد تعلقت بك فلم أبرحك. أنا غيرك يا عاكف، لا أفرط فيمن أحب.

ثم صمتت برهة، بينما أنا غارق في شرود وأسى، لكنها عادت تقول:

ـ لم أجبرك على شيء، كان بوسعي أن أحبسك في الفضاء، فلا ترى الأرض مرة أخرى، لكنني لا أؤذي من أحب، طاوعتك وسرت خلفك، وجافيت أهلي في البداية من أجلك، أيها الحبيب الغدار.

ـ تتحدثين عن الحب كثيرًا يا نهار، وتتناسين أنك تسخرينني من أجل أن يصل ملك الجان إلى شجرتنا الأرضية.

ـ أنت أيضا تريد أن تصل إليها، فيما مضى كنت تسير كالأعمى إلى ما أبغيه أنا. أما اليوم فقد أبصرت طريقك، وتطمع أن تنال رضا حاكم مستعد أن يدفع كل ما لديه ليشفي ابنته، وسلطان سيعطيك ما تريد إن أوصلته إلى شجرة يعتقد أنها حبلى بالجواهر. اليوم عرفت القصور، وأصبح جلدك ناعمًا، وروحك مهيضة، وتعاليم القناوي التي طالما كررتها على مسامعي تتساقط من رأسك تباعًا، كما تتهاوى أوراق الشجر في الخريف.

ـ لم أكن يومًا طالبًا لجاه أو مال.

ـ كنت كذلك فيما مضى، ويطرأ عليك في هذه الأيام ما ليس في طبعك. أوهام تسري داخلك كسم زعاف، يقتل ببطء وأنت لاه عنه.

ـ لم أتغير، أنت التي تغيرت، قديما كنت أشعر أنك تلهثين وراء الحب، أما اليوم فأنت تجرين من تحت إبطي وراء الشجرة المباركة، لترضين ملككم الطامع، الذي لا يختلف كثيرا عن سلطان القلعة.

وجدتها تنظر في عيني بتشف واشمئزاز، وتقول:

ـ شجرتكم لم تعد تلزمنا.

ونزل كلامها على رأسي كالصاعقة. ورفعت إليها هامتي وفي عيني عجب ووجل، فابتسمت بسخرية وقالت:

ـ مات ملكنا الكبير، عاش ألف عام ثم فاضت روحه، فالجميع إلى ذهاب إلا رب الخلائق. سبحانه حي لا يموت. من ورث عرش ملكنا الراحل لا يريد الشجرة. جمع العرافين وقراء الطالع وأمر بالبحث في الكتب القديمة، وأطلعه كبار الجن على التاريخ الضائع في البحث عن شجرة الأرض المباركة، فأمر بعد أن عاين كل ما انتهى إليه الجميع بأن نكف عن طلب هذه الشجرة. هو الذي استدعاني حين غبت عنك، ليبلغني بالقرار، لم أقل لك إنه هو الذي طلبني حتى لا أقلقك، وأخبرتك بأن أهلي هم الذين أرسلوا إليّ. طلبني ولبيت، وكان وقتها يداخلني شك في أن تبتعد عني. شك راح يغزوني كالوباء منذ الليلة التي قضيناها في بيت صفوان.

أسقط في يدي، فنهار لم تعد معنية بالشجرة المباركة، لأن ملك الجان الجديد نفض يديه منها. وحبها لي الذي يمكن أن أتكئ عليه لتساعدني في إتمام مهمتي الشاقة تكدر صفوه، وانغلقت أمامي

أبواب كنت أعتقد أنها ستظل مفتوحة على مصاريعها دائمًا. انتابني وهم بأن ما أنا فيه سحابة صيف ستنقشع سريعا. رفعت بصري إلى نهار فوجدتها قد أعطتني ظهرها، فاقتربت منها وقلت:

ـ بدأنا المسيرة ولا بد أن نكملها سويًّا.

نظرت إليَّ بغضب وقالت:

ـ لا تطلب مني شيئا بعد اليوم، فما كان يربطنا انقطع، ورحلتنا سويًّا أشرفت على النهاية.

ـ النهاية؟!

ـ لا أستطيع أن أبقى معك وأنت تفكر في غيري، أنا غيورة وناري لا تبرد أبدًا. ولا أريد لقوة الغل التي تصطلي بها نفسي أن تؤذيك.

نظرت إليها ساخرًا وقلت:

ـ أعيدي لعبتك القديمة، أمامك غريمتك، أرسلي إليها ريحك الشريرة، أو حرّضي عليها أخواتك من الجن فتهذي كما حدث لخطيئتي القديمة، فأتركها وأتبعك كخروف أعمى.

ـ لا أستطيع أبدًا أن أفعل ذلك.

ـ ضعف أم تقوى؟

ـ لا هذا ولا تلك. حفصة أقوى من أن أوذيها، هي عرفت من هي، فرست على شاطئ اليقين، أما أنت فلا تزال قشة في ريح صرصر عاتية. ترقص وتدور بلا دليل. لا تزال ضائعا يا عاكف، وتدعي أنك

راسخ كالجبال. حفصة فقد ذاقت وعرفت، ولا سبيل إلى النيل من امرأة لسانها رطب دوما بذكر الله.

ـ هي في حصن حصين وأنا تضربني الريح من كل جانب. ضائع كما تقولين. لكن حتى لو كنت ضائعا، فمن ضيّعني سواك؟... من ضيعني غير اتباعي لك لاهثا وراء الأوهام.

ـ ليس وهما يا عاكف، الشجرة المباركة حقيقة، أنا متيقنة من ذلك، كيقيني أن الواقف أمامي هو أنت، بشحمك ولحمك.

ـ ذلك الذي لم يصل إليه العرافون من الإنس والجن، ويعجز الملوك والسلاطين عن الوصول إليه، لا يمكن أن يكون موجودا.

ـ ألم أقل لك إنك خفيف كريشة، هاأنت تهتز كما يتراقص كل شيء داخلك. من قبل كنت تشعرني بأنك مؤمن بوجود الشجرة المباركة إيمانا لا يتزعزع.

ـ ساعديني على استمرار هذا الإيمان يا نهار.

ـ كيف؟

ـ كوني جانبي في رحلة البحث عن الشجرة. قولك إنك لم تعدي مهتمة بهذا الأمر هو الذي جعلني لا أستقر على حال.

ـ انس هذا الأمر تماما يا عاكف. لقد فكرت مليا واتخذت قراري، ولا رجوع فيه.

ـ القمر كاد أن يكتمل، والسلطان ينتظر، والحاكم يعد الأيام ليجد دواء ابنته، وإن لم أفدهما بشيء سيقطعون رأسي، ويلقون جسدي طعاما للغربان.

ـ واهمان طامعان وأنت تخدعهما.

ـ أنا لم أخدع أحدًا، وإن كانت هناك خدعة فأنت شريكتي.

ـ لم أعد شريكتك في أي شيء، لم يعد بوسعي أن أبقى ساعة واحدة مع من مال قلبه بعيدًا عني، وبعد أن كان تلميذًا مخلصًا للقناوي، تساوره الآن رغبة في أن يكون عراف السلطان.

ـ كفاك هذيانًا.

ـ أنت تعرف أنني أقول الحقيقة، الطمع الذي أخذ يسري في نفسك. الحب الذي راح يغزو قلبك، والأماني الزائفة التي تداعبك. أفق لنفسك يا عاكف، سأتركك الليلة، وعليك أن تجلس مع نفسك طويلا تحاسبها وتعاتبها، ثم أغمض عينيك وابحث عن الطاقة المطمورة داخلك فاستحضرها وستغنيك عني، وستعرف بعد حين أن الإنسان هو خليفة الله في أرضه، أعطاه من صفاته ومنحه من قدراته، لكن أكثر الناس لا يعلمون.

واقتربت مني وأخذت يدي في يديها، ثم نظرت في عيني مليًّا وقالت:

ـ لا تقلق، ستكون على ما يرام، لأن بذرة الخير داخلك لا تزال حية.

وهممت لأستعطفها كي تبقى، لكنها تبخرت من أمامي فجأة، فصرخت من أعماقي:

ـ نهار...

فجاءني الصدى من جدران القصر هادرًا:

ـ نهار.......

وحل الصمت والخوف، وشعرت بالأرض تميد من تحتي.

(١٦)

ذهبت نهار بلا رجعة، وتركت في مساحة أيامي فراغًا لا أعرف كيف أسده. ووقفت حائرا أدور في مكاني بلا غاية، ثم مضيت نحو النافذة، وأرسلت بصري إلى الظلمة الشاملة، التي تثقبها نيران شعل زيت صغيرة تعوم على الماء، مستقرة على قشر بيض النعام. جاءني من عمق النيل صوت قهقهة وسعال. اقتحمت أنفي رائحة الدخان الأزرق المنبعث من أراجيل المماليك الذين يجوبون المياه في مراكبهم الملونة، برفقة الجواري والطواشية.

أسرجت قنديلي وفتحت المصحف وانغمست في تلاوة عذبة، أخذتني من كل شيء، ومن أي إنسي أو جني، وسحَّت دموعي على خدي، وزاد جريانها حين تذكرت قول القناوي:

ـ من هجر القرآن هجره، ومن نسي الله أنساه نفسه.

فرغت من التلاوة، وعدت مرة أخرى مؤرقًا إلى النافذة، فكانت المراكب قد اختفت، وفرش القمر دنانيره الذهبية على صفحة الماء.

تابعت تلؤلؤها وكأنها لا تعنيني، ثم تذكرت فجأة السلطان المنتظر، فملأ الرعب قلبي، وهجمت على رأسي ظنون لا نهاية لها.

وقفت مكاني، ثم أخذت أدور في غرفة النوم الفسيحة، وشعرت أن شيئا حادا يقبض على صدري، فانكرش نفسي، وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت. تملكتني رغبة في الهروب. إلى أين أهرب؟ إلى الوادي الخصيب وجند السلطان يجوسون كل قيراط فيه؟ أم إلى المفازات القاحلة فيقتلني العربان المتحالفين معه؟ أم إلى الجبال فيضرب المطاريد عنقي؟

وحل بي خاطر أن أهرب إلى الشام، أو إلى الحجاز، لكن ذراع السلطان كان يصل إلى كل البلدان. ربما سمع بنبأ هروبي قبل أن أخرج من زمام المحروسة، فأرسل خلفي من يفتك بي.

تجاذبتني ظنوني، فهرب النوم وبقيت أنا مكاني أجلس بجوار النافذة أراقب القمر، وهو يتداعى تدريجيا حتى يختفي في صفحة السماء. أذن الفجر، صوت ندي رخي جاءني من مسجد قريب للقصر، فنهضت وتوضأت، وسرت أتوكأ على عصاي، أمدها أمامي فتفزع الكلاب النائمة في الظلمة الراقدة تحت الجدر، حتى بلغت المسجد، وورائي الحارس يمشي على مهل، ويضرب الأرض بقدميه. فلما رآني الناس قدموني إلى الإمامة، فاعتذرت، ضغطوا عليَّ فقلت لهم باسمًا:

ـ لا يعطاها من طلبها.

ضحك أحدهم وقال:

ـ هذا عن الإمارة يا شيخنا.

فرد آخر وهو يتقدم إلى الصف الأول:

ـ الإمارة في بلدنا للغرباء.

خرجت من المسجد وأنا متيقن أن كثيرا من الناس قد وصلهم خبري. خبر الشيخ صاحب العلم اللدني الذي سيأخذ السلطان، صاحب الأريكة والصنجق والقبة الفخيمة، إلى كنز لا ينفد يغرف منه ويملأ سراديبه التي يخفي فيها الجواهر الثمينة. لكن وأنا أمد رجلي لألبس مركوبي اقترب مني رجل محدودب الظهر كليل العينين يتوكأ على عصا غليظة، وقال في أذني:

ـ يخلق من الشبه أربعين.

رفعت هامتي إليه مندهشا، فاستطرد:

ـ في الزمان الأول كنت أعرف شابا يشبهك تماما يامولانا، كان اسمه عاكف أيضا. سبحان الله، الاسم والشبه، ولولا أنك في ريعان شبابك وهو إما أنه مات وصار ترابا، أو بات شيخا طاعنا في السن مثلي.

وضعت يدي على كتفه وسألته:

ـ من أنت يا عم؟

فقال وهو يمد حروف كلامه كأنه يسحبها من مكان بعيد:

ـ أنا سليمان الرماح.

ووغز الاسم ذاكرتي فأطلت من الزمن البعيد أفعاله التي طوتها الأيام. كان من أكثرنا علما وأخفنا ظلا. قبض عليه يوم هروبي،

وقضى في السجن سنين، خرج خالي الوفاض. سألت عنه صفوان يوم لقائنا فقال لي إنه يعمل سقاء، كان يحمل قربته طيلة النهار بين النيل وأزير البيوت حتى اشترى بغلا عامنول ليحمل عنه الماء. أطلق على قربته اسم «انشراح» فاشتهرت في المحروسة كلها، ويقول الناس وهم يرفعون أغطية أزيرهم أمام حنك قربته:

يمضي النهار بين غدو ورواح... في قلبي ظمأ وعلى ظهري انشراح

أخبرني صفوان أن هذا البيت أهداه له شاعر ذات مساء، وهو يجلس على أريكة متهالكة في مقهى بحارة قنطرة الدكة بعد أن فرغ من إنشاد قصة عزيزة ويونس. ظل الرماح يردده في ذهابه ومجيئه حتى حفظه العيال منه، فكان كلما هل على الشوارع والحارات ألقوه على مسامعه، فيضحك ويضحكون، ومضت الأيام، فلا هو جفل منهم، ولا هم ملوا من التكرار.

قال لي وهو ينظر إلى بغله الذي يقف على يسار باب المسجد:

ـ أدخل إلى كل البيوت، وطالما تناهى إلى سمعي حديث عن كراماتك يا شيخنا.

ـ كراماتي!

ـ يقولون إنك تشفي العنين، وتزوج العانس، وتجعل العاقر تلد، وتعيد الحبيب إلى محبوبته، ولا تكاد أن تنطق «اللهم رد الضالة» حتى يجد من قصدك ما ضاع منه، وأنك أتيت لتكشف للسلطان عن كنز تحت قصره القديم.

فربت على كتفه وقلت:

- الناس يبالغون دائمًا، وهكذا صُنعت أساطير الأولين.

ضربت عصاي مبتعدا، وأخذ هو طريقه إلى بغله فسحبه فانجرت «الكارو» وعليها قرب منطاة بسعف النخيل، وجلجلت الأجراس المعلقة في رقبة البغل، وانعطف يمينا إلى النيل.

سرت بلا هدف في شوارع المحروسة حتى اقتربت من حارات اليهود، وفي إحداها كانت هناك مجموعة تطلق الأهازيج حول تمثال ضخم من الورق مملوء بالنخال، ثم أشعلوا فيه النار، فانبعث الدخان يلوث الأقنعة والملابس المزركشة الغريبة التي يرتدونها، بينما هم يدورون حول النار سكارى يترنحون حتى صار التمثال رمادًا. اقتربت من أحدهم وسألته في صوت خفيض:

- أي حفل هذا؟

فرفع وجهه إليَّ متعجبا، وقال:

- عيد البوريم[٤].

* * *

اقترب الظهر فقصدت الجامع الأزهر. عقب الصلاة عدت أجر قدمي إلى قصري المؤقت. ظللت جالسا بجوار النافذة أطالع المراكب التي تمخر عباب النيل بلا توقف. أظلمت الدنيا فلاح القمر هناك في طرف السماء. تربيع أهدى نوره الواهن إلى حوائط البيوت التي تواجه القصر، فانكشفت لي الأجساد التي تهم ذهابا وإيابا إلى النهر ومنه. كانت تبدو كأشباح نحيلة. عند انتصاف الليل ظهر شبح امرأة، مددت بصري في عمق الصفار الباهت فعرفت أنها سيدة

تغطي وجهها تماما، وملفوفة في مرط[٥]، يهفهف في النسيم. سارت يمنة ويسرة، ثم اقتربت من الباب الخارجي للقصر، وراحت تحرك شفتيها مع الحرس في كلام لم أتبينه، لكن النسائم البليلة التي هبت فجأة حملت إليَّ صوتا اهتز له قلبي. كان يشبه صوت حفصة.

أذن لها الحارس فدخلت ثم جلست على أريكة صغيرة بجوار الباب، وجاءني الخادم مسرعًا فخرجت إليها وقلبي يخفق. في المسافة الفاصلة بين حجرتي الوثيرة وأريكتها التي يغطيها غبار الطريق، قال لي الخادم:

- لو بقيت في مكانك يا سيدي وتدخل هي إليك.

فربت على كتفه وقلت له بصوت متهدج:

- لمثل هذه نخرج، ولا تثريب علينا.

- أتعرفها يا سيدي؟

- أكثر مما أعرف نفسي.

مددت يدي لأصافحها فدست يدها في طرف طرحتها السوداء ومدتها إليَّ. نظرت في عينيها، فزاورت مقلتيها عني، وأخفضت جبينها، فسرى الخجل في أوردتي، وأشرت إليها أن تتبعني، ومشيت أمامها متمهلًا.

ما إن وصلنا إلى البهو، حتى استوقفتني وقالت بصوت حاسم:

- أضعت صاحبك فرده إليَّ.

نظرت إليها مستفهما. فواصلت:

ـ لا أخبار عن صفوان، ووجودي في قصر السلطان أثقل على نفسي من المقطم.

أصابني كلامها بخيبة أمل، ونظرت إلى رسوم السقف المذهبة، ووجمت برهة، ثم أعدت إليها ناظري، وقلت:

ـ يسري على صفوان ما يجري لغيره، ولا أخبار عن أحد.

ـ أخاف أن يكون السلطان قد أمر بقتله.

ـ لا تجزعي، فقد وعدني السلطان ألا يمسسه سوء، ولا تنسي أنه لا يريد أن يغضبني حتى يصل إلى ما يريد.

ـ وهل يضمن أحد ألا يُقتل في الحرب؟

ـ عندها سيكون شهيدًا، وينعم بجنة الخلد.

وجمت برهة، لكنها لم تلبث أن قالت:

ـ لا تنس أنه ذهب منفيًا، غير راغب في جهاد.

ـ ما أدراك بطويته؟

ـ ذهب مغلوبا على أمره، ولا مراء في هذه.

ـ لكنه ربما عقد النية في طريقه أن يجعل رحلته خالصة لله، وجعل ما أجبر عليه وكأنه اختياره.

ـ المهم يا عاكف ألا تترك صاحبك.

ـ تأكدي أنني سأفعل كل ما في وسعي، وسأطلب من السلطان غدًا أن يطلب خبرًا عنه بالذات في الرسائل التي يحملها الحمام الزاجل.

ثم رفعت وجهي مرة أخرى إلى عينيها وقلت لها في تودد:

ـ ما أخبارك أنت؟ هل تتعرضين لأي مضايقة في قصر السلطان؟

ـ حتى الآن أعيش في حالي، لا أطلب شيئا، ولا يأمرني أحد بشيء.

ـ إذا، الأمور تجري على ما يرام.

ـ الحمد لله على كل حال.

واستأذنت وأدبرت راجعة، وتركت قلبي يرفرف دون إرادتي، فوقع في نفسي ألم جارح لم أجد إلى تصريفه سبيلًا.

* * *

طلبني السلطان، ودخلت عليه وهو متكئ على أريكته المذهبة، فأشار لي بالجلوس، فألقيت جسدي على أقرب كرسي إلى رأسه، وسادت دقائق من صمت شامل، مرت عليّ كأنها دهر، وبدا لي أن هناك شيئًا ليس على ما يرام. كان السلطان يشيح بوجهه عني ويطيل النظر في السقف المزركش، ثم يمد يده إلى الفاكهة المرصوصة أمامه على طبق من فضة، وينتقط تفاحة صفراء فاقع لونها، ويقضمها على مهل.

تنحنحت حتى يشعر بوجودي إلى جانبه، لكنه كان لاهيا عني، ألمزاج عكر؟ أم لغضب مني؟ لا أعرف. مرق شعاع من بين قطع السحب الداكنة، فنزل على عينيه، فتململ في مكانه، وتحرك ناحيتي، ثم رفع بصره إليه وقال:

- لم تبق سوى ليلتين.

- أعرف يا مولاي.

- أتعتقد أن الصرة التي وجدناها ستبوح لنا بالسر العظيم.

صمت برهة، وأغمضت عيني، وأطرقت وكأنني أتسمع همسا لصوت بعيد، حتى تخيل السلطان أنني أتواصل مع كائنات في الطرف الآخر من الكون، ثم قلت له:

- ستبوح بكل شيء.

تهلل وجهه، ثم انقبض مرة أخرى، وراح ينظر إليَّ في ريبة، فسرى في أوصالي خوف. قام السلطان من على أريكته فنهضت، ووقفت مكاني، بينما تحرك هو نحوي، حتى باتت بينه وبيني خطوة واحدة، فمد يده ووضعها على كتفي وقال:

- اعتن بما جئت إلى هنا من أجله، ولا تجنح إلى غيره فتهلك.

رفعت وجهي مستغربا كلامه، دون أن أتفوه ولو بحرف واحد، فوجدته يقول وعلى شفتيه ابتسامة ماكرة:

- لا تنظر إلى امرأة لا تحل لك.

صعقني كلامه، ووجدت دمي يغلي، ولم يهمني في هذه اللحظة أن يكون السلطان قد عرف بزيارة حفصة لي، قدر ما خفت من أن يشك الرجل في أنني من أهل الطريق، وعندها سيضع خنجره في عنقي، ثم يأمر بأن يدق مسمار في صدري حتى يخترقه ثم ينغرس على أي من أبواب القاهرة، وأظل معلقا حتى يتعفن جسدي أو تأكله الكلاب.

قطعت الخطوة إليه حتى صار رأسي أمام عينيه، ثم قلت له بصوت خفيض:

- حاشا لله يا مولاي، هذه كبيرة، ومثلي يحرص على ألا يأتي ما يغضب الله، ولو كان أدنى شيء.

- وزوجة صاحبك؟

- أي صاحب؟

- الذي تشفعت له فلم نقتله، وأخرجناه مع الذاهبين إلى ملاقاة الفرنجة.

- زارتني ساعية وراء أي خبر عن زوجها.

- وماذا قلت لها؟

- صبّرتها، وأخبرتها أنني بلا خبر عن صفوان.

- خيرا فعلت.

ثم نادى السلطان بأعلى صوته على كبير الحرس فأتاه مسرعا، فسأله:

- ألم يأت خبر من ميدان الحرب؟

- ليس بعد يا مولاي.

فسارعت أنا إلى القول:

- سيكون النصر المبين.

نظر إليَّ مليًّا وقال:

ـ أجاءك خبر ما سيجري؟

ـ لا يعلم الغيب إلا هو، وما يتساقط علينا من أخبار لا يكون إلا بأمره.

اقترب مني وضغط على كتفي وقال:

ـ لو أوصلتني إلى الكنز يا شيخ، سأمنحك نصيب أمير من أرض مصر، بعد أن ننتهي من الروك[1]، وسأعطي أمرا للطبلخانات أن تضرب لك عشر ساعات من النهار، وسيزفك المماليك على حصان مطهم يلف المحروسة كلها، لا يترك شارعا ولا حارة ولا عطفة إلا داسها.

فقلت له باسمًا:

ـ يكفيني رضاكم يا مولاي.

ـ سأرضى حين أجلس تحت الشجرة المباركة على دكة كبيرة مطعمة بالعاج والأبنوس، وفوقها مقعد مخملي بنطع، تظللني فروعها، وتهش الغيد الحسان عن رأسي ذباب الجبل.

ثم أشار لي أن أنصرف، فخرجت من عنده مغموما، والحيرة تأكلني.

قبل الباب الخارجي، سمعت صوتًا آتيًا من قاعة الحريم يشبه صوت حفصة، فتوقفت قليلا، ثم تذكرت ما قاله لي السلطان في لهجة مشبعة بتحذير قوي. رميت قدمي إلى الأمام وسرت في طريقي صامتًا.

واستعدت مع الخطوات رنات الصوت الرخيم، فرقص حشاي، وتهت في ظنون لا نهاية لها، وصرخ داخلي صوت جهير:

«آه يا حفصة، يا وجعي، يا نفسي التي تخونني، يا قلبي الخارج عليّ، يا إرادتي التي فارقتني، وعمري المترع بالألم. آه يا حفص، قريبة أنت وبعيدة، ولا حيلة لي في أن أراك، وبيني وبينك شم الجبال. كم هي الأيام ثقيلة عليّ، الساعات تفري روحي، كلما لاحت صورتك في خاطري، معذب أنا بك، إلى متى؟ لا أدري. جئت يا حفصي للبحث عن الشجرة المباركة، فوجدتك أنت أجمل مما تصوره خيالي المسكون بك، وأعلى من كل أشجار الدنيا، لكن ثمرك ليس لي، كله حرام عليَّ، وحرامه يقتلني كل لحظة، والنار تشتعل في كبدي حين يختلط في خيالي وجهك بوجه صاحبي».

طال شرودي، وخطواتي تتابع نحو القصر، واثنان من الحرس يسيران معي، فلما وصلت وجدت والي منفلوط في انتظاري.

* * *

كان والي منفلوط يجلس على جمر، رأيته من النافذة الجانبية يتقلب. ظهره إلى الباب. لمّا رآني نهض من مكانه وسار نحوي مادا يده، فأخذتها في يدي، وتعانقنا. ثم عاد إلى الجلوس وهو يقول:

ـ من وجد أحبابه نسي أصحابه.

واصفر وجهي لكلامه، وأنا أعتقد أنه يلمح إلى حكاية حفصة، لكنه عاجلني قائلًا:

ـ قابلت السلطان مرات، أما والي منفلوط فلم تسأل عنه، ولا مرة واحدة.

ضحكت وقلت مجاملًا:

ـ في القلب والعين أنت دائماً، وكل ما نسعى إليه سينتهي إليك.

داس على يدي، وضحك بمكر وقال:

ـ لا تنس يا شيخ أن ما أنت فيه هنا من تدبيري.

ـ ولا تنس أن ما أسعى إليه تلهث أنت وراءه.

تنحنح وبدا على وجهه غضب لكنه كتمه بابتسامة فاترة وقال:

ـ ليس بوسعي أن أتغافل عن فضلك يا شيخنا، لكنني خشيت أن تكون قد نسيتني في غمرة انشغالك بما يريد السلطان.

ربّت على كتفه وقلت له بصوت متهدج:

ـ إرادة الله فوق كل شيء.

رفع وجهه في وجهي وقال بتودد:

ـ لم تبق سوى ليلتين، بعدها نمخر النيل عائدين إلى الجنوب، حيث الشجرة العظيمة.

قفز إلى ذهني فجأة تجربته مع الساحر المغربي، فسألته دون تردد:

ـ ما آخر كلام قاله لك الساحر المغربي؟

ـ كلام لم أتذكر منه شيء، لكنه كان يعبر وقتها عن عجزه التام في الذهاب إلى أبعد مما وصل إليه.

تمتمت في سري: «أخفق أكبر سحرة المغرب، وينتظر السلطان الغشوم والوالي الأناني من عاكف المسكين أن يأتي بما لم يأت به الأوائل».

نظر إليَّ ثم قال:

ـ لشيخنا أحوال عجيبة.

فابتسمت وقلت:

ـ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

(١٧)

شعرت بالفراغ الكبير الذي تركته نهار في حياتي. هذه المرة لم أكن أكابد شوقا إليها، لكنني كنت أحتاج إلى قدرات جنية حصيفة كي تنقذني من الورطة التي سقطت فيها. من بوسعه أن يفك الطلاسم التي وجدناها في قلب الجرة؟ هل أنا؟ أنا كنت مجرد ناقل أمين لما كانت نهار تبوح به. ألقي إليها أذني مليا، ثم يبدأ لساني في الترديد كالببغاء. لا حول ولا طول. لا قوة ولا جاه. قشة أنا في مهب الريح، قطرة ماء واحدة على حجر صوان في ظهيرة صيف قائظ، ومضة باهتة في ظلام دامس، بعضه فوق بعض.

اليوم حفصة ملأت روحي عشقًا. لم أعد أرى غيرها. لكن هل حفصة تأتيني بخبر ليس بوسعي الوصول إليه كما كانت تفعل نهار؟ لا أعتقد أبدًا. رحت أمشي ذهابًا وإيابًا في غرفتي الوسيعة. أردد كالمجنون صرخاتي المكتومة: آه يا عاكف، كيف يمكن أن تنام الليلة؟ في مثل هذا الوقت من الغد ستكون جالسا على فشلك وزيفك، والمعاصير تجهز كي تهرس جسدك، فيصمت كذبك إلى الأبد.

كررتها عشرات المرات ثم ألقيت نفسي على السرير فاستيقظ

الأرق، وأطلق أشواكه في روحي. ساعات أتقلب مكاني حتى نضح النور من خصاص النوافذ، وراح ينبعث في جنبات الحجرة. نهضت متثاقلا، ورميت بصري نحو النيل المنساب في هدوء، والخضرة الكثيفة التي تمتد على الشاطىء الغربي حتى تلتقي بطرف السماء. ملأت عيني من شجرة كافور عالية، تقف شامخة بين الزرع، وقلت في نفسي: لو كان السلطان يطلب مني أن أكتشف له هذه الشجرة لعبرت الماء إليها وأهديتها إليه، ثم ضحكت في مرارة، وقلت بصوت مسموع:

ـ شجرة الكنز، شجرة الدواء، شجرة العشق الإلهي، شجرة الإنس، شجرة الجن، شجرة الكون الفسيح، شجرة البداية والنهاية، أي شجرة هي، أي شجرة أنت.

ووصل صوتي إلى الحارس، فأتى مسرعًا وقال:

ـ أتأمر بشيء يا شيخنا؟

فنظرت إليه بابتسامة مُرة وقلت:

ـ إليَّ بالرخ؟

فضحك وقال:

ـ إلى أين تريد أن تطير يا شيخ عاكف؟

فقلت وأنا أطالع عروق الذهب التي أهدتها الشمس للماء:

ـ إلى السماء البعيدة، عند نهار وأهلها العارفين.

فنظر إليَّ بعينين كليلتين وقال:

ـ السماء نعرفها، لكن من نهار هذه؟

فقلت له دون ترتيب:

ـ هي طريقي إلى ما هو أبعد حتى من السلطان، وطريقي إلى الكذب والحيرة والضياع.

ونظرت إلى السماء فوقعت جمرة الشمس في عيني، فارتد بصري حسيرا. جلست مكاني وزحفت على نفسي جيوش من الكآبة. في شرودي وصمتي الطويل جاء إلى ذهني فجأة كلام نهار الأخير: «أفق لنفسك يا عاكف، سأتركك الليلة، وعليك أن تجلس مع نفسك طويلا تحاسبها وتعاتبها، ثم أغمض عينيك وابحث عن الطاقة المطمورة داخلك فاستحضرها وستغنيك عنّي، وستعرف بعد حين أن الإنسان هو خليفة الله في أرضه، أعطاه من صفاته ومنحه من قدراته.، لكن أكثر الناس لا يعلمون».

أعدت كلماتها في سري مرات ومرات، وصرخت داخلي: «كيف السبيل إلى الطاقة المطمورة في نفسي يا نهار؟ كيف أستحضرها؟ هل بوسعها حقا أن تغنيني عن خدماتك الجليلة التي أوصلتني إلى هذا القصر وجعلت السلطان يتودد إليَّ؟

كان الحارس يقف على رأسي وأنا عنه ذاهل، فلما رفعت بصري وجدته ثابتا وفي عينيه عجب. أمرته بالخروج، فقال وهو يهم إلى الباب:

ـ هل أنادي الخدم يحضرون فطورك يا شيخنا؟

هززت رأسي رافضا. خرج وأغلق الباب وتركني لوحدتي.

ثقلت رأسي فأخذت جسدي وألقيته على الأريكة، وراح النوم

يغزوني رويدا. يأتي ويذهب، فلا أنا يقظان ولا أنا نعسان. في سنة من النوم رأيت الشيخ القناوي. كان يرتدي حلة خضراء لم أرها عليه من قبل. اقترب مني وأخذ يدي في يده، وسحبني إلى صدره برفق. وضمني ضمة قوية اختلفت لها ضلوعي، ثم تركني، وابتعد عني خطوتين وقال:

ـ كيف حالك يا عاكف؟

ـ ضائع بعدك يا شيخي.

ـ قلت لك ما لو وعيته ما ضعت أبدًا.

ـ محنة قاسية ألمت بي وأنستني الكثير.

فابتسم وقال:

ـ معلق أنت بين الأرض والسماء.

ـ بل مشدود بينهما بحبال غليظة، وأكاد أتمزق بين تحت وفوق.

فابتسم مرة أخرى وقال:

ـ ثبت قدميك في التراب، الذي خلقت منه، وأطلق روحك تحلق إلى الأقاصي، ولا تتعجل، فسيأتيك نصيبك في أوانه.

ـ ثقلت همومي يا شيخي، واقتربت ساعة رحيلي.

فاتسع وجهه بابتسامة عريضة وقال:

ـ عمرك يا عاكف أطول مما تظن بكثير. لا تستعجل ما لم يتم فيه قضاء، وأمامك ما لم تعرف، فتذوّق على مهل، حتى تأتينا صافيا كأنك ماء رقراق.

نظرت إليه في تعجب وقلت:

ـ لِمَ تقول ما لا أفهم يا شيخي؟

ـ لا تتعجل، فستفهم كل شيء في أوانه، وتسترجع الكثير وأنت جالس تحت ظل شجرة لا مثيل لها، تشتم أريج زهرها الجميل، ورائحة فاكهتها اللذيذة، وتطل على الدنيا من عل، الناس هناك كالنمل يسعون إلى ما يسد رمقهم، وكالخراف الضالة يجرون وراء شهواتهم، وأنت تنعم بشجرتك المباركة أيها العابد.

ـ شجرتي المباركة، أعرفت حكايتي يا شيخي الطيب؟

ـ كثيرون هنا يعرفون حكايتك.

ـ أين؟

ـ ألم أقل لك لا تتعجل.

ثم تقدم نحو الباب، وقال قبل أن ينصرف:

ـ سر في الطريق الذي سار فيه من قبل الحاج حسين.

ـ وطريقك أنت يا شيخي؟

ـ ليس لك.

ـ طيلة السنين التي خلت وأنا أظن أنه لي، وأنني سأعود إليه يومًا، وطالما تمنيت أن أظل عند حسن ظنك.

وهنا توقف عند الباب ورفع وجهه غاضبًا، ووضع عينيه في عينيَّ، وقال:

ـ ليس لك، ولا تجادل.

ثم تبخر.

استيقظت مذعورًا. وشعرت بضيق في صدري، شيء لا أعرف ما هو قبض عليه حتى كاد أن يخنقني. جلست مكاني مشتت الذهن، وكلام القناوي الأخير يتردد في رأسي بانتظام، يوخزني كأنه مسامير حادة. نهضت وناديت الخادم وقلت له:

ـ أريد كسرة خبز يابسة.

نظر إليّ متعجبًا وقال:

ـ الفطور السلطاني جاهز يا شيخنا.

ـ لا شهية لي، ومثلي يجب ألا تخدعه لذة لن تدوم.

قضمت الكسرة بنفس غير راضية، ثم تركت الأمر لقدميّ تذهبان بي إلى حيث شاءتا.

وجدت نفسي أمام مسجد الأمير لاجين السيفي بمئذنته القصيرة الرائعة، فدخلت وجلست إلى جانب العمود الأخير من الناحية اليمنى، وأخذت أنفاسا عميقة كأنني أريد أن أطرد بالهواء الجديد هواءً فاسدا راكدا في جنبات صدري. غلبني نعاس فنمت حتى أذن

المؤذن لصلاة الظهر، وجاء الناس يدبون على الأرض بمراكيبهم الخشنة القاسية، فتوضأت وصليت معهم، وخرجت أجر قدمي كيفما شاءت، فوجدت نفسي أمام خانقاه الأميرين سلار الناصري وسنجر الجاولي.

رحت أبص في وجوه الذاكرين الوضيئة، وأتفرس في حروف الخط الكوفي البديعة. بدت لي وقتها أشبه بالطلاسم المرسومة على ظهر الورقة التي وجدتها في «خص» الحاج حسين. سرت إلى مدرسة الأمير صرغتمش، ورأيت طلاب العلم يخرجون بعمائمهم البيضاء في جماعات، وتذكرت أيام القناوي الذي درّس فيها ذات يوم الحديث النبوي والفقه الحنفي، وكثيرا ما أفاض لنا في إعجابه بإيواناته الأربع وفسقيته البديعة. انتهى تسكعي عند جامع أحمد بن طولون، فطفت حول مبناه الكبير الذي يغطي ستة أفدنة كاملة.

هاهي مئذنته الملتوية ذات السلم الخارجي، تشبه جسدي الذي ترنح إعياء من التجوال بلا هدف، وهاهي محاريبه الجصية، وسوره العالي الممتد، يقبضان على عيني الكليلتين، فتتلهى بهما، إلى أن تحين الساعة المحتومة.

ها أنا أتجول في المكان الذي حللت به قديما. رآني رجل أتفرس في المنمنمات العجيبة، مأخوذًا بها، لا أحيد عنها، فوضع يده على كتفي وسألني السؤال الذي ألفته منذ مجيئي إلى المحروسة:

ـ الرجل غريب؟

فالتفت إليه، وقلت له:

ـ من الصعيد.

فابتسم وقال:

ـ لو ذهبت إلى مسجد السلطان حسن ستنسحر أكبر يا صعيدي.

فقلت له سأذهب، فقال:

ـ حماري خارج المسجد إن كنت ستكتريه.

فخرجت معه، وقفزت راكبا. فلما استويت على ظهر الحمار، سحب هو اللجام، وقال بصوت أجش آمرًا حماره:

ـ إلى جامع السلطان حسن.

كنت أعرف كم هو مسجد بديع، فطالما تحدثنا في الزمان البعيد عنه باعتباره ذروة الفن الإسلامي. قلت لنفسي سأذهب، وأضرب بقدمي جوار القلعة العتيدة. ومشيت الهوينا، متلفتا حولي، وكأني لص في سوق، حتى امتلأت عيناي بقباب المسجد ومآذنه الشاهقة. ودخلت من الناحية الشمالية، ومررت تحت حنية عميقة مزينة بحشوات هندسية بديعة تنتهي بنصف قبة تتدلى منها المقرنصات حتى سطوح الجدران.

اتكأت على مصطبة محلاة بالرخام الملون، وعيني تتنقل بين شباك الجص والمستطيلات الزخرفية التي نحتت في الحجر بيد صناع مهرة، حتى وصلت إلى الدركات المعقودة التي تنتهي إلى الصحن الكبير المربع المفروش برخام ينطق بالروعة، وتتوسطه ميضأة تعلوها قبة خشبية بديعة محمولة على ثمانية أعمدة رخامية. تهت لدقائق في آية الكرسي المكتوبة بدائر القبة.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾

* * *

انتهى بي الحال إلى جلسة قصيرة أمام المحراب والمنبر، أملي عيني، وأقول في سري:

ـ يا لروعة الفن.

ربما أردت أن أودع كل شيء ويكون عالمي القديم الجميل آخر ما تراه عيني من المحروسة. كنت أسكن في منزل ملاصق لمسجد الأمير شيخون العمري الناصري، الذي كان يحوي خانقاه طالما أفاضت علينا بأرزاق لا تنسى. أهبط من غرفتي الوسيعة بالطابق الثاني إلى حيث ينتظر الدراويش طعامهم، فأقف بينهم وآكل مما خصص لهم. يلتهمون طعامهم ويعودون إلى الذكر، وأزدرد أنا ما نلته وأعود إلى مطالعة كتب الفقه، والتفكير مبتهجا في الخروج الكبير على السلطان، والذي ستصنعه سواعدنا الفتية، وهي تلمع بسيوف قاطعة تتراقص خلف عمامة القناوي البيضاء.

كل شيء راح. ذهب القناوي إلى حيث يذهب الناس في النهاية، ودخلت سيوفنا أغمادها إلى الأبد، وتفرقت بنا السبل في البلاد، وراكم الزمن على نفوسنا من الخذلان ما ليس بوسعنا أن نطرده بيسر.

انتهت حياتي من التمرد إلى البحث عن الشجرة، والشجرة هنا لن

تكون شيئا سوى أساطير الأولين، إن لم أمسسها أو أراها أو أتذوق طعم ثمارها أو أستظل بوارف أوراقها العريضة الطويلة، فلن أقول لأحد إنها موجودة على ظهر الأرض. لكن منذ متى كان الموجود هو ما نحسه، أليس في الكون من المعجزات ما لا نستطيع أن نمسك به. ألم أر الأرض وأنا هناك في الفضاء البعيد مع نهار برتقالة سوداء ضائعة في الهواء؟

آه من تصاريف القدر. لماذا تتهادى إلى ذهني في هذه اللحظة خواطر عن الكون الفسيح والنهايات المكتملة؟ لماذا أتفرس في ملامح البنايات كأنني أودعها إلى الأبد؟ أهي نهايتي؟ أبيني وبين الرحيل لحظات؟

هناك على بعد خمسمائة خطوة من هنا يوجد سلطان منتظر في قلعة عالية الأسوار، من يدخلها ينغلق وراءه كل شيء، وتنقطع صلته بأسباب كثيرة. ساعات قليلة ويطلبني وأذهب إليه محمولا على خوفي وخيبتي.

قبيل العصر قفلت راجعًا، وأنا أشعر في كل خطوة أخطوها أن عيونا كثيرة تتابعني. فالسلطان لن يترك رجله الثمين يتنقل في المحروسة بلا حراسة، وكل البصاصين جاهزون لأداء هذه المهمة، التي يمارسونها ليل نهار.

وصلت القصر فوجدت رسولًا من والي منفلوط ينتظرني. صافحته وقلت له:

ـ خيرًا.

فهمس في أذني:

- أريدك على انفراد.

ابتسمت وقلت ساخرًا:

- نحن على انفراد.

تلفت حوله وقال:

- هذه العيون تراقبك، الحراس والخدم وحتى تراب الطريق الذي تسير عليه في تجوالك الدائم. كل هذا يعمل عليك عمل البصاصين.

استرجعت كل شيء في لحظة وقلت له:

- لندخل.

دخل ورائي حتى جمعتنا غرفة داخلية بلا نوافذ، قال وهو يفتحها:

- أوصاني الوالي أن أتحدث إليك فيها، ووصفها لي، إنها غرفة الأسرار، تبتلع أحجارها الصماء الكلام فلا يصل إلى كل من يسترق السمع.

لما اختلينا قال بصوت هامس:

- عرف الوالي نبأ لا بد من اطلاعك عليه قبل أن تذهب إلى السلطان الليلة.

- ما هو؟

- السلطان مريض.

تهللت أساريري:

- سيؤجل الموعد المشهود.

- لا تأجيل.

- ما الأمر إذًا.

- لهفة السلطان على الوصول إلى الشجرة المباركة ليست من أجل الكنز فقط، بل بحثا عن شفاء لابنه من داء عضال.

ضربت كفا بكف وصرخت:

- اكتملت المصيبة.

رفع الرجل وجهه إليَّ مندهشًا وقال:

- أبعد الله المصائب يا شيخ عاكف، كل ما في الأمر أن حاجة السلطان إلى الشجرة أصبحت أكثر إلحاحًا.

- وهل هذا يضر والي منفلوط؟

- السلطان يعتقد أن شفاء ابنه لا يكتمل إلا إذا استحم مرات بالسائل الذي سينضح من تحت لحاء الشجرة، وقد يستأثر بكل ماء الشجرة فلا يحصل مولاي على شيء.

- كيف لي أن أرد طمع السلطان وأنت تعرف طبعه؟

- تقول له أنه يكفي المريض أن يستحم مرة واحدة من ماء الشجرة، ويشرب منه عشرة كئوس على ثلاثين يومًا.

- هل تريد مني أن أكذب عليه؟

- لا كذب يا شيخنا الطبيب، أوهام السلطان تركها في ذهنه ساحر مغربي، علمه قليل لا يضاهي علمك، ثم رحل.

ـ لكن السلطان لا يزال يصدق هذه الأقوال.

ـ يصدقها فقط لأن الساحر استطاع أن يعالجه قبل خمس سنوات من مرض القولنج. كان السلطان في كرب، يعاني من إسهال دموي وألم مفرط، وقد نحل جسمه وزاغ بصره، فتمنى وقتها الموت. شفي السلطان وأجزل للساحر العطاء وأعاده مكرمًا إلى بلاده، فلما راح داء غريب ينهش كبد ابنه أرسل في طلب الرجل فجاءه مسرعًا. وصف أدوية، وأعد رقيات، وكتب تعاويذ، وأطلق بخورًا، وقال وفعل كل ما في وسعه بلا فائدة. الولد لا يزال مريضًا، والسلطان يخفي الخبر عن الجميع لأنه يطمع أن يرث ابنه السلطنة، لكن لا سر يظل خافيًا بين المماليك.

ـ أهو الساحر الذي دل السلطان على الشجرة؟

ـ لا، ساحر غيره، وكان هذا قبل سنوات. السلطان أيامها لم يكن يهمه من الشجرة سوى أنها كنز عظيم.

هززت رأسي وقلت له:

ـ ليقضي الله أمرا كان مفعولًا.

جزع من قولي، واقترب مني متوددا وهمس في أذني:

ـ أرجوك يا شيخ عاكف، لا تنس طلب مولاي، هذا معروف تؤجر عليه، وأنت رجل صالح.

ثم استدار وغادر الحجرة صامتًا، وتبعته حتى خرج من القصر.

(١٨)

كان المغرب يزحف سريعًا، ويرش السماء بدم قاتم، والشمس تحتضر فوق نخلتين متعانقتين في البر الغربي. سمعت من مكاني خوار الجاموس العائد من الحقول، وأخذت الضفادع في النقيق الخفيض، الذي لا يلبث أن يتحول إلى صخب يملأ المكان وحشة وغربة. رفعت وجهي من النافذة فرأيت القمر يجاهد خلف سحابة عابرة، واختلط بها وكأنه منها، وقلت لنفسي: سيصبح برتقالة، ثم مصباحا منيرًا، لكن حين انجلت السحابة بانت في قلب القمر بقعة سوداء وسيعة، ظننتها نتفة شاردة من الشفق الأزرق الداكن.

صرخ هاتف في أعماقي:

ـ جاءك الموت يا من هجرت ربك.

وسمعت نداء باسمي في الخارج، فرميت قدمي نحو البهو فوجدت حرسا كثيفًا ينتظر. تقدم كبيرهم وقال:

ـ مولانا السلطان يطلبك يا شيخ.

فقلت له بصوت مخنوق:

ـ لا يزال بيننا وبين انتصاف الليل الكثير.

ـ يدعوك إلى وليمة العشاء.

تذكرت أن هؤلاء لا يعرفون شيئا عن مهمتي. فاستأذنتهم في ارتداء ملابسي. انزويت في غرفة نومي. لبست جلبابا من الجوخ، وضعت على رأسي عمامة محشية بثوب بعلبكي رفيع وآخر من الشاش، فبدت كأنها إحدى قباب القلعة التي ستفتح لي بابها بعد قليل. خرجت وأنا أقول في سري:

ـ الصلب لا محالة، أو الشوي على السفود، وإن أخذته بي رأفة فسجن الرحبة.

خرجنا جميعا ملفوفين بنور شحيح من القمر، الذي أخذ يتعافى ويستعد لإطلاق مصابيحه في أرجاء الأرض، وبدت مآذن القلعة هناك كأنها رماح مغروسة في صدري، وأنا الذي طالما رأيتها في كل أيامي حبال نور وبهجة تصل الأرض بالسماء.

كان المشاعلي يوقد الطريق أمامنا، وأصحاب الحوانيت يعلقون مشاعلهم فتهرب العتمة المتحفزة إلى كهوفها حتى الصباح، أو إلى أن تغضب الريح وتطفئ المشاعل، أو ينقص الزيت حين يسافر الليل بعيدًا.

لم أنظر إلى السماء في الطريق. كنت مشغولا بصندوق خشبي صغير وضعت فيه بعض البخور وأوراق بالية مكتوبة بخطوط ركيكة وجدتها ملقاة في سرداب بإحدى حجرات القصر. حين كنت أصعد سلالم القلعة رأيت القمر على غير هيئته التي انتظرناه عليها.

كانت دائرة الغبش التي تسكن قلبه قد اتسعت وازدادت سوادا، وحسرت نوره في حلقة عند حوافه. وسمعت صوتا يأتي من قلب الظلام لأطفال ينشدون بصوت مسرسع:

«يا بنات الحور سيبوا القمر

القمر مخنوق والنبي حضر».

وتكرر الإنشاد وارتفع، وبدأت تخالطه أصوات لبالغين، وعندها أشرقت في رأسي فكرة عجيبة، فابتسمت وقلت في نفسي: جاء الفرج.

اجتزنا دهاليز معقودة وسط صفين منتظمين من المماليك، الواحد في وجه أخيه. كانوا يحملون الرماح المسنونة بأيديهم، والتي أمالوها حتى تعانقت هاماتها الحادة تحية لنا. صدحت موسيقى عالية تأتي من مكان لا نراه.

دخلنا على السلطان فوجدناه يتقلب على جمر، كان واقفا إلى جانب أريكته، فوقفنا حياله، وتابعناه وهو يتكلم بحرقة، ويتحرك يمنة ويسرة. كان يبدو مجهدا، في عينيه أرق. شفتاه مقددتان. هندامه متهدل. خلفه كثير من المماليك. أحدهم يحمل السيف بيمناه والغمد بيسراه. الثاني يحمل إبريقا، وثالث يحمل قضيبا من الذهب الخالص طوله نصف قصبة. على مسافة من هؤلاء وقف آخرون بظهور مستقيمة وعيون تلمع في وهج الفوانيس. فجأة انهبد السلطان على أريكته، وأشار إلينا بالجلوس فتجاورنا وعيوننا تتابع صمته، حتى نظر إليَّ وقال:

ـ يبدو أننا تأخرنا كثيرًا يا شيخ عاكف.

أملت عمامتي إلى الأمام في تأدب، وقلت:

ـ لا تزال بيننا وبين انتصاف الليلة ساعات.

ابتسم في مرارة وقال:

ـ أشياء إن تبد لكم تسؤكم.

التزمت الصمت، لكنه واصل:

ـ كنت أسعى وراء الشجرة المباركة لُملك أرومه في نسلي، وكنز يضمن لهم ولاء الرجال.

تنحنحت وقلت:

ـ إن شاء الله ستبلغ مرادك يا مولاي.

هز رأسه ساخرا وقال:

ـ سبق السيف العزل.

فجأة دخل كبير الحرس وتقدم حتى وصل إلى أريكة السلطان وهمس في أذنه. نهض مفزوعا، فقمنا جزعين، وامتلأت عيناه بالدموع، فتسربت إلينا أحزان أو تظاهرنا بها دون أن ندري لها سببا. هرول إلى الخارج، وبعده الحرس، فقمنا وراءه لا ندري إلى أين نذهب، وعند الباب توقف كبير الحرس واستدار إلينا وقال:

ـ البقاء لله في الأمير مراد نجل مولانا السلطان.

سرت في عروقي طمأنينة، وقلت في نفسي العبارة الخالدة التي كان يقولها القناوي لنا دوما ليقتل حيرتنا: «العبد في التفكير والرب

في التدبير». رقصت نفسي سرورًا، لكنني كتمت فرحي عمن حولي. كانوا يتظاهرون بالحزن. بعضهم كان حزينًا حقا، ليس على الأمير الراحل إنما على منافعهم التي جمعوها أيام السلطان وكانوا يتمنون أن تستمر مع ابنه. أما أنا فلذت بما آمنت به دوما «المماليك عبيد مناكيد، ناصروا الغزاة، ودافعوا عن الظلم المتتابع بلا هوادة، حتى آل إليهم الأمر، فصاروا سلاطين في غفلة من الزمن»، فليمت نجل السلطان، وليمت السلطان نفسه، وكل المماليك.

ساد في القصر هرج ومرج، وظن بعض الأمراء أن مجموعة من المماليك تريد أن تنقض على السلطان الجريح، وتنزع الملك منه. جاءنا الدوادار وقال:

ـ إغماءة أخذت السلطان فترة، لكنه استرد وعيه الآن، وهو قادم إليكم.

لما أطل السلطان تقدمنا لتعزيته، صافحناه تباعًا، ووقفنا إلى جواره صامتين. كانت الدموع مقددة على خديه، ووجهه مكفهر كأنه عاد من الموت، تقدم نحو أريكته وانهد عليها، وأشار إلينا فجلسنا، ناظرين إليه. رفع بصره ووجهه إليَّ، فسرت رعدة في أوصالي، ثم هبط ببصره إلى أسفل قدميه، وأطرق لحظات في تفكير عميق، بان في انقباض ملامحه، وفي شفتيه المزمومتين، وضروسه المتطابقة، يكاد بعضها أن يصك بعضا. فجأة أعاد بصره إليَّ، وقال:

ـ لم يبق على انتصاف الليل سوى ساعة واحدة.

تبادل الحاضرون نظرات صامتة. لكن السلطان تصفح وجوههم جميعا في برهة، وقال:

ـ لا تتعجبوا، منذ متى كان مَنْ بأيديهم زمام الأمر تُوقفهم الفواجع. أمثالنا لو استسلموا لتصاريف الأيام وأغفلتهم النكبات عما بأيديهم، ما بقوا مكانهم يوما واحدًا.

لم يرد أحد، فواصل:

ـ أتعرفون شجرة الدر؟

قلنا جميعا: نعم.

فقال: لو أنها ولولت على زوجها السلطان الصالح أيوب، ولطمت خدودها، فسمع الناس بنبأ رحيله، ما حافظت على الملك لابنه، وما أعطت فرصة لجيشنا ليهزم الفرنجة، ويردهم على أعقابهم خاسرين.

تعجبنا لما قال، لكننا التزمنا الصمت، وانكمشت أنا في الكرسي، حتى كاد أن يبتلعني، وضربتني جملته الأخيرة التي أطلقها في ثبات، ورن صوته حتى ملأ آذاننا:

ـ لا بد من أن نصل إلى الشجرة المكللة بالجواهر. جيشنا خرج يحارب، والناس ضجت من كثرة المكوس التي نفرضها عليهم، وليس بوسعي أن أطالبهم الآن بأموال جديدة، ليس رأفة بهم، فما خلقوا إلا لكي يكونوا زيتا يشعل مصباح سلطتنا إلى ما شاء الله.

وأكمل كبير الوزراء بصوت خفيض:

ـ لا تنس يا مولانا أن بيت المال قلّ ما فيه بعد فقداننا الشام، وذهب النوبة انخفض تماما بعد أن تاجر البرتغاليون مع بلاد الهند من

خلف ظهورنا، وما ننفقه على الوقاية من الطاعون أو محاولة مداواة من أصابهم باتت فوق طاقتنا.

هز السلطان رأسه مؤمّنا على كلامه، ثم نهض فقمنا، ومشى نحو الباب فتبعناه. لما وصل إلى العتبة استدار وقال:

ـ كل شيء جاهز يا شيخ عاكف على سطح القلعة. أتعشم أن ننجز قبل طلوع الفجر، ففي الصباح سنودع الحبيب الغالي إلى مثواه الأخير.

وما إن صعد أول درجة من السلم حتى صاح:

ـ قادمون إليك أيتها الشجرة الغالية.

* * *

تبعناه، أنا وأتابك العسكر، ووالي منفلوط، وحامل السيف، والساقي، والدوادار، وأمين السر، والجوكندار، ورئيس لاعبي الشطرنج، الذي تربطه بالسلطان أيام طويلة من النظر إلى الرقعة المرصعة بالبيادق والفرسان والأفيال والطابيات وبينها وزيران يكافحان، وملكان يزودان عن عرشهما. كان معنا خادم طواشي يحمل الجرة، واثنان من المشاعلية يحمل كل واحد منهما شعلتين، واحدة في كل يد.

حين صرنا جميعا على السطح رفعنا عيوننا إلى قلب السماء، فرأينا القمر لا يزال مخنوقا. بقعة السواد جاثمة على صدر النور. صوت العيال والكبار الممتزج بحرقة لا يزال يهتف في الخلاء وعند البيوت

الواطئة ويأتي إلينا مخترقا الظلمة الشفيفة. وضع الخادم الجرة أمامي وقال السلطان:

- لنبدأ على الفور، خير البر عاجله.

رفعت وجهي إلى السماء، ثم رفعت سبابتي إلى القمر المخنوق، وقلت للسلطان:

- انظر يا مولانا.

رفع وجهه، وصوب نظره فرأى القمر على حاله الكئيب، ثم رد بصره إليَّ، وقال:

- القمر مخنوق.

فابتسمت وقلت:

- هذا يسمى خسوفًا حلقيًا... قرأت شيئا كثيرًا عن هذا في كتاب «الزيج» للبتّاني، وكتاب البيروني «القانون المسعودي في الحياة والنجوم».

تنحنح والي منفلوط وقال:

- شيخنا لا يقتصر على العلم اللدني، إنما يعرف في علوم أهل الأرض.

أخفضت جبيني وقلت:

- فوق كل ذي علم عليم.

كان الخادم يقف على بعد خطوات من جلستنا، التي أعدها السلطان قبل أن يفارق ابنه الحياة، فتقدم خطوة وقال بصوت مخنوق:

- القمر حزين على رحيل مولاي الأمير.

فقلنا جميعا من دون أن ننظر إليه أو نناقش ما ذكره:

- رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

سادت لحظة صمت، ومصمص كبير الحرس شفتيه، ورفعت وجهي إلى السلطان، وقلت:

- حزن القمر على الأمير لن يمكننا من أن ننجز مهمتنا الليلة.

فاكتسى وجه السلطان بغضب ظاهر وسأل:

- ما معنى هذا؟

قلت:

- معناه بوضوح يا مولانا أن حظنا الليلة عاثر، ومرادنا لم يحن وقت تحقيقه بعد، والله يفعل ما يريد.

أشاح بيده في وجهي وقال، وقد احتدت نبرة صوته:

- كلام فارغ.

وتبعه والي منفلوط:

- قتلتنا بعد أن أحييتنا يا شيخ.

فقلت لهما بصوت خفيض:

- حرصي على بلوغ الشجرة المباركة ليس أقل من حرصكما، مولاي يريد الجواهر وأنت أيها الوالي تريد دواء لابنتك المريضة، أما أنا فأريد أن أواصل طريقي إلى الله، لا طمع لي في مال ولا في صحة.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها السلطان كلاما كهذا عن ابنة والي منفلوط، فترك كل شيء وقال له غاضبًا:

- لم تخبرني من قبل بمرادك.

نظر الرجل إليَّ بغيظ، ثم سيطر على ملامحه المنقبضة فبسطها قدر ما استطاع، وقال:

- جاءني رسول بالخبر اليوم، وكان مولاي في شغل، فلم أشأ أن أزيد انشغاله.

فنظر إليه السلطان مليًّا، وشعر أنه يكذب لكنه واصل كلامه:

- ومن قال لرسولك أن دواء ابنتك في الشجرة؟

فقال والي منفلوط على الفور:

- ساحر مغربي كان يمر ببلادنا صدفة، فاستدعاه أخي ليرى ابنتي.

رد السلطان على الفور:

- ساحر آخر قال لي الكلام نفسه عن ولدي رحمة الله عليه.

تنفس والي منفلوط الصعداء، وقال:

- لم تتأخر يا مولاي في فعل كل ما استطعت، ولكل أجل كتاب، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (النحل:٦١).

قلت في نفسي الحديث ينزلق بعيدًا عن الشجرة المزعومة، وقد نعبر الليلة بسلام. لكن السلطان عاد فجأة وسألني:

- أليست هناك فرصة الليلة يا عاكف؟

قلت بصوت ملأته ثقة:

- إذا حان القضاء ضاق الفضاء.

هز السلطان رأسه وقال ساخرًا:

- يبدو أننا سنقضي الليلة نتبارز في ضرب الأمثال والحكم.

قلت له:

- ما جرى فوق طاقتي، والله لم يأذن بعد في كشف السر الكبير.

عاد إلى سخريته:

- يبدو أن هذا الإذن لن يأتي أبدًا.

قلت له مطمئنًا:

- في مثل هذه الليلة من الشهر العربي المقبل، والقمر بدر، ستنفرج الغمة.

قال وهو ينهض متثاقلًا:

- موت يا حمار.

ضحك فضحكنا واقفين حوله. تحرك المشاعلي نحو السلم فمشينا خلفه. كانت الحسرة تكسو وجوه الجميع بينما ترقص في قلبي فرحة عارمة.

لما خرجت من القلعة أخذت نفسا عميقًا، ونظرت في السماء طويلًا، وسرت منتشيًا بالنسائم الطرية التي هبت فجأة، وقادتني خطواتي إلى قلب الحشد، الذي اتسع، وعلت صرخاته:

يا بنات الحور.. سيبوا القمر

تراقصت مع العيال والرجال الصادحين بالغناء المر، وأنا أرنو إلى هالات النور المنبعثة من جنبات القلعة، وأقول في نفسي: نجوت من السلطان الغشوم لكنها نجاة لن تدوم.

أنقذني الخسوف هذه المرة، لكنه لن يأتي الشهر المقبل أبدًا، إلا إذا بانت علامة من علامات القيامة. قيامتي أنا بعد شهر من الآن. عندها تذكرت نظرية جحا وضحكت وسط الساعين إلى فك أسر القمر، حتى كدت أن أسقط على قفاي. الملك الذي أراد أن يعلم حصانه القراءة والكتابة، وكلما جاء بمعلم وطلب منه هذا استغرب وسخر في نفسه ثم أظهر للملك عجزه فأمر بقطع رقبته، وهكذا من معلم إلى آخر، حتى جاء الدور على جحا، فقال للملك: سأفعل يا مولاي كل ما تطلب لكن الحصان يحتاج إلى ثلاث سنوات حتى يتقن القراءة والكتابة، فتهلل السلطان ووافق على الفور. ولما سأل الناس جحا: كيف تتعهد بما لا يمكنك فعله؟ فقال: في غضون السنوات الثلاث، إما أن يكون الملك قد مات، أو مات الحصان، أو فارقت أنا الدنيا.

هل يموت السلطان حقا خلال الأسابيع الأربعة المقبلة؟ أم أصعد أنا إلى صهوة قصري المستعار وألقي بنفسي في النيل؟ أم أتمكن من الهرب جنوبًا إلى حيث مثواي الأخير، عاجلًا أم آجلًا؟.. لا إجابات لديّ الآن على أي شيء، فقررت أن أخلع نفسي من بين المهللين، وأتسلل إلى غرفة نومي، أغلق الباب عليّ، وأنام حتى أسترد عافيتي، أو تفارق روحي جسدي بسلام، فأرتاح إلى الأبد.

(١٩)

في الأسبوع التالي جاءنا خبر موت صفوان. عاد نصف الجيش إلى المحروسة بعد تأديب الفرنجة في عرض البحر، وبقي النصف الآخر يطارد فلولهم في براري رودس وصقلية. أحد العائدين قال لحفصة حاملا إليها رسالة عاكف الأخيرة:

ـ قاتل ببسالة كأنه خلق ليحارب، لكن جاءه رمح بين عينيه، فسقط مضرجًا في دمائه تحت ظل شجرة بلخ، دفناه بين جذورها المتشابكة. قرأنا عليه الفاتحة، وأودعناه لدى الذي لا تضيع عنده الودائع.

صرخت يومها صرخة دوت في أرجاء القلعة، فتسللت إلى مخدع السلطان. نادى أحد الحراس، وسأله فقال له:

ـ المرأة التي ذهب زوجها إلى قتال الفرنجة واستشهد.

كان قد نسيها في غمرة أحزانه على ابنه الراحل، وانهماكه بالوصول إلى الكنز الكامن في الشجرة المباركة. أشرق وجهها في ذاكرته، فطلبها. جاءت إليه منكسة الرأس، مفطورة الملامح، تمشي على مهل، وكأنها ذاهبة إلى الجحيم. فلما رآها أكبرها، وقام إليها مادًا يده فمدت يدها.

لانت راحتها الطرية في راحته الخشنة، وشعرت هي بقشعريرة تسري في أوصالها، فسحبت يدها، وتراجعت خطوات وهو يتابعها بنهم.

قاوم نهمه، وكأنه لا يريد أن يظهر أمامها بهذا الضعف، وقال:

ـ سمعت أنك تجيدين القراءة والكتابة.

ابتسمت وقالت:

ـ نعم يا مولاي.

ـ وعرفت أنك قرأت كتبًا كثيرة في بعض بيوت الأمراء.

فادركت ما يلمح له وقالت:

ـ أيام ذهبت بغير رجعة، ولم يبق منها سوى محصول العلم.

ابتسم وقال:

ـ غريبة هي الدنيا، امرأة مثلك تترك بيوت الأمراء وتتزوج رجلا من الجرابيع... وامرأة مثلك لا تمر من قبل علينا.

فردت عليه بصوت يملؤه الخشوع:

ـ جربوع في الدنيا قد تكون منزلته عند ربه أعلى ممن يعتقدون أنهم يملكون الأرض ومن عليها.

أطرق صامتًا، ثم تنحنح وقال لها:

ـ لا تجزعي، أنت هنا عزيزة مكرمة، ابقي مع الحريم.

خرجت لا تنتظر منه خيرا، وزاد انكسارها، فانحنت في الردهة المؤدية إلى الحرملك. انتظرت حتى فرش الليل رداءه على القلعة،

وتسللت خارجة، ثم تقدمت على أطراف أصابعها تحت السور العظيم. ومكثت قريبا من باب العزب تتسمع، فلما اطمأنت إلى أن الحارس الموجود هناك هو مراد الأتابكي، خرجت إليه، وهمست في الظلام فاقترب منها، وهو يقول:

ـ حفصة... حفصة... تعالي.

مراد مملوك طيب، كان أستاذه القديم من أشد المعجبين بالشيخ القناوي، يسانده من بعيد، ويتمنى أن يقود تمردا كبيرا ضد السلطان، الذي بدا في نظره أصغر كثيرا من الأريكة المذهبة التي يتكئ عليها. طالما حمل مراد رسائل من أستاذه إلى القناوي في الزمان الأول، وفي كثرة تردده على شيخنا تعرف على صفوان، وصارا صديقين.

قال لها والظلام يخفي ملامحه:

ـ أستذهبين إلى الشيخ عاكف كالعادة؟

فأجهشت باكية وقالت:

ـ ألا تعرف أن صفوان قد مات؟

صرخ في تأثر:

ـ مات!

قالت له جزعة:

ـ أخفض صوتك يا مراد.

ـ لا تخافي أبدًا.

ـ يكاد الخوف أن يشلني.

ـ ممن؟

ـ من السلطان.

ـ السلطان؟!!

ـ ليس غيره... ينظر إليَّ بعينين نهمتين، واليوم استدعاني وتفرس في وجهي بطريقة أخجلتني، ثم أمرني بالانضمام إلى حريمه، وإن انتظرت إلى الغد فقد يقع المحظور.

ـ رجل نهم في كل شيء المال والنساء والطعام.

ـ لا يريد أن يرحم أحزاني.

ـ قاتله الله، تعالي فاخرجي إلى حيث شئت، لكني أخشى عليك من المنسر، أو المماليك السكارى.

ـ الله خير حارس.

ثم سمعته وهي تنبعث في العتمة الرقيقة يقول بحرقة:

ـ وداعا يا أعز الناس.

* * *

مضت تتلمس طريقها في ميدان صلاح الدين الفسيح، ثم احتمت بظلمة الجدر الواطئة، حتى وصلت إلى النيل. انعطفت يمينا ويدها فوق رأسها لتثبت طرحتها السوداء التي هفهفت في النسيم العليل،

حتى وصلت إلى قصري المستعار، فوجدتني جالسا في حديقته، فوق رأسي فانوس، وفي يدي المصحف.

لما رأيتها رقص قلبي في صدري، وقمت إليها متأرجحًا بين إقدام تصنعه اللهفة وإدبار من ثقل الهوى. ضربت بقدمي في الأرض حتى اقتربت منها، وكانت هي تقترب بخطوات أسرع. لما صارت بيننا خطوة واحدة، مددت يدي إليها في تأثر وقلت لها:

ـ الباقية في حياتك.

فسحت دموعها، لتروي خدها المقدد من جديد، وقالت في تأثر بالغ:

ـ في حياتك أنت يا شيخ عاكف.

طربت لسماع حروف اسمي تغرد هي بها. ساحرة حتى في أحزانها. نظرت إلى وجهها الذي انعكس عليه نور الشعلة ونارها فتوهج حتى خطف بصري. وقلت في نفسي:

ـ الأقدار ترتب لك أشياء أخرى يا عاكف، جئت إلى المحروسة ساعيا إلى كشف أسرار الشجرة المباركة، وأنت مدفوع بإرادة جنية طموحة، فذهبت الجنية وغارت الشجرة أكثر في أسرارها المكنونة، وجاءتك إنسية أروع مما تصور خيالك.

لاحظت هي شرودي، فقالت:

ـ يبدو أنني سأسبب لك المتاعب.

فقلت لها وأنا أمد يدي لعلها تضع فيها يدها:

- روحي فداك يا حفصة.

فأطرقت صامتة، ولذت أنا بعجزي فانكسرت على مقعدي، والتقطت المصحف، وقلبت صفحاته سريعا، ورحت أقرأ بصوت خفيض مخنوق:

﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى: ١-١١).

(٢٠)

ساعات مرت، في يدي المصحف وأمامي حفصة. رفرفت روحي من فرط السعادة، حتى شعرت أنها تغمر كل قلعة الجبل، ثم تتسلل إلى مخدع السلطان وتسطع في عينيه فتعميه، وتتجمع لتصير خيط نار يخرق أذنيه فيصبح أصم، ويخرم لسانه فيخرس، ثم تنقر جبهته فتنفلق، ويهوى صريعا.

قلت لحفصة ما يدور بخلدي فقالت:

- اتق الله يا عاكف، أتقول هذا وفي يدك كتاب ربنا، ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٤٣).

فابتسمت وقلت لها:

- تهربين منه وترأفين به.

- رجل جاهل، فلنعذره بجهله.

ـ إنه سلطان البلاد. ولو على الجهل وحده لربما تحملنا، لكنه عنيد، وأتصور أن الله حين خلقه لم يضع في رأسه مثقال ذرة من خيال.

ـ الأمر وُسد إلى غير أهله، وهو ليس الجاهل الأول ولا الأخير الذي يحكمنا.

سادت لحظة صمت قطعتها قائلًا:

ـ في منتصف الشهر العربي القادم سيبت في أمري، ولا أتوقع أفضل من إزهاق روحي، وساعتها ستعرفين لماذا أكرهه.

عاد الصمت، وقطعته ثانية بقولي لها في جزع:

ـ ربما وصله الآن خبر هروبك ولجوئك إليّ، وربما أرسل وراءك من يحضرك إليه.

ـ لم يعرف بخروجي من القلعة سوى مراد الأتابكي.

ضحكت حتى كدت أن أقع على قفاي، وقلت لها:

ـ لقد مررتِ بجيش من البصاصين. هم مزروعون في كل شبر، تحت حجر البيوت وفي تراب الشوارع، يركبون ظهورنا، ويتسللون مع الهواء إلى رئاتنا، ومع الدم إلى رءوسنا، يريدون أن يعرفوا كل شيء، حتى دبة النملة في هذا البلد لا تخفى عليهم.

ثم تلفت حولي وقلت لها:

ـ الموجودن في هذا القصر من الحرس والخدام وحتى البشمقدار والسقّاء، كلهم من البصاصين.. يجب أن أبحث لك عن مكان آمن.

فضحكت وقالت:

ـ الشجرة ورائي، خلعتني في الزمان الأول من خص أبي، وكنت أستحسنه أكثر مما استحسنت الحرملك، وهاهي تطارني في هذا القصر لأعود إلى جب آخر.

فنقرت في رأسي وقلت لها:

ـ ليس جُبًا.

ـ ماذا سيكون؟

ـ مكان لا يخطر ببالهم أبدًا أنك قد حللت فيه.

أخذتها في النصف الثاني من الليل، وهربنا من النافذة الخلفية. كان هناك قارب صغير من ممتلكات القصر، يرسو على الشط ملتصقا بالطمي منذ مدة. دفعته إلى الماء بصعوبة، ثم رفعت حفصة فجلست في منتصفه. قفزت أنا وأمسكت بالمجدافين، وضربت الماء متجها صوب الجنوب.

كان الظلام يرسو على المركب فبدونا نسير على أجنحة الليل، ولا صوت يتهادى إلينا إلا قشيب الماء، ونقيق الضفادع الآتية من البر الغربي، وصراخ متقطع يأتي من جوف المحروسة الأسود المثقوب بلهب المشاعل. قالت حفصة بعد أن أنصتت طويلًا:

ـ مملوك يضرب حمارًا.

كنا نجدف عكس التيار، بعد أن دفعنا المركب بصعوبة إلى منتصف النهر، وبعيدا عن الشط الشرقي المزروع بالبصاصين. مررنا على يمين جزيرة بولاق التي لم تلبث أن سلمتنا إلى جزيرة الروضة وانتهينا إلى المقياس، فعدنا بتمهل شديد إلى الشاطيء الشرقي ورسونا في مواجهة

أثر النبي ولاحت في الظلام المشاعل المغروسة في قلب تل بابليون، تسللنا بهدوء حتى وصلنا إلى الجهة المقابلة لكنيسة أبو سرجة التي ترقد تحت ضوء شحيح للمشاعل، فتظهر بعض أعمدتها التي تحوي رسومًا لتلاميذ المسيح. نزلنا وقطعنا الطريق إلى الكنيسة، وعند بابها، قالت حفصة:

ـ أهذا مكان آمن؟

ضحكت وقلت لها:

ـ أسفل هذه الكنيسة سرداب لا يعرفه إلا أهلها.

وناديت:

ـ يا برسوم.

فجاء إلينا رجل في ظهره حدبة، وفي عينيه صبر، فاقتربت منه وقلت:

ـ أنا عاكف، تلميذ القناوي، صديقك يا برسوم.

نظر إليّ مليا، ثم تهلل وجهه وضحكت عيناه، وأخذني بين ذراعيه وقال:

ـ ياه... ياه، ظننتك مت يا عاكف.

ـ لا أزال حيا أرزق يا برسوم.

ـ لم يغير الزمن شيئا في سحنتك.

ونظر ورائي فوجد امرأة ملفوفة في ملاءتها، فقال:

ـ هل تزوجت؟

فقلت له:

ـ حفصة، أرملة صفوان.

وكدت أن أقول له: ومعشوقتي، لكني أمسكت وواصلت:

ـ نطلب حمايتها.

لكن الدهشة انعقدت على جبينه وسألني في جزع:

ـ أتقول أرملته؟

ـ مات في حرب الفرنجة، ودفن في بلاد بعيدة.

اغرورقت عيناه بالدمع، وقال:

ـ تقدست روحه، لقد كان رجلا طيبًا.

ساد صمت مطبق، قطعته قائلا لبرسوم:

ـ حفصة أمانة لديك حتى يقضي الله أمرا كان مفعولًا.

فقال:

ـ ستبقى مع الراهبات، عزيزة مكرمة، حتى تعود.

وجاء من الداخل صوت شجي يتلو:

«فحسن للرجل أن لا يمس امرأة، ولكن لسبب الزنا ليكن لكل واحد امرأته، وليكن لكل واحدة رجلها. ليوف الرجل المرأة حقها الواجب، وكذلك المرأة أيضا الرجل. ليس للمرأة تسلط

على جسدها بل للرجل. وكذلك الرجل أيضا ليس له تسلط على جسده بل للمرأة».

ابتسم برسوم وقال:

ـ القس إسحق الإخميمي، لا يفعل شيئا سوى قراءة الإنجيل في النهار والليل.

فسلمت وانسحبت من المكان في هدوء، وصوت إسحق يصلني:

«ولكن أقول لغير المتزوجين وللأرامل إنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا، ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا لأن التزوج أصلح من التحرق».

قفلت راجعا إلى المركب، وأتى من جوف الظلام عواء ذئب، فردت الكلاب بفاصل طويل من النباح، ظل يقتحم أذني حتى دفعت المجدافين في لجاج الماء.

ربطت المركب في وتد مغروس بين نجيل الشاطئ والسور الخفيض لحديقة القصر. تسللت من الباب الخلفي حتى دخلت البهو، وسمعت دبيب أقدام تجري هنا وهناك، وتناهى إلى سمعي همس قادم من جنبات مظلمة.

دخلت غرفتي، ورحت أخلع ملابسي، وفجأة سمعت طرقًا خفيفًا على الباب، فناديت بصوت مبحوح:

ـ من؟

فقال الخادم ذو الصوت الأجش:

ـ أنا يا شيخنا.

فأذنت له بالدخول، فوجدته يخفض رأسه في انكسار ويقول:

ـ جاء عشرة مماليك ليأخذوا المرأة التي دخلت إلى هنا أول المساء. سألوا عنك فناديتك ولم تجب، وأكدت لهم أنك لم تخرج من الباب أبدًا، ولم تخرج المرأة أيضًا، ففتشوا كل غرف القصر، ثم انصرفوا خائبين.

* * *

في الصباح، استدعاني السلطان، فارتديت أحسن ما عندي، وسرت في الطريق برفقة ثلاثة من الجنود، وعيون البصاصين تتابعنا من بعيد، حتى وصلنا إلى قلعة الجبل.

وجدت في عيني السلطان لهفة على حفصة أكثر من لهفته على الشجرة، وتعجبت من تبدل حال الرجل. أمر الحراس بأن يخرجوا فصرنا وحيدين. كان مهمومًا ومتعبًا، وكنت أضرب الخوف الناشب في صدري على رأسه فيغفو قليلًا ثم يعود. تنحنح ثم عطس فانتهزت الفرصة وقلت له:

ـ يرحمك الله يا مولانا.

فابتسم في فتور وقال:

ـ لا نعرف الرحمة منك سوى في كلام معسول.

فتمالكت نفسي وقلت بصوت كسوته ثقة لا أدري من أين أتت إليَّ:

ـ لا نملك حيالكم سوى الدعاء لكم، أما التدبير ففي يد الله الكريم.

فاكتست سحنته بغضب ورد وهو يشيح بوجهه عني:

ـ أين خبأت المرأة التي مات زوجها يا عاكف؟

ـ أي امرأة؟

ـ أتراوغني، وأنت من أهل الطريق؟ ماذا تركت للمنسر والعيارين وجند المماليك الذين تسرى الخيانة في دمائهم.

تعجبت من رأيه الأخير في المماليك وهو منهم، لكنني قلت له:

ـ يا مولاي. صدى كلامك لا يزال يرن في أذني، وأهل الطريق لا يجرون وراء النساء.

ـ لاذت بك حفصة، تخاف مني، مع أني لا أنوي إيذاءها.

ـ نعم جاءت، وطمأنتها، فخرجت من عندي، ولم أرها بعدها.

ـ كل البصاصين يقولون أنها دخلت إلى القصر الذي تقيم فيه ولم تخرج، ويقولون إنك أنت اختفيت حتى الصباح.

ـ هي خرجت، أما اختفائي فهذا أمره عند ربي.

ـ أعرف أنك من أهل الخطوة، ربما عرجت ليلة أمس إلى الكعبة.

ـ أسرار الله لا حد لها.

سادت لحظة صمت قطعتها قائلًا:

ـ لا أريد لحادث عارض أن يفسد ودك لي، وحدبك عليَّ يا مولاي، ويثنينا عن هدفنا الكبير في الوصول إلى الشجرة المباركة.

فبدا عليه عدم الاقتناع، لكنه أشار إلى الباب، وقال:

ـ لا عليك، اذهب يا شيخ عاكف.

وفي رحلة عودتي لمحت بطرف عيني ثلاثة بصاصين يتبعونني من بعيد. توغلت في شارع حدرة البقرة وأنا أشعر أن كل النوافذ والمشربيات مرشوقة بعيون تراقبني. فجأة برقت في ذهني فكرة انشرح لها الفؤاد وتبدد الخوف، فسرت سعيدًا إلى حمام الساباط، وقلت في نفسي: أغسل جسدي قبل أن أذهب إلى خزانة كتب المدرسة المحمودية، التي طالما ارتدتها أيام شيخي القناوي العظيم.

(٢١)

في الحمام اختمرت الفكرة بينما الماء الساخن يضرب جسدي، والبخار يغمر رأسي. ملت على رجل يغطس جانبي، عرفت من حواره مع آخر أنه فرّان من حارة برجوان. همست في أذنه:

ـ أنت رجل طيب، سأهديك ثيابا من الكمخة.

فامتلأ وجهه عجبا، وقال:

ـ ولِمَ تهدي ثيابًا من أفخر الحرير إلى رجل لا تعرفه؟

ابتسمت وقلت:

ـ لأنك ستهديني ثيابك.

فقهقه وقال:

ـ إنها من الكتان، ومليئة بالثقوب، وبها سبع رقع.

ففكرت برهة وقلت له:

ـ لأني سأهديها إلى مجذوب يطرق بابي كل ليلة، ويطلب مني أن

أكسيه، وحين أعطيته ثوبا جديدا نظيفا ألقاه في وجهي وقال: هذا لمن يريد الدنيا.

هز الفران رأسه وقال:

ـ ساعدك الله على فعل الخير.

تركت جسدي للمكيساتي، الذي جاء وفي يده حجر أحمر، وصابونة من زيت الزيتون وليفة من القماش الخشن، وراح يحك جلدي ويدلكه بإخلاص شديد.

تبادلت الثياب أنا والفران، فخرجت من الحمام بهيئة غير التي دخلت بها، وقلت في سري: ليأكل البصاصون عيونهم الشريرة.

وجدت نفسي أسير في الشوارع بحرية لأول مرة، قاطعًا طريقي إلى إسطبل عنتر ومنه إلى كنيسة أبو سرجة حيث حفصة، سدرة منتهى الحسن، ومنية قلبي المكلوم.

* * *

رآني برسوم على هيئتي فاستغرب، وكتم الضحك وهو يقول:

ـ غادرتنا كأمير وعدت إلينا كدرويش.

فحكيت له قصتي فنظر إليَّ مليًّا وقال:

ـ أتقصد شجرة مريم؟

نظرت إليه وفي عيني استفهام وعجب، فواصل:

ـ شجرة جميز عتيقة استظل بها يسوع وأمه ويوسف النجّار في

رحلة هروبهم، حين توقفوا في طريقهم من سمنود إلى الصعيد، موجودة الآن في المطرية عند ضاحية عين شمس، قريبة من مسلة فرعونية شهيرة.

ابتسمت وقلت له:

ـ لو كانت هي الشجرة المقصودة، ما كان كل هذا العناء.

نادى برسوم:

ـ يا مريانا، أبلغي أختنا حفصة أن عاكف في انتظارها.

رأتني حفصة على هيئتي فملأت عينيها مني، وقالت ووجهها يكاد أن يضيء:

ـ كيف حالك يا صاحب الخرقة؟

ـ تنكرت حتى أتمكن من زيارتك.

ـ كلّي أسف. حملتك فوق طاقتك.

هاج قلبي لوعة، فوضعت يدي على كتفيّ وقلت لها:

ـ هذا زادك وهذا ماء لتشربي.

ثم وضعت يدي على عنقي وقلت:

ـ وهذه فداؤك يا حفصة.

فاحمر وجهها، وصار تفاحة شهية، لكنها لم تلبث أن استردت نفسها، وغيرت مجرى الحديث قائلة:

ـ تبدو من أهل الطريق.

ـ ما أبعدني عنهم.

ـ بل ما أقربك يا عاكف.

ـ كنت أظن هكذا أيام القناوي.

ـ الظنون أكلها الزمن، والآن يمكن أن تكون يقينًا.

ـ يقين.

ـ أقرب من حبل الوريد.

ـ أنا؟!

ـ لا يعرف الإنسان نفسه.

ـ أنا أعرف، شاب كان يحلم بالخروج على السلطان الجائر، فصار رجلًا ضائعًا تحت قدم من يجلس منتفخا على عرش قلعة الجبل.

ـ ليس هذا فقط.

ـ ماذا إذن؟

ـ نهار التي أخذتك إلى الفضاء البعيد.

مادت الأرض من تحتي، واتسعت حدقتاي وركبت رأسي ظنون لا قرار لها، وصرخت فيها:

ـ هذه حكاية لا يعلمها إنس سوى أنا.

فابتسمت وقالت:

ـ فوق كل ذي علم عليم.

ثم اكتست ملامحها صرامة لم أعهدها من قبل وقالت:

ـ أدرك منذ زمن ما يدور برأسك عني يا عاكف، من قبل كان هذا حرامًا، واليوم مكروهًا لأن جثة صاحبك الراقد وراء البحر لا تزال طرية، وغدًا سيفتح الطريق على اتساعه، فلا تتعجل.

ـ حتى هذه عرفتها يا حفصة؟

اسمع يا عاكف.

ـ كلّي آذان مصغية.

ـ أنت جاهل على علمك، ناقص على سعيك إلى الاكتمال، ضائع رغم أنك تعتقد أن السلطنة كلها معلقة في ذيل جلبابك.

تابعتها صامتا فواصلت:

ـ ضيعت عمرك في دربين غريبين عليك، وآن لك أن تسلك ما خلقت من أجله.

ـ ما هو؟

ـ قلت لك لا تتعجل، ستدركه يومًا، وأنت راقد تحت الشجرة المباركة، وعمرك وراءك بالمئات. وقتها فقط ستتذكر ما أقوله لك اليوم، لديك ما هو أفضل مما لديّ، لكن بينك وبينه غشاوة، فارفع الستائر السوداء، واستقبل النور.

ـ كلامك غريب هذه المرة يا حفصة.

ـ الأغرب قادم.

فنظرت في وجهها الذي يشع ضياء ورضاء، وسألتها:

ـ من أين لك كل هذا يا أغلى الناس.

فابتسمت وقالت:

ـ لا تسأل عما لم تحط به خبرًا.

ثم رجعت خطوتين إلى الوراء وقالت:

ـ لا ترجع إلى القصر، فالشر هناك ينتظرك. اذهب على هيئتك تلك إلى خانقاه، واذكر مع الذاكرين. اجعل مشيك بين مجالس الذكر وأماكن العلم، والمحروسة عامرة بالمكتبات التي أوقفها أهل الخير والمعرفة.

ـ من أين أبدأ؟

ـ اقرأ عن ذي النون وسيرته، وتعالى بعدها لنتحدث، دون ذلك لا كلام بيننا يا عاكف.

خرجت من عندها قاصدًا الأزهر. صليت العصر وراء الشيخ بسام الدين، وبعد الصلاة سألته عن الطريق إلى ذي النون فأشرق وجهه وقال:

ـ في بيتي ما يقرأ عنه، إنه الولي الذي اتخذ من التقرب إلى الله منتهى رغبته، ومعقد أمله ومقصده، وغاية مراده ومنيته، وأقصى مرامه وبغيته، وأعلى ما تثب إليه روحه، ويسعى جسده. لم يكن زاهدا وعابدا عابرا في تاريخ التصوف ومسيرته، بل كان من أصحاب الأذواق والمواجيد وأرباب المعرفة والرأي والفقه. تقلبت أحواله حتى اختلف عليه الناس، وتناثرت أخباره حتى تفرق بشأنه

المؤرخون، واختلطت أقواله حتى ساح من تدبر سيرته في ظنون لا نهاية لها، عن مسلكه ومصيره، وعن معتقداته وأفكاره وتقديره. لم يسلم ميلاده ومماته من هذا التناثر والتضارب والاختلاط، فقيل إنه مات لستين عامًا، كما قيل إنه مات عن تسعين حولًا كاملًا.

تابعته صامتا، وكلامه يهزني، فلما انتهى رفعت وجهي إليه، وقلت:

ـ كلامك سحر يا مولانا، علمني مما علمك الله.

فابتسم وقال:

ـ تعال لتتعلم.

وضرب لي موعدًا بعد صلاة العشاء، فذهبت إلى بيته الملاصق للجامع الأزهر، ووجدت عنده ثلاثة صناديق ضخمة مملوءة عن آخرها بالكتب. مد يده إلى أحدها وراح يقلبه ويستخرج بعض الكتب منه، حتى صارت أمامي على طبلية صغيرة، كان يجلس ليكتب عليها في قراطيسه، أربعة كتب، ثم مدها إليَّ وقال:

ـ اقرأ وتعلم.

فتحت كتابًا، فوجدته يصف ذا النون بأنه «العارف الناطق بالحقائق، الفائق للطرائق، ذو العبارات الوثيقة، والإشارات الدقيقة، والصفات الكاملة، والنفس العاملة، والهمم الجلية، والطريقة المرضية، والمحاسن الجزيلة المتبعة، والأفعال والأقوال التي لا تخشى منها تبعة، زهت به مصر وديارها، وأشرق بنوره ليلها ونهارها».

قلت في نفسي: إنه الكمال الإنساني، لكن ألهذا فقط طلبت مني حفصة أن أطلع على سيرته العامرة بالأحوال والمقامات.

قرأت أن ذا النون كانت له مهارة في علم الكيمياء وصناعتها، تعلمها من جابر بن حيان، وبرع في فنون التنجيم والسحر وفك الطلاسم. كان من المنشغلين بحل رموز ورق البردي في إخميم، التي كانت حافلة بالرسوم القبطية القديمة، وتمكن بالفعل من حل كثير من رموزها ونقوشها، فصارت معلومة للناس بعد جهل، وواضحة بعد غموض.

قلت في نفسي: أتريد مني حفصة أن أتعلم فنون السحر والتنجيم حتى نصل إلى الشجرة المباركة. ثم طردت هذا الخاطر، لأني لم أسمعها يوما تتحدث عن هذا الأمر، وما رأيت منها ما يدل على أنها تسير أو حتى سارت يوما على هذا الدرب.

واصلت القراءة، وفجأ توقفت عند نقطة أمعنت فيها النظر، ثم صرخت من أعماقي: هي هي. وأغمضت عيني على دموع طفرت منها وشعرت بامتنان عجيب نحو حفصة. آه يا حفصتي، تريدين مني أن أصلب عودي، ولا أخشى السلطان.

فها هو كتاب بين يدي يشرح، أن الخليفة المتوكل أمر بقتل ذي النون لكن الرجل لم يخف، بل ذهب رافعا رأسه، وواجهه. فها هو عمرو بن السرح يروي: قلت لذي النون: كيف خلصت من المتوكل، وقد أمر بقتلك؟ قال: لما أوصلني الغلام، قلت في نفسي: يا من ليس في البحار قطرات، ولا في ديلج الرياح ديلجات، ولا في الأرض خبيئات، ولا في القلوب خطرات، إلا وهي عليك دليلات، ولك شاهدات، وبربوبيتك معترفات، وفي قدرتك متحيرات، فبالقدرة التي تُجيرُ بها من في الأرضين والسماوات إلا صليت على محمد وعلى

آل محمد، وأخذت قلبه عني، فقام المتوكل يخطو حتى اعتنقني، ثم قال: أتعبناك يا أبا الفيض. وأخذت قلم الشيخ بسام، ونقلت في قرطاسي عن ذي النون دعاءه العظيم: «إلهي، لا تترك بيني وبين أقصى مرادي حجابا إلا هتكته، ولا حاجزا إلا رفعته، ولا وعرا إلا سهلته، ولا بابا إلا فتحته، حتى تقيم قلبي بين ضياء معرفتك، وتذيقني طعم محبتك، وتبرد بالرضى منك فؤادي، وجميع أحوالي، حتى لا أختار غير ما تختاره، وتجعل لي مقاما بين مقامات أهل ولايتك، ومضطربا فسيحا في ميدان طاعتك».

خرجت من بيت بسام الدين وأنا أردد في تبتل:

«ألا خل خدوم؟

ألا صديق يدوم؟

ألا حليف وداد؟

ألا صحيح اعتقاد؟

أين من استراح قلبه بحب الله؟

أين من ظهر على جوارحه نور خدمة الله؟

أين من عرف الطريق؟

أين من نظر بالتحقيق؟

أين من سقى فباح؟

أين من بكى وناح؟

ثم أنشدت، حتى ارتفع صوتي، وسمعه العابرون:

أطلبوا لأنفسكم — مثلما وجدت أنا

قد وجدت لي سكنا — ليس في هواه عنا

إن بعدت قربني — أو قربت منه دنا».

ولكزني رجل بكوعه وأنا أدور في العطوف، وصرخ في وجهي:

ـ ابتعد يا مجذوب، أسمالك المتسخة حكت جلبابي.

نظرت إليه مبتسمًا حتى زال الغضب عن وجهه، ثم أخذت طريقي إلى حفصة، فلما رأتني تهللت، وقالت:

ـ جئت غير ما ذهبت.

فابتسمت وقلت لها:

ـ سبحان مغير القلوب.

اقتربت منها وهمست في أذنها:

ـ لم يكن الطريق بعيدًا عني أبدًا في رحلتي الطويلة، كنت أراه، ويتهادى أمامي أحيانًا، فأضع عليه قدمي، لكن تأخذني منعرجات لا تنتهي.

فنظرت في عيني طويلًا وقالت:

ـ لا تتعجل يا عاكف، درب السالكين طويل.

وتملكني صمت لبرهة، ثم سألتني:

ثم أنشدت، حتى ارتفع صوتي، وسمعه العابرون:

أطلبوا لأنفسكم ... مثلما وجدت أنا
قد وجدت لي سكنا ... ليس في هواه عنا
إن بعدت قربني ... أو قربت منه دنا».

ولكزني رجل بكوعه وأنا أدور في العطوف، وصرخ في وجهي:

- ابتعد يا مجذوب، أسمالك المتسخة حكت جلبابي.

نظرت إليه مبتسمًا حتى زال الغضب عن وجهه، ثم أخذت طريقي إلى حفصة، فلما رأتني تهللت، وقالت:

- جئت غير ما ذهبت.

فابتسمت وقلت لها:

- سبحان مغير القلوب.

اقتربت منها وهمست في أذنها:

- لم يكن الطريق بعيدًا عني أبدًا في رحلتي الطويلة، كنت أراه، ويتهادى أمامي أحيانًا، فأضع عليه قدمي، لكن تأخذني منعرجات لا تنتهي.

فنظرت في عيني طويلًا وقالت:

- لا تتعجل يا عاكف، درب السالكين طويل.

وتملكني صمت لبرهة، ثم سألتني:

- أعرفت من هو ذو النون؟

فقلت على الفور:

- هو أبو الفيض ذوالنون ثوبان بن إبراهيم المصري، وقيل الفيض، أو فيض بن أحمد، وقيل: فيض بن إبراهيم النوبي الإخميمي، وكنيته «أبو الفيض»، ويقال: أبا الفياض. ولد في أواخر أيام المنصور، على الأرجح عام ١٨٥ هـ وقد قيل إن ذا النون من موالي قريش، وكان أبوه نوبيا، ثم نزل إلى إخميم بصعيد مصر، فأقام بها مدة من الزمن قبل أن ينتقل إلى مصر المحروسة. وقيل أنه مات بالجيزة، وعبروا بجثمانه إلى مصر المحروسة في مركب خوفا من زحمة الناس على الجسر، لليلتين خلتا من ذي القعدة سنة ست وأربعين ومائتين. وقال آخر: مات سنة ثمان وأربعين.

فضحكت وقالت:

- ليس عن هذا سألت.

- عمَّ تسألين إذًا؟

- عن الدراية لا الرواية.

وصمتت برهة، ثم سألتني:

- أتسمع عن معروف الكرخي؟

فأغمضت عيني وعصرت ذاكرتي فبان هناك في قعرها البعيد هذا الاسم العابر في حياتي، فأجبتها على الفور:

- رجل صوفي من العراق.

ـ أما أنا فقد أتيت الأزهر سعيًا في الزمان الأول، وأخذتني المجالدة من العلم، فما كسبت في هذا ولا ذاك. ضائع أنا يا حفصة، ورست سفينتي على شاطئك، فارشديني.

ـ أنت عرفت عن ذي النون، فاذهب واقرأ عن معروف الكرخي، فقد كان أبي متيمًا به، فلما طالعت سيرته في الكتب، عرفت سر هذا التتيم. اذهب يا عاكف، واقرأ عنه، ولا تأتيني إلا وقد وعيت عنه ما يكفي.

* * *

عدت إلى الشيخ بسام، فأخذني إلى صناديق الكتب، وجلست إليها، أعب منها وأنا جائع حتى صفت روحي، وقمت مذهولا بما وعيت. مشيت في الطريق أقول للعابرين: «من كابر الله صرعه، ومن نازعه قمعه، ومن ماكره خدعه، ومن توكل عليه منعه، ومن تواضع له رفعه، كلام العبد فيها لا يعنيه خذلان من الله».

وقلت لمكاري يهم وراء حماره:

ـ قيل لمعروف الكرخي في عِلَّتِه: أوصِ، فقال: إذا متُّ فتصدقوا بقميصي هذا فإني أحب أن أخرج من الدنيا عريانا كما دخلت إليها عريانًا.

فرماني الرجل بشرر يتطاير من عينيه، وقال لي:

ـ اذهب عني يا مخبول.

فتركته ومضيت نحو حفصة وأنا أنشد وأبكي:

أي شيء تريد مني الذنوب

شغفت بي فليس عني تغيب

ما يضر الذنوب لو أعتقتني

رحمة لي فقد علاني المشيب.

وعدت إلى كنيسة أبو سرجة مكرويا مخطوفا، قلبي يرفرف، وعقلي تائه، وجسدي خفيف يوشك أن يطير. وقفت أمام حفصة، فنظرت إليّ وقالت:

ـ قطعت خطوات أخرى على الطريق، ثم سألتني:

ـ هل عرفت من هو معروف الكرخي؟

فنكست رأسي قليلا، ونقرت في ذاكرتي، ثم تدفقت:

ـ هو معروف بن فيروز الكرخي ويكنى «أبو محفوظ» وكان أحد رموز الصوفية الكبار في بغداد، واشتهر بزهده وورعه وتقواه. وولد الكرخي مسيحيًا، لكنه تحول إلى الإسلام في ميعة الصبا، وتسبب في إدخال والديه إلى هذا الدين. وقد سكن الكرخي بغداد ومات فيها ودفن سنة مائتين هجرية، الموافق سنة ٨١٥ م، في مقبرة الشونيزية على جانب الكرخ من بغداد، وسميت فيها بعد مقبرة الشيخ معروف. ويقول ابن نباتة في «سرح العيون»، شيعت بغداد في ساعة واحدة معروف الكرخي والشاعر الشهير أبا نواس.

فضحكت حفصة، وقالت:

ـ لم تعرفه أيضا، ولم تتعلم من عثراتك.

ورفعت هامتها، وتاهت لحظات في دنيا لا أراها، ثم قالت:

ـ لا تبرح الخانقاه أربعين يوما. قلل طعامك، واسهر ليلك، واشغل لسانك بالذكر، وذهنك بالتفكر في الملكوت، وليكن الاطمئنان قوتا لقلبك. خلِّ الدنيا وراء ظهرك، ولا تشغل بالك بسلطان غشوم، ولا تجعل للخوف مكانا في نفسك ولو بقدر حبة خردل. أربعون يوما تنقضي ثم تعال ستجدني في انتظارك.

هززت رأسي وسألتها:

ـ هل أنت في أمان هنا؟

ـ كل من هنا أخوة لي، وأحوالي على ما يرام.

* * *

تركتها متوجها إلى الخانقاه، وما إن ابتعدت خطوات قليلة عنها، حتى سمعتها تقول لي:

ـ اقرأ حزب الوقاية لمن أراد الولاية تسعًا وتسعين مرة.

فوقفت مكاني متجمدًا، وسألتها:

ـ أين أجده.

ـ اسأل شيخ الخانقاه.

وفي الطريق تناهى إلى سمعي صوت المنادي وهو يزعق على بغلته الشهباء:

« يا أهل مصر المحروسة، اختفت سيدة تدعى حفصة، بعد أن

سرقت جوهرة تخص مخدومتها زوجة مولانا السلطان. واختفى رجل يدعى عاكف بعد أن سرق أموالا طائلة من بيت المال. فمن وجد أحدًا منهما فليمسك به، ويسلمه إلى أتابك العسكر، وله حلوان من مولانا السلطان مائة ألف درهم».

كان يضرب على طبلته الصغيرة، ويزعق في الخلق القاعدين داخل حوانيتهم والسائرين في الشوارع والحارات. مكثت مكاني، ورحت أتابع تقاطر الناس عليه، ثم راح الحشد يبتعد حتى اختفى في شارع جانبي، فمضيت ألثم الأرض سريعا إلى الخانقاه، حيث عشت أيامًا بسلام، لم يسألني أحد عن اسمي أو موطني.

دخلت ورميت نفسي في حلقة الذاكرين. شبكت يدي في أيديهم، ورحنا نميل بأجسادنا يمينًا ويسارًا، ثم نمدها إلى أعلى ونخفضها سريعًا، ونقول بصوت متناغم جهور: الله حي... الله حي... الله حي...

ولما انتهت الحضرة اقتربت من الشيخ عابد الطوخي وقلت له:

ـ أين أجد حزب الوقاية لمن أراد الولاية.

فربت على كتفي وقال:

ـ هو لشيخنا محي الدين ابن عربي، ثم أشار إلى مريد يجلس على يمينه، وهمس في أذنه، فخرج وغاب فترة، ثم عاد وفي يده كتاب، أعطاه للشيخ فدفعه إليَّ، وقال:

ـ اقرأ وتدبر.

وفتشت في الكتاب حتى وجدت «حزب الوقاية لمن أراد الولاية»
وقرأت صامتا والدموع تجري على أسمالي:

«اللهم يا حي يا قيوم بك تحصنت فاحمني بحماية كفاية وقاية حقيقة برهان حرز أمان. بسم الله وأدخلني يا أول يا آخر في مكنون غيب سره دائر كنز ما شاء الله لا قوة إلا بالله واسبل عليّ يا حليم يا ستار كنف ستر حجاب صيانة نجاة واعتصموا بحبل الله وابن يا محيط يا قادر عليّ سور أمان إحاطة مجد سرادق عز عظمة ذلك خير ذلك من آيات الله وأعذني يا رقيب يا مجيب واحرسني في نفسي وديني وأهلي ومالي وأولادي بكلاءة إغاثة إعاذة وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله وقني يا مانع يا نافع بآياتك وأسمائك وكلماتك شر الشيطان والسلطان فإن ظالما أو جبارا بغى عليّ أخذته غاشية من عذاب الله ونجني يا مذل يا منتقم من عبيدك الظالمين الباغين عليّ وأعوانهم فإن هم لي أحد منهم بسوء خذله الله وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله واكفني يا قابض يا قاهر خديعة مكرهم واردهم عني مذمومين مدحورين بتخسير تغيير تدمير فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وأذقني يا سبوح يا قدوس لذة مناجاة أقبل ولا تخف إنك من الآمنين بفضل الله وأذقهم يا ضار يا مميت نكال وبال زوال فقطع دابر القوم الذين ظلموا الحمد لله وآمني يا سلام يا مؤمن من صولة جولة دولة الأعداء بغاية بداية لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله وتوجني يا عظيم يا معز بتاج مهابة كبرياء جلال سلطان ملكوت عز عظمة ولا يحزنك قولهم إن العزة لله وألبسني يا جليل خلعة جلال جمال كمال إقبال فلما رأينه أكبرنه

وقطعن أيديهن وقلن حاش لله وألق يا عزيز يا ودود عليّ محبة منك فتنقاد وتخضع لي بها قلوب عبادك بالمحبة والمعزة والمودة من تعطيف تأليف يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله وأظهر يا ظاهر يا باطن آثار أسرار أنوار يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ووجه اللهم يا صمد يا نور وجهي بصفاء جمال أنس إشراق فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله وجملني يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام بالفصاحة والبلاغة والبراعة وأحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي برقة رأفة رحمة ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله وقلدني يا شديد البطش يا جبار يا قهار سيف الهيبة والشدة والقوة والمنعة من بأس جبروت عزة وما النصر إلا من عند الله وأدم عليّ يا باسط يا فتاح ببهجة مسرة رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري بلطائف عواطف ألم نشرح لك صدرك وبشائر بشائر يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله وأنزل اللهم يا لطيف يا رءوف بقلبي الإيمان والاطمئنان لأكون من الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله وأفرغ الصبر يا شكور صبر الذين تدرعوا بثبات يقين كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله واحفظني يا حفيظ يا وكيل من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي ومن تحتي بوجود شهود له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله وثبت اللهم يا قائم يا دائم قدمي كما ثبت القائل وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله وانصرني يا نعم المولى ويا نعم النصير على أعدائي نصر الذي قيل له أتتخذ هزوا قال أعوذ بالله وأيدني يا طالب يا غالب بتأييد نبيك محمد ﷺ المؤيد بتعزيز توقير إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا لتؤمنوا بالله واكفني يا كافي يا شافي الأعداء والأسواء بعوائد فوائد لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته

خاشعا متصدعا من خشية الله وامنن يا وهاب يا رزاق بحصول وصول قبول تيسير تسخير كلوا واشربوا من رزق الله وتولني يا ولي يا علي بالولاية والعناية والرعاية والسلامة بمزيد إيراد إسعاد إمداد ذلك من فضل الله أكرمني يا غني يا كريم بالسعادة والسيادة والكرامة والمغفرة كما أكرمت الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله وتب عليّ يا تواب يا حكيم توبة نصوحا لأكون من الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله وألزمني يا واحد يا أحد كلمة التقوى كما ألزمت حبيبك محمدا ﷺ حيث قلت فاعلم أنه لا إله إلا هو واختم لي يا رحمن يا رحيم بحسن خاتمة الناجين والراجين قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله وأسكني يا سميع جنة أعدت للمتقين دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله يا الله يا الله يا الله يا رب يا نافع يا رحمن يا رحيم أسألك برحمة هذه الآيات والكلمات سلطانا نصيرا ورزقا كثيرا وقلبا قريرا وقمرا منيرا وحسابا يسيرا وأجرا كبيرا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا آمين».

* * *

قرأت الورد تسعا وتسعين مرة كما قالت لي، وعدت إليها أمشي الهوينى، وقفت أمامها وهمست في أذنها:

- خف جسدي يا حفصة.

فابتسمت وقالت:

- لأن روحك تريد أن تطير.

ثم نظرت في عيني مليا وقالت:

- إجمع كل ما ذكر في القرآن عن الأشجار، اقرأه بإمعان، مرات ومرات، ثم اجلس مع نفسك لتتدبره، ولا تبحث في بطون الكتب القديمة عن المعاني فيفسد كل شيء، بل تذوق أنت ما يلهج به لسانك. حين تنتهي تعال إليَّ مرة أخرى.

ومضيت مسرعا حتى بلغت الخانقاه، فتوضأت، وصليت ركعتين، ومددت يدي إلى المصحف، ورحت أقلبه بحثا عن الآيات التي ورد فيها لفظ شجرة. وتهادى أمامي كلام الله:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ (إبراهيم: ٢٤). ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (النور: ٣٥).

﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴾ (المؤمنون: ٢٠).

﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ (الصافات: ١٤٢-١٤٦).

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ

﴿... ٱلْمَأْوَىٰٓ (١٥) إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ (النجم: ١٣-١٨).

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ (٥٣) فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ (٥٤) فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ (٥٥) هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ (الواقعة: ٥١-٥٦).

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ (٤٤) كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ (الدخان: ٤٣-٥٠).

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ (الصافات: ٦٢-٦٧).

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح: ١٨).

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (القصص: ٣٠).

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٩).

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ (طه: ١٢٠).

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (الأعراف: ٢٢).

* * *

رآني الشيخ عابد الطوخي أقلب في كتب التفاسير فربت كتفي وقال لي باسمًا:

- اترك هذا وراء ظهرك، اجمع ما أردت أن تحط به من آيات، وضعها أمام عينيك، وأمعن النظر، وتدبر في أناة، فكتاب الله يفسر بعضه بعضا.

- فنظرت إلى صف الكتب الموضوع أمامي وسألته:

- وكل هذا؟

- محاولات بشرية، لكن الحقيقة شيء آخر.

- الحقيقة!

- سر وراءها يا ولدي، فأنت خلقت لهذا الطريق.

- أنا يا شيخنا؟!

ـ نورك بين عينيك لكنك لا تراه.

ـ كيف أراه يا شيخنا؟

ـ حين يشاء الله.

ـ كيف أختصر الطريق إليه؟

ـ جاهد نفسك، وخلِّ الدنيا وراء ظهرك.

نظرت حولي فوجدت أجسادا ملفوفة في أسمال مرقوعة، وبعضهم حلق رأسه ولحيته وحاجبيه ورموشه. بعضهم لطخ وجهه ووضع الريش على رأسه، وقد تمكن منهم الوسخ. نظرت وأمعنت النظر، فتنبه الطوخي وقال:

ـ لا تشغل نفسك بهؤلاء. في الصوفية هناك الولي وهناك الدعي، وعليك أن تختار.

فقلت له مبتهلًا:

ـ لقد اخترت يا شيخنا.

ورأيت في يد أحدهم كتابا عجيبًا، لم أدر كيف لم أسمع به من قبل، مكتوب على جلده السميك «طوق الحمامة في الألفة والألاف» لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم. مددت يدي إليه وكأني أتسوله فأعطاني إياه ضاحكا، فقلبته على عجل وقرأت:

«الحب أعزك الله، أوله هزل وآخره جد. دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة، وليس بمنكر في الديانة، ولا بمحظور في الشريعة، إذ القلوب بيد الله عزل وجل...».

وكاد عقلي يطير وأنا أقلب صفحاته بين باب علامات الحب وباب فضل التعفف، ومررت على الهجر والوصل والضنى والوفاء والبين والسلو وغيرها. اهتز قلبي وفاضت عيناي وقلت لصاحب الكتاب:

ـ هل يمكنني أن أنسخه؟

فأومأ لي موافقًا.

هرولت إلى سوق الوراقين، وسألت عن ناسخي الكتب فدلوني على رجل يدعى حيدرة قطامش وقالوا: هذا أفضلهم وأسرعهم. مددت الكتاب إليه وطلبت منه أن ينسخه في أسرع وقت وليأخذ ما يريد، فوعدني أن ينجزه في ثلاثة أيام بلياليها، وتركته وأنا أشعر أنني قد حصلت على كنز ثمين.

حين حل الظلام تركت الخانقاه وسرت إلى كنيسة أبي سرجة. طرقت الباب وناديت بأعلى صوتي:

ـ يا برسوم.

جاءني يفرك عينيه ويتثاءب، فسألته عن حفصة، فقال:

ـ امرأة غريبة. تنام قليلا، وتسهر الليل في فناء الكنيسة محملقة في النجوم. شفتاها تتمتمان بكلام لا أسمعه. أحيانًا أرى الدمع يلمع بعينيها في نور القمر. أقترب منها لأسألها إن كانت تحتاج إلى شيء، فتبتسم دون كلام، وتهز رأسها فأفهم أنها لا تريد شيئا، فأنصرف. في النهار تنزل إلى السرداب، وأسمع صوت صلواتها بلا انقطاع. لا تحتاج من الطعام سوى ما يسد الرمق. لقيمات يقمن صلبها.

ثم صمت برهة وسألني:

ـ من هذه يا عاكف؟

ـ سبق أن أخبرتك، وأنت تعرف.

ـ لا أقصد هذا، لكنها تبدو في نظري أبعد بكثير من أن تكون إنسية، لا أصدق أنها مجرد أرملة صاحبنا الذي رحل، والمرأة التي يطاردها السلطان.

فدست على كتفه بيميني وقلت له:

ـ بل هي كذلك يا برسوم، أبوها كان عبدًا صالحًا، ومن شابه أباه فما ظلم.

ـ أحيانا يولد من صلب العالم جاهل، ومن صلب الصالح طالح.

ـ أحيانًا.

زفرت متألمًا، ونظرت إلى النجوم المرشوقة في قلب السماء، وقلت له:

ـ أريد طريقًا آمنًا للهرب.

لم ينطق، ورأيت في عينيه حيرة، لم أعهدها من قبل، فسرى خوف في عروقي لأول مرة في حضوره، فسألته ملهوفًا:

ـ أمكروه أصابها؟

هز رأسه نافيًا، وقال:

ـ قد يصيبنا جميعًا إن ظلت هنا حتى الأحد القادم.

ـ هل وصل خبرنا إلى البصاصين؟

ـ لم يصل بعد، لكن الأحد المقبل عيد الشعانين، وسيأتي المئات إلى الكنيسة حاملين سعف النخيل، وقبلهم سيجيء من يضع الزينة في كل مكان هنا.. لكن تكون الكنيسة ملاذا آمنا لحفصة.

ـ أتانا الخطر بغتة، ولم أكن أحسب له حسابًا.

ـ لا تقلق فهناك مكان آمن ولن يصل إليه بصاصو السلطان ولا جنوده أبدًا.

ـ أين؟

ـ دير القديس أنطونيوس على سفح جبل الجلالة القبلي بالصحراء الشرقية. دير مغلق لا أبواب له، ومن يسمح له بالدخول يرفع بحبل معلق في بكرة ينتهي بلوح خشب يقف عليه الطارق والزائر.

ـ اسم ليس غريبًا عني، وكأني قرأت عنه في أحد الكتب التي وجدتها في بيت الشيخ بسام الدين.

ـ هو الأب الروحي لنظام الرهبنة والسالك الأول للطريق الذي اتبعه الرهبان في كل العصور. كان القديس أنطونيوس رجلا ثريا، ضاق بما في الحياة من اضطراب وبحث عن صفاء نفسه في النسك والزهادة، فوزع ثروته وتوحد في الصحراء عشرين عاما لا يرى وجه إنسان، ولا يفكر إلا في الخلاص. بعد أن أتم سياحته الباطنية أذن لتلاميذه أن يقتربوا منه لكي ينهلوا من تعاليمه، فاجتمع حوله أتباع كثيرون، وبدأ نظام الرهبنة.

ـ مكان آسر وقصة أثيرة.

-القصة الأجدر بالنظر هي التي وقعت بين القديس والإسكافي... قصة غريبة مليئة بالمعاني... أتريد أن تعرفها يا عاكف؟

- نعم.

- «في أحد الأيام، حاول الشيطان أن يُقنع أنطونيوس بأن فضيلته التي وصل إليها بلغت رتبةً عاليةً جدًّا، بحيث إنه في البرية وأيضًا في المدينة، لا يوجد شخص مثله في الفضيلة وصفاء الروح. وقد أسرَّ الشيطان بأذنه:

تطلَّع يا أنطونيوس وانظر، مَن مثلك قد وصل إلى هذه الحدود؟ لا أحد. مَن يصوم، مَن يُصلِّي، مَن يتنسَّك كما تفعل أنت؟ لا أحد.

وبدا أن أنطونيوس الكبير يُصغي لهذا الفكر السقيم، إلَّا أنه أدرك حيلة الشيطان مباشرة؛ ولكن الله الذي لم يسمح بأن يُخطئ القديس أنطونيوس، وجد طريقة ليُعلِّم بها هــذا الناسك الكبير.

في ذلك المساء، بعد أن أنهى رجل الله صلاته الحارة، وأقفل قنديل الزيت، وأغلق أجفانه قليلًا؛ حينها سمع صوتًا إلهيًّا يرشده بوضوح:

في الطريق المؤدية إلى الإسكندرية تجد إسكافيًّا يفوقك قداسةً يا أنطونيوس.

عندئذ هبَّ أنطونيوس من نومه متفكرًا: إسكافي! هل من الممكن؟ إسكافي يفوق أنطونيوس في النسك والفضيلة؟ حسنًا، سأذهب صباح الغد إلى الإسكندرية.

بعد أن أشرقت الشمس، تناول القديس أنطونيوس عصاه وانطلق إلى المكان الذي أرشده إليه الله.

- إسكافي في الإسكندرية أعظم من نُسَّاك البرية، هكذا كان يُردِّد أنطونيوس مرارًا.

في الطريق الفرعية المؤدِّية إلى الإسكندرية هناك دكان صغير، يقبع فيه إسكافي شيخ لا يتصف بمميزات خاصة، بسيط، قليل الكلام، وكان يُصلح حذاءً باجتهاد وعناية.

قال الإسكافي للراهب المتواضع: باركوا.

أجاب القديس أنطونيوس ببساطة: الرب يُباركك.

وواصل الإسكافي عمله في تصليح الحذاء وهو يهذُّ في أحد المزامير. وبادره القديس أنطونيوس بالسؤال:

- قُل لي، أسعدك الله، يا بُنيَّ، كيف تُمضِي أيام حياتك؟

- لا أعرف، يا أبانا، إن كنتُ قد صنعتُ خيرًا لأحدٍ ما، ولا أتذكَّر إحسانًا ما عملتُه.

- وكيف تمضي حياتك؟ قاطعه الأب أنطونيوس مُتحيِّرًا.

- ها أنا أنهض كل صباح وأقول لفكري: كلُّ سكان الإسكندرية، والذين يسكنون أبعد من ذلك، والذين لا أعرفهم، كلهم سيخلصون، إلاَّ أنا بسبب خطاياي الكثيرة سأهلك. فنهاري كله يَعْبُر وأنا مستغرق في هذا الفكر. وعند المساء أيضًا أتأمل بالفكرة ذاتها، وألتمس رحمة الله.

نهض أنطونيوس وعانق الإسكافي الفقير وقبَّله بتأثُّر كبير.

- أنت، يا بُنيَّ، قد اشتريتَ الكنز الثمين بتعب بسيط! أما

أنــا فقد شختُ في البرية في الجهادات والأصوام، إلاّ أني لم أصل بعد إلى تواضعك.

• ثم تناول الناسك العظيم عكّازه ومضى في طريق العودة وهو يخفض رأسه تواضعا وقلبه يكاد أن يطير في السماء».

لما انتهى برسوم مصمص شفتيه وقال في أسى:

ـ أين نحن من هؤلاء القديسين؟

فأجبته بسؤال:

ـ وأين أنا من الأولياء الذين سردت حفصة عليَّ أطرافًا من حياتهم العامرة بالإيمان والكرامات العظيمة.

طلبت منه أن ينادي حفصة، فأشرقت في وجهي بعد دقائق، ونظرت إليها بعين كسيرة وفؤاد ثقيل، فأسدلت جفنيها في خفر، وقالت بصوت كأنه تغريد طير حزين:

ـ على وجهك هموم راكدة.

ـ غلبتني الأيام العصيبة.

فابتسمت وقالت:

ـ لا تأس على ما فاتك، وأقبل على نصيبك بنفس راضية، ولا تجزع فلن يغلبك أحد.

ـ نحن مطاردون يا حفصة، وعيون البصاصين لا تنام، ووراءهم سلطان جهول غشوم.

ـ عين الله ترعانا، كل الأنام تنام... رب العباد وحده حي لا يموت، قيوم لا ينام.

ـ ونِعمَ بالله.

سادت لحظة صمت قطعتها هي:

ـ جئتني بأمر، أنا مستعدة له.

ـ أعرفتِ؟

هزت رأسها بالإيجاب، ونظرت إلى برسوم فقال وفي عينيه دهشة:

ـ لم أقل لها شيئا بعد.

ـ إذن، جهزي رحلك يا حفصة، حين ينتصف الليل سنهرب إلى جبل الجلالة.

وتقدمت خطوات فقال برسوم:

ـ إلى أين؟

ـ سأذهب إلى الخانقاه، أحضر بعض أغراضي.

ولم تكن هذه الأغراض تزيد على مصحف وأوراد ونسخة أقتنيتها من كتاب أبي حامد الغزالي «المنقذ من الضلال» ونسخة كتبتها بيدي من «طوق الحمامة»، ومركوب وجلباب بال، وقربة ماء وزوادة بها كسور خبز.

وقال برسوم وأنا أهم منصرفًا:

ـ حين تعود سأكون قد جهزت لك جملًا ولها ناقة، اركبا حتى الدير، ثم سلمها هناك إلى الراهب حنين بن إسحق.

عند انتصاف الليل انعطفنا من وراء الكنيسة صوب الشرق، وبدا لنا المقطم كتلة لا نهاية لها من الخوف والأذى جاثمة على أرض يباب، تنتظرنا لتبتلعنا، وتلقي بنا إلى المجهول.

(٢٢)

ها أنا في خلاء لا أبالي، بجانبي المحبوبة، والنجوم ترعى خطواتي، والسماء تظللني بطمأنينة لا نهاية لها. قلبي يرفرف في نسائم الليل الطرية. لا أصدق. حفصة معي. الدنيا في يميني. أنا أعظم من السلطان. أغنى من كل كنوز الأرض. لو مت الآن سأرحل راضيًا مرضيًّا.

نظرت إلى البعيد وصرخت داخلي: إلهي ما أجزل عطاياك. قادم أنا إليك. الأرض تطوي حصاها تحتي وفي قلبي ارتواء. أنت ثالثنا ومعي قرة عيني. حبك في الحشى وحبها في عيوني. على ظهر بعير أخطو وفوق الغمام أحلق، وشبابي عاد لي، والدنيا أقبلت بعد إدبار، والآخرة تحط أمام ناظري كأن روحي قد بلغت الحلقوم، لكن هي الأماني التي تفتح أمامنا فجاجا لا نهاية لها.

عوى ذئب فلم يهتز لي جفن. كل ذئاب الأرض لا تخيفني. أسد أنا بنور الإيمان الذي يغمر روحي، ونار العشق التي تشعل قلبي. سأمضي في طريقي إلى النهاية. يا الله يا حفصة، ما أروع المقادير.

جبل الجلالة، واسم الجلالة، وجلال العشق، جلال في جلال.

أيتها الأيام تجلي لي فالقادم أحلى، رغم المنفى، ورغم البصاصين الذين ينتشرون في الشوارع كما ينتشر الحصى هنا تحت خف البعير.

ونظرت إلى جانبي، كان البعير يهز حفصة، وهي مستسلمة تتمتم بكلمات لا أسمعها. قلت لها بصوت خفيض:

ـ ما أغرب الأيام.

رفعت وجهها ناحيتي وقالت:

ـ الحياة كلها غربة متصلة.

ـ أكذوبة.

ـ إلا حياتك أنت يا عاكف.

ـ لِمَ؟

ـ أتدري كم عاش نوح؟

ـ تسعمائة وخمسين عامًا.

ـ عبرها بسلام، وكذلك أنت.

ـ أين أنا من نوح؟

ـ سفينته غلبت الطوفان، وسفينتك أنت ستحط بين الحجر والمرج.

ـ ألغاز أسمعها.

ـ لا تتعجل.

ـ كلكم تقولون لي لا تتعجل، وأنا لا أعرف سرّ هذا العبارة التي تلاحقني.

ـ لا تسأل عن شيء، بل امض في سبيلك متوكلًا على من خلقك.

وجفل البعير، فتطلعت في عمق السواد الذي يلفنا، فوجدت رجلين يشقان الأرض على ظهر حصانين، اقتربا منا، وصرخ أحدهما فينا:

ـ إلى أين.

كانت حفصة قد غطت رأسها تمامًا، فتطلع الثاني فيها مليا، وقال:

ـ امرأة.

فقلت له في حزم:

ـ الكلام مع الرجال.

فقهقه حتى ملأ المكان صخبًا، وقال:

ـ لص سرق جارية، ويتحدث عن الرجولة.

ـ ليست جارية، هي زوجتي.

ـ وهل يوجد عاقل يسعى إلى الذئاب بزوجته.

ثم تلفت حوله وقال:

ـ ستنهشكما أنياب حادة، ويتنادى الذئاب على ما تبقى من لحمكما.

وقال الثاني بغضب:

ـ تتحدث معها كأنها من بقية أهلك.

- إنه غريب، وشيخنا أوصانا خيرًا بالغرباء.

- كل الناس غرباء في هذه الدنيا، ومع ذلك نسرقهم في وضح النهار، لكن يبدو أنك نسيت أو تراخيت.

- لا تنس أن غريمنا معه زوجته.

- وحليّها سيكون أول ما أسلبه الليلة.

ومد يده نحو حفصة لكنها لم تصل عنقها، فالناقة عالية وحصانه خفيض وكأنه حمار، فدفعت جملي بينهما، وقلت له غاضبًا:

- لا تفعل ما ستندم عليه طيلة حياتك.

قهقه بصوت فظيع وقال:

- أندم، أتعتقد أنك عنترة بن شداد؟

- لا تسخر، فقد تجد ما هو أشد.

وأخرجت سيفي من غمده في سرعة خاطفة، وغرسته في جلد رقبته، وقلت له وأنا أدوس حروف كلامي:

- روحك في سن سيفي، وإن تطاولت ستتشرب الرمل الليلة من دمك النجس.

فقال صاحبه:

- لا عليك، اتركه وامضي في سبيلك.

ابتسمت وقلت:

- لن أتركه إلا إذا أعطى كل منكما سيفه لزوجتي.

وصرخ المغروس سيفي في عنقه، وقال:

- الموت دون ما تريد.

وبحركة عجيبة سقط على الأرض كريشة فابتعد عن نصل سيفي، ثم سحب سيفه من غمده، وكذلك فعل صاحبه في الوقت نفسه على غير ما كنت أحسب. وقال الذي كان تحت رحمتي منذ برهة:

- ألق سيفك وترجل وإلا قتلت زوجتك.

ثم سحب بعير حفصة من رسنه، وراح يقول له:

- إخخخ.. إخخخ.

ناخت الناقة مطيعة، فأصبح عنق حفصة تحت نصل سيفه. أما أنا فقفزت من على ظهر جملي، ورفعت سيفي في وجهه فصدني، وقال صاحبه:

- ما دمت حريصًا على قتل صاحبي، سأسبي زوجتك لتكون جاريتي.

نظرت إليه وقلت في تحد:

- كنت تتصنع الفضيلة منذ قليل.

فقال في غضب:

- أي فضيلة أيها الساذج، إنما رأيتكما معدمين ولا ينم منظركما على أن بحوزتكما شيئًا يُسرق، فقلت لصاحبي أن يترككما تمضيان، أما وقد ظننت أنك رجل فدافع عن زوجتك أيها الجبان.

صرخت غاضبًا:

- واجهني أنا واتركها، فليس رجلًا الذي ينازل سيدة.

- هذا كلام من لا حيلة له، واجه أنت مسعود ليشرب الرمل دمك.

ونظرت حفصة إليّ بطرف عينها وقالت:

- لا تخف يا شيخ عاكف، إن الله معنا.

وضرب مسعود بسيفه فصددته، وعاد يضرب وأنا أصد، ودار ودرت معه، وناخ وقام، فهبطت وصعدت، ومال واستقام، فترنحت وانتصبت، وكان يظن أنه سيقتلني من الضربة الثانية فوجد أمامه فارسًا ماهرًا، وصرخت من أعماقي:

- عودي يا أيام القناوي.

كنا نتدرب سرا في ساحة بيت أحد الأعيان، الشمس وحدها كانت شاهدة علينا، والجدران تحمينا من أعين البصاصين.

ضحك مسعود وقال ساخرا وهو يضرب بجانب سيفه:

- قناوي، ناوي أنا على ذبحك وسلخك الليلة.

ضحك زميله ورنت ضحكته في المكان، ثم انخمدت ليبقى فقط صليل سيفين يتقاتلان، وفجأة وجدت حفصة تقول بصوت يملؤه خشوع:

- يا إلهي لا تتركنا لمن لا يعرفك.

وطوح سيفه إلى الخلف فجمد وراءه، وسقط زميله على الأرض بجانب سيفه، وحفصة تبكي وتنظر إلى عمق السماء، وتقول «لك الحمد وحدك يا مفرج الكروب»، وركبت ناقتها، وأشارت إليَّ فقفزت على جملي، وتركنا اللصين مكانهما، واحد سيفه معلق في

الهواء، يطلبه فلا يأتيه، والآخر يرقد كسيفه لا يستطيعان حراكًا.

وهزني ما رأيت فنظرت إلى حفصة بعد أن استرددت أنفاسي اللاهثة، وقلت:

- لم أكن أحسب أن لك كل هذه الكرامات.

لم تجب، فتملكني صمت، ورحت أتابع صوت الريح وهي تضرب الحصى الخفيف، وتزعق عند فوهات المغارات. عند انبلاج الفجر سمعنا نقرًا متواصلًا وحمحمات، فالتفتنا إلى المكان الذي يأتينا الصوت منه، فوجدنا عشرات الفرسان يرمحون تجاهنا، ولم تمر سوى برهة حتى أحاطونا من كل جانب. نظر أحدهم إليَّ وقال في صوت خفيض غارق في التأدب:

- شيخنا يريدك وزوجتك ضيفين عزيزين عليه.

- شيخكم؟

- الشيخ يوسف بن سعدان شيخ قبيلة العليقات.

نظرت إلى حفصة، فأومأت برأسها موافقة، فقفلنا معهم راجعين، والشمس ترمي حبالها الذهبية على أسنة التلال، ثم تفردها على الرمل فينفتح الطريق جليًّا أمام خيول كثيرة وجملين ضامرين.

* * *

كان الضحى يغمر الصحراء نورًا ودفئًا، حين وجدنا الشيخ يوسف العليقات في انتظارنا مع مجموعة من فرسان القبيلة. لما رآنا راح يتقدم نحونا ويقول بملء صوته:

- يا أهلا بالأجاويد.

وجلسنا على بسط ثمينة داخل خيمة وسيعة، وجاء غلام بغلاية القهوة، وراح يصب في فناجين صغيرة من الفخار تستقر في أيدينا. عند الظهر فاحت رائحة الشواء، وقال الشيخ يوسف:

- قلت لا بد من أن نأكل سويًّا عيشًا وملحًا.

حين جيء بالطعام ضحكت وقلت:

- عيش وملح أم عيش ولحم يا شيخ يوسف؟

- هذه المرة لحم خروف وخبز الملة. لا نقدم هذا إلا لمن نجلّهم. أما الأيام القادمة فعليك أن تعتاد على البصل والروجة.

- الروجة؟

- أقراص نعدها من عجين القمح، لا ملح ولا خمير، وعليها عدس مطبوخ بقليل من الزيت.

- كل ما تجود به يداك أفضل لدينا من أطايب طعام السلطان.

فضحك وقال:

- طعامنا حلال وطعامه حرام.

تذكرت المعركة التي كان يريد فيها فارسان من القبيلة سلبنا قبل ساعات، ولذت بصمت عميم، والغيظ ينهش صدري.

بعد الأكل اقترب مني الشيخ يوسف وهمس في أذني سائلًا:

- ما حكاية الشجرة المباركة؟

أفزعني سؤاله، وأشعل في رأسي سؤالًا آخر: من أين لهذا الرجل، الذي يطل المكر من عينيه، بهذا السر الكبير؟

لكن الشيخ يوسف لم يدع الحيرة تأكلني طويلًا، حين قال:

- عيوننا تصل إلى القلعة.

- إلى القلعة؟

- ضرورة يا ولدي، بين حين وآخر يجرد السلطان حملات تهاجمنا، وعلينا أن نعرف مواعيدها حتى نتقيها.

نظرت حولي إلى الخيمة والصحراء السابحة في زرقة السماء البعيدة وابتسمت، وأدرك هو ما دار في ذهني، فقال:

- الفلوس تلين الحجر.

ورفعت وجهي إليه مستفسرا، فواصل:

- فرسان من المماليك، جواري وعبيد، وعيون من أهل البلد، كل هؤلاء يخدموننا... جاءنا خبر منذ مدة أن السلطان استدعى عرافًا مغربيًّا ليدله على شجرة الكنز، لكنه أخفق. بعد شهور وصلنا خبر آخر عن قدوم شيخ مكشوف عنه الحجاب من جوف الصعيد، يقال له عاكف. راقبناه من بعيد حتى اختفى من القصر الذي أعطاه له السلطان، فانقطعت أخباره عن الجميع. حين قص عليَّ مسعود ما جرى معك ونطق باسمك وباسم الشيخ القناوي، ظننت أنك هو. السلطان يبحث عنك بحرقة لا تتصورها. البصاصون توصلوا إلى سرّك الدفين، وأخبروه أنك من تلاميذ القناوي، فزادت حرقته.

نظرت إلى حفصة فوجدت في عينيها اطمئنانا عجيبا، وأعدت بصري إلى الشيخ يوسف، فوجدت على شفتيه ابتسامة غريبة، لم تلبث أن انطفأت وقال:

ـ تبقى لغيرك وتأتي إليك.

ـ كيف؟

ـ سمعت عن هذه الشجرة من أبي، الذي سمع عنها من جده، وجد جدي بحث عنها، وترك لورثته ورقة مرسوم فيها سور القرآن على هيئة شجرة، ومكتوب تحتها:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ (إبراهيم: ٤٢).

ثم أشار بيده إلى رجل يجلس قريبا منا وقال:

ـ هات الشكمجية يا عبد الجليل.

ذهب وجاء بها وأعطاها له ففتحها وأخرج منها ورقة بالية، ثم وضعها أمام عيني، وقال:

ـ انظر مليًّا يا شيخ عاكف.

وبينما أنا أتابع الرسم وأقرأ ما على جانبيه من سور القرآن، كان هو يمد إصبعه إلى الخطوط المتلاحقة، والتي يكاد كل منها أن ينطبق على أخيه الذي يتبعه أو يسبقه، ويقول:

ـ أفهمني أبي أن هذا الرسم يصف هيئة القرآن كله، كل خط فيه يعبر عن سورة من سور المصحف الشريف، وطوله على قدر آيات السورة.

الفاتحة البقرة الأعراف الشعراء الصافات الواقعة المدثر الفلق الناس

مددت الورقة إلى حفصة، فنظرت فيها، ومصمصت شفتيها وقالت:

ـ ما أضيق الدنيا. ما أقرب الأمس إلى اليوم، والبعيد إلى القريب، أبي كان يقول شيئًا مثل هذا. سمعته مرة يؤكد لأحد رجال قريتنا أن جده رأى ورقة بهذا المعنى مع بدوي كان يركب معه البحر إلى الحجاز.

فضحك الشيخ يوسف وقال:

ـ ربما هذا البدوي هو جدي، الذي حج ثلاث مرات.

أعطيت الورقة إلى الشيخ ونظرت في عينيه الجاحظتين، وأنفه الذي يشبه منقار الهدهد، وسألته:

ـ ماذا أنت فاعل بنا؟

فابتسم وقال:

ـ كل خير.

ـ هل ستعيدنا إلى السلطان؟

ـ لا.

ـ ستنتقم منّا على ما جرى لمسعود؟

ـ ولا هذه.

ـ ستأخذ منا دابتنا وتتركنا في الصحراء نموت عطشا وجوعا أو تأكلنا الذئاب؟

ـ لماذا لا تفكر إلا في كل شيء سيئ؟

ـ لأنه لا يوجد أمامي ما يبشر بخير.

ـ أنت تمتحنني يا شيخ عاكف؟

ـ أمتحنك؟!

ـ نعم... هل أنا مغفل؟ رجل له كرامات، إحداها أوقفت ذراع أمهر فرساني، مسعود الذي عاد إلينا يرتجف، ولا شيء على لسانه إلا: أبعدوا عني الشيخ عاكف، سامحني يا شيخ، بركاتك يا شيخ عاكف.

ـ ماذا تريد مني إذن؟

ـ أن تكمل معي الطريق الذي كنت قد بدأته مع السلطان.

ـ هو طامع إلى ثروة تعينه في القبض على المُلك، أما أنت فتكفيك راحة البال.

قهقه الشيخ يوسف، وجحظت عيناه أكثر، ثم تجهمت ملامحه فبدا مخيفا، ثم قال:

ـ لهم المُلك ولنا الفرجة إلى الأبد، لهم السلطان وعلينا الخوف والسمع والطاعة، دار الزمن فصار الأحرار عبيدا والعبيد ملوكا... هو يريد القبض على المُلك ونحن نريد يده أن تُغَل، فيسقط ما بيده في يدنا، والأيام دول.

ثم صمت برهة وقال وهو يقبض بيده على كتفي:

ـ ألم يكن هذا حلم شيخك القناوي، وكان حلمك معه.

هززت رأسي وقلت:

ـ نعم، لكنني لبست الخرقة وداست رجلي الحصى فترك فيها ندوبا، وهامت روحي بعيدًا فلم أعد مشغولًا بها تحت ناظري.. من يدري ربما لو امتد الأجل بالقناوي نفسه لسار في طريقي.

ـ لا تبرر هروبك، فأنا أعرَف بالقناوي منك.

ـ أنت؟!

ـ كانت رسائله تأتي لوالدي، وكنت أطلع عليها. خاطبنا لنشاركه يوم الزحف الكبير، لكن آمالنا تبددت، وهانحن بوسعنا أن نحييها من جديد؟

ـ من هنا، في جوف الصحراء، تفكر فيما كان القناوي يفكر فيه، شتان ما بين الحالين.

ـ بل حالنا مثل حاله، كان معه الرجال ورجالي يسيرون بعرض الصحراء. وكانت تنقصه الثروة، وهاأنت بوسعك أن تجعلنا نملكها، وبالرجال والمال يأتي المُلك طبعًا.

شعرت أن الأرض تميد من تحتي. لا شيء يستقر على حال. الدنيا لا تريد أن تصفو لي. أهرب من السلطان بسري الدفين، وأظنه مات هناك على فوهات الشوارع المتعرجة والحارات الخانقة، فأجده هنا مطروحا على الرمل كأنه شمس الصباح. هاهي الأسئلة تشتعل في رأسي من جديد، تلسعني، وتكاد أن تحرق أي أمل في النجاة.

(٢٣)

نصبوا لنا خيمة صغيرة، وجهزوها على أفضل ما بوسعهم أن يفعلوا. بساط عريض طري، ووسائد لينة وأغطية سميكة، وحين رمى الليل ستائره على الصحراء، ومنحها سكونًا على سكونها، همست إلى التي بيني وبينها مسافة لا ينفع فيها همس في تلبية غرض:

ـ من فخ إلى فخ.

ـ قدر لا مفر منه.

ـ لو انعطفنا يمينًا أو يسارًا في الجبل ربما أخفقوا في العثور علينا، وكنا الآن قد اقتربنا من الدير.

ـ وربما كانت الذئاب قد أكلتنا، وأصبحنا نسيًا منسيًا.

سادت لحظة صمت قطعتها سائلًا:

ـ أخائفة؟

ـ مِمَّ؟

ـ من هؤلاء العربان.

ـ لهم عندك حاجة.

ـ أتقصدين الشجرة؟

ـ يرونها كنزا ثمينًا لن يتركوك حتى تدلهم عليه.

ـ تتحدثين وكأنك تصدقينهم.

ـ أنا أتكلم عما يرونه، أما ما أراه أنا فلن تراه أنت الآن.

ـ ألك عشر عيون؟

ـ البصيرة أعلى من البصر.

ـ كرامات.

ـ منن الله لا نهاية لها.

ـ وعشقي لك لا نهاية له.

ـ تأدب يا عاكف.

ـ أريدك حلالي.

ـ وهل يمكن أن يكون التفكير في الحرام قد زار رأسك؟!!

ـ معاذ الله.

ـ إذًا لا تفسد ما بيننا من أخوة صادقة.

ـ أخوة!!

ـ كن وفيًّا لصديقك.

ـ صديقي مات فأحيا عشقك في دمي.

ـ لم أسترح لنظراتك في غيابه.

ـ كنت أكتم الهوى، ولم أمسس شرفه، ولم أخنه حتى في أحلامي.

ـ يا عاكف ما ينتظرك أكبر من هواك العابر.

ـ العشق منازل يا حفصة.

سكتت هي فلذت بصمت. انكتم لساني وحُبس الكلام داخلي، وكنت أظن أن وقت البوح قد أتى، فتورمت روحي، وحلت كآبة لا قرار لها. بعد برهة سمعت صوت أنفاسها النائمة، أما أنا فأسلمت عيني لسقف الخيمة، أذوب في خيوط النور المقبلة من جوف السماء، والتي راحت تتسلسل من جنبات الخيمة لاهثة وراء بقع الظلام.

* * *

تراءت لي هناك في طلة الفجر صورة لشجرة عملاقة، كونتها النجوم الهاربة أمام نور الصبح، وبعض ندف السحاب المسافر إلى الشرق بلا هوادة. قلت في نفسي «إنها شجرة الألم» ثم ارتفع صوتي بها دار داخلي، فتقلقلت حفصة في مكانها، ثم فتحت عينيها فوجدتني جالسًا القرفصاء، شاردًا في الكوة المستقرة بإحدى زوايا الخيمة.

ابتسمت وقالت:

ـ الأرق يقظ في عينيك.

ـ لم أنم.

ـ خائف؟

ـ بل حزين.

ـ لِمَ؟

ـ أريد أن ألقي الهموم عن كتفي، أن أبتعد عن كل الطامعين، اللاهثين وراء الذهب، الذين حولوا الحياة إلى جحيم.

ـ أبي ترك كل هذا وسجد وانتهى كل شيء.

ـ أين أنا منه؟

ـ لا تتعجل الطريق.

ـ كرهت الانتظار السقيم.

ـ الزمن في قبضته، يفلته بقدر ما نحتاج.

ـ ونحن ندعوه دوما أن يفرج همومنا.

امتلأت عيناها برضا وامتنان وقالت:

ـ لو طال بك المقام في الخانقاه لتعملت مقام الرضاء.

ـ كنت على أبواب كل شيء لكن البصاصين لم يتركوا فرصة لي كي أمد قامتي.

وسمعت نحنحة، أتبعها صوت يستأذن في الدخول. جاء صبي يحمل خوانًا عليه إبريق وكآين وصحن به تمر، وضعها أمامنا، وقال وهو يهم منصرفًا:

ـ لبن النوق مع التمر هو ما يفضله شيخنا في الفطور.

لم يفلح التمر في محو المرارة الناشبة في حلقي، ولم تكن شهيتي مفتوحة على أي طعام. بلعت ثلاث تمرات، وشفطت كأسا من اللبن

على مهل، وفتحت جانب الخيمة فمرقت الشمس واستقرت على حجري، وداعبت وجه حفصة فازداد إشراقًا.

عند الضحى جاءنا الشيخ يوسف يتوكأ على عصاه. كان وجهه يفيض فرحًا لا أعرف من أين أتاه. اقترب مني وفتح فمه فانزلق شعاع الشمس إليه، فلمعت أسنانه. وقبل أن ينطق بكلمة، سألته ضاحكًا:

ـ كيف بقيت أسنانك سليمة كل هذا الزمن يا شيخنا؟

مد يده وربت على كتفي وقال:

ـ أشرب زلعة لبن كل صباح، ولا أمشي إلا والسواك في جيبي.

ـ ربنا يعطيك العافية.

التفت إلى حفصة وسألها مبتسمًا:

ـ لعل ابنتنا قد استراحت في فرشتها؟

فبادلته الابتسام وقالت:

ـ الحمد لله على كل شيء يا شيخنا.

ثم استدار إليَّ وقال:

ـ رأيتك بالأمس في منامي، تمضي أمامي شامخا شفافا كأنك نخلة من نور.

ـ نخلة؟

ـ حين نرى النخيل في منامنا نستبشر خيرًا، فما بالك لو كانت النخلة مضيئة.

ـ كأن عراجينها كانت قناديل؟

ـ هكذا كانت حقا، وهكذا أصبحت متيقنًا أن خير قبيلتنا، بل خير مصر كلها، سيكون على يديك.

ـ يا شيخنا، أنت تراني بعين محبتك، لكنني أعجز من أن تعلق على أكتافي كل هذه الآمال.

ـ لي نظرة في الرجال لا تخيب.

ـ هذا علم الظاهر، أما الباطن فلا يعلمه إلا علام الغيوب.

ـ هناك من منحهم الله باطنًا مثل ظاهرهم.

ـ ما أبعدنا عن عباده النورانيين.

ـ أنت منهم يا عاكف. لقد رأيتك في منامي الليلة الفائتة وأنت تمضي كنخلة من نور.

ـ ترى في منامك ما تود أن أكون عليه في صحوك، وما نراه في الليل يفرغ هموم النهار.

ـ هذا عن الأحلام، أما الرؤى فهداية من الله.

ـ أنت تبالغ في مجاملتك يا شيخنا.

ـ لا بل أنت تتواضع، لكنني أعرف قدرك.

نظر حوله ورفع سبابته وطعن بها الفضاء مشيرا إلى مكان هناك، وقال:

ـ أترى هذا الجبل؟

ـ نعم.

ـ به مغارة عاش فيها عراف مغربي ثلاث سنين، يجاهد من أجل كشف سر الشجرة المباركة، لكنه مات دون أن يصل إلى شيء. دفناه فيها، ومن يومها هجرناها، وتركناها مقبرة له. كلما ذهبت عيني إليها تذكرت الراقد هناك.

يطرق صامتا، ثم يتوه بعينيه بعيدا ويقول:

ـ كان قادما إلى السلطان بصحبة مجموعة من الحرس، قتل قطاع الطريق الحرس، وهددهم هو بأنهم إن قتلوه فلن يبرءوا من شر سحره أبدًا، وأتى أمامهم بأفعال غريبة، فجفلوا منه، وأطلقوه في الصحراء. سار يومين، ووجدناه يترنح على الرمال فأتينا به وطببناه، وأخفيناه عن عيون رجال السلطان الذي جابوا الصحراء بحثا عنه، ثم حملناه على أن يبقى معنا.

ـ جاء من آخر الأرض ليموت هنا.

تدخلت حفصة:

ـ ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غدا. وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾.

ونظر الشيخ يوسف إلى المغارة وقال:

ـ بعد أن دفناه نبتت شجرة على باب المغارة، فشهدنا له بالبركة.

ـ البركة؟

ـ هذا أمر ورثناه عن أجدادنا. إن نبتت شجرة على قبر ميت لنا

شهدنا له بالولاية. نظرنا إلى الشجرة بإكبار. نسقيها ونرعاها، لا نقذفها بحجر، ولا نقطع أي جزء منها ورقة أو غصن أو فرع.

ثم رفع هامته إلى البعيد وواصل:

ـ كنا نعلق على أغصانها خصلات من شعور رءوسنا، وشعور أجسامنا، وخرقا من القماش وأوراقا عليها حروف تحمل رجاءنا.

ـ لكنني لا أرى شجرًا هناك؟

ـ ذبلت فجأة، وقلنا إن الجان الذي يسكنها قد رحل. لم ندر سببا لهذا إلا حين قيل إنك قد عبرت من هنا.

ـ أنا؟

ـ نعم، الجان الذي يسكن الشجرة عرف بقرب مجيئك إلى هنا ففر هاربًا، وتركها بلا روح، فجفت وصارت حطبًا يابسًا في أيام. تعجبنا، لكن عقولنا لم تصل إلى إجابة. وجاء يوم ريح عاتية فقلعها من جذورها. جمعنا كل حطبها المبعثر وحفرنا ودفناها إلى جانب العراف المغربي، وتحسرنا عليها طويلًا.

(٢٤)

توالت الأيام عصيبة. كل صباح يأتيني الشيخ يوسف ووراءه غلام يحمل إبريق القهوة. يجلس ويثرثر بما لا أطيقه. في البداية كان يجذب الحديث مواربًا نحو الشجرة المباركة، ثم بات الكلام بلا رتوش، ومن دون تمهيد، وبعدها أخذ يلح عليَّ إلحاحًا شديدًا، حتى شعرت أنه يعصرني كل صباح ويشرب عصارة غضبي المكتوم دون أن يرتوي.

لا يمر يوم إلا ويأتيني رجل أو سيدة ومعها ولدها أو ابنتها، وتطلب مني أن أرقيها، أو أكتب لها حجابا يحفظها من السوء. أحيانا كانوا يأتون بمرضى يئنون من فرط الوجع، يضعونهم أمامي ويطلبون مني أن أقرأ عليها التعاويذ.

بدأت مع الشيخ يوسف اللعبة منذ البداية، تماما كما بدأتها مع السلطان الغشوم. قلت له وأنا أغمض عيني:

ـ لا بد أن نبدأ والقمر بدر.

ـ ننتظر؟

ـ لا بديل عن الانتظار.

ـ لا بأس، الوقت معنا.

الوقت معه، وكأنه قطع على الله عهدا أن يبقيه حتى يدفنني إلى جانب الساحر المغربي، الذي دفعته منيته إلى هذا المكان الموحش.

هل أموت غريبا؟ ليس هناك ما يدهش أبدًا، فقد عشت غريبا، والغربة زادي أينما حللت. غريب في المحروسة بين تلاميذ الشيخ القناوي الثائر، الذي كانت تعجبه أحيانا براءتي فيقول لي: أيها القروي البكر. وغريب هناك حين هربت إلى الصعيد من بصاصي السلطان الجائر وجلاديه. وغريب في طرف الفضاء البعيد حين أخذتني نار إلى بلاد الجان. وغريب في قصر السلطان المستعار. لم أتآلف مع أي شيء حولي. وهاأنا غريب في الصحراء المفتوحة على الهلاك. ربما تنتظرني غربة جديدة مع الدنيا بأسرها. ألم تقل لي حفصة ذلك غير مرة. هي ترى ما لا أراه، وتعرف ما لا يصل إلى رأسي ولا يمر بخاطري. من أين أنت المرأة التي جلدتها الأيام بهذه المعرفة العميقة؟ تعلمتها من أبيها؟ أم ألقاها الله في قلبها دفعة واحدة؟

لاحظت هي شرودي فقالت:

ـ عدت إلى الغياب؟

ـ أريد الهروب.

ـ إلى أين؟

ـ إلى الدير.

ـ رجال الشيخ يوسف يصلون إلى هناك.

ـ هل نظل حبيسين هنا حتى تُزهق أرواحنا؟

ـ كلٌّ يأتي بأوان.

وتلفتت حولها، وقالت هامسة:

ـ لا تبلغ الشيخ يوسف عن مقصدك.

ـ ألم تقولي الآن إن عيونهم تصل إلى كل الصحراء؟

ـ لكنهم لا يدخلون الدير.

ـ كيف عرفت؟

ـ لا تسأل عما لن يصل إليك الآن.

ـ تعولين عليَّ يا بنت الحاج حسين.

ـ ستتذكر كل هذا في أيام لا تعد ولا تحصى وأنت ذائب في نور يملأ أرجاء خلوتك الطويلة.

ـ يبدو أنني سأدفن قريبا إلى جانب العراف المغربي، ويجلس الشيخ يوسف وأهل قبيلته ينتظرون الشجرة التي ستنبت على باب المغارة من جديد، ليقدموا لها قرابينهم.

ـ شجرتك أنت هناك، ليست على باب مغارة، إنها تحت سفح جبل مديد، أعطته من روحها فاخضرت أحجاره حتى ولو لم يسقط المطر. هناك بالقرب من الماء العذب الجاري بلا انقطاع، حطت اليمامة الموعودة رحالها، وبدأ كل شيء.

ـ الشجرة التي مات من أجلها الحاج حسين؟

ـ هو مات حين عبر إليها دون أن يقبض على الحقيقة كاملة. مات

ساجدًا وهو يسأل الله أن يلهمه كل شيء. أن يفتح له ولو فرجة ضيقة من باب الغيب الكبير. أما أنت فستكمل الطريق.

ـ وأنت يا حفصة؟

ـ أنا لم أصعد إلى الفضاء البعيد، ولم يختلط ريقي بريق الجان، ولم تلسعني جمراته.

ـ أهي نفحة الجان؟

ـ أكبر بكثير، وإلا كانت نهار قد وصلت بك إلى آخر المدى.

ـ أيام نهار قد راحت إلى الأبد. هي قالت هذا قبيل أن تختفي.

ـ انتهت حيلتها، لتبدأ سفرا بلا حيل.

ـ أيمكن أن نستغني عن الحيل؟

ـ حين تتلاشى المسافات بين الجوهر والمظهر، بين ما تختزنه الطوايا وما يراه الناس، بين الرواية والدراية.

ـ كأنني أسمع إلى أبي نصر الفارابي.

ـ نتساوى جميعا أمام الحكمة البسيطة للحياة، لكن أغلب الناس لا يفقهون.

ـ تتواضعين دوما يا حفصة.

ـ فوق كل ذي علم عليم.

* * *

قبل أيام من انتصاف الشهر العربي اشتكت حفصة من وجع في بطنها. وجاء لنا الشيخ يوسف بعشب مغلي، قدمه إليها وقال:

ـ جعيدة.

ولما وجد في عيني تساؤلًا، واصل:

ـ عشب معمر له أوراق جالسة بيضاء مغطاة بزغب أبيض كالقطن، له حواف متموجة ويحمل أزهارًا بيضاء في نورات مكتظة، موطنه بلاد الشام.

ـ وبما يفيد هذا العشب يا شيخ يوسف؟

ـ هذا عشب لا تخبر عدوك به. كان أجدادنا يمضغونه كلما شعروا بوجع في معدتهم بعد أكل الدسم. ويقال إنه يشفي آلام الركب والحمى.

ووضع الشيخ يوسف قطرات من عسل النحل على كأس الجعيدة، ومده إلى حفصة، فابتسمت وقالت:

ـ أشعر أن الدنيا تغيم في عيني، وشرابك تأخر يا شيخنا.

ـ لا تيأسي من رحمة الله يا ابنتي.

ـ سبحانه يرى ما لا نراه.. أحيانا لا ندري في أي وجه يكون الخير لنا.

كانا يتحاوران، وكنت أموت، وكان الصبح يولد على مهل. تملكني شعور غريب والشمس تفرش رداءها البرتقالي على الصحراء أن حفصة تتأهب للرحيل الأبدي، فانفجرت في بكاء حار. لمعت دموعي أكثر في صهد الظهيرة. الشيخ يوسف يذهب ويجيء بأعشاب.

بعضها مغلي فتشربه، وبعضها يطلب منها أن تمضغه. يعطيها العشب فتأخذه في رضاء، وتبتسم وتلوكه صامتة، لكن سخونة رأسها لا تبرد، وريقها الجاف لا يرتوي، وعيناها لا تنقطعان عن النظر إلى جوف السماء البعيد.

كانت تتوجع، وأناتها المتقطعة تنغرس في كبدي، والحيرة تأكلني، والدنيا تغيم من ناظري، وعلى ذهني تترى خواطر مقبضة، تحل تباعًا وتهز أعماقي، وتتركني موزعًا بين اليأس والرجاء.

آه يا حفصة

ألف ألف آه وآه...

يا أيتها الساكنة في أعماقي إلى الأبد، الراقدة أمامي متقلبة في ألم لا نعرف له قرار، انهضي، ومسّي شغاف قلبي بأطراف أصابعك، لعله يكف عن الرجفات المتواصلة التي تكاد أن تخلعه من مقره. ضعيها على عيني كي تبصر ولو ساعة قادمة من هذا النهار الذي يموت رويدًا رويدًا على عتبات الليل.

كلما كانت تستبد بي تباريح الهوى، وأنا أرى محبوبتي تذوي كشمس يظللها الغمام، كنت أضرب يدي في خرجي وأخرج كتاب «طوق الحمامة»، وأتمتم في سري: رحمة الله على ابن حزم الأندلسي، فقد منحني سلوتي الدهر كله.

مع أول الرماد، طلبت حفصة مني أن أقترب منها، فزحفت إليها مرعوبًا. جلست إلى جوارها، فمدت يدها وقالت:

ـ هات يدك يا عاكف.

فمددت إليها يميني، فأخذته وقالت:

ـ هكذا أعطاني أبي العهد قبل أن يسجد سجدته الأخيرة بيوم واحد.

ويدي في يدها، طلبت مني أن أردد وراءها:

«أستغفر الله العظيم، الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، تبت إلى الله ورجعت إلى الله، وندمت على ما فعلت، وعزمت على أنني لا أعود إلى ذنب أبدًا.. اللهم إني أشهدكَ وأشهدُ ملائكتكَ وحملةَ عرشك وأنبياءَك ورسلكَ وكافة خلقكَ وأنت خير الشاهدين على أنني قد اتخذت ورضيت وقبلت أختي هذه في الله تعالى ومرشدًا إليه على طريقة شيخي الحاج حسين، وشيوخه معروف الكرخي وذي النون، والجنيد. وإني عاهدت الله وأعاهد الله وأعهد إلى الله وأشهده على نفسي، بأنني قد التزمت السمع والطاعة لشيوخي، فلا أخالفهم بقلبي ولا بجوارحي ولا بلساني، وقد جعلت هذا نذرًا عليَّ لله تعالى وعهدًا شرعيًّا صحيحًا صريحًا جازمًا ناجزًا باتًّا ظاهرًا وباطنًا ما دمت حيًّا».

بعد أن انتهيت من ترديد العهد، قالت هي:

«اللهم إني قد استخرت الله وأجبت أخي هذا وقبلته أخا في الله تعالى».

ثم أغمضت عينيها، وانتهى كل شيء.

* * *

في صباح اليوم الثاني دفناها في مغارة تواجه مغارة العراف المغربي.

بعد أسبوع واحد رأينا نبتة عفية ترفع رأسها على باب مغارة حفصة.

في اليوم التالي جاءنا خبر موت السلطان الجائر.

في كل هذه الأيام كنت تائها بين الحضور والغياب.

(٢٥)

أربعون يوما مرت من دون أن يكلمني الشيخ يوسف في شيء. كان يأتي في المساء ليجالسني، يفتح الكلام في كل الاتجاهات، لكنه لا يأتي أبدًا على ذكر الشجرة المباركة. في اليوم التالي، جاء كعادته، ولم يتكلم عن أي شيء سوى لهفته على الكنز الثمين. أغمض عينيه كأنه يطلق أحلامه من عقالها، وقال:

ـ راح السلطان الجائر، وجاء ابنه، وبقي الأمر على حاله. حكم لا يرضاه الناس، لكنه باق لأن سنابك الخيل والسيوف والرماح تحول بينهم وبينه.

ـ آفة.

ـ كادت أن تصير أمرًا مألوفًا، لأن الزمن لا يجود بعد برجال يخلعون الظلم، ويعيدون العدل إلى بلادنا.

ـ العدل قليل في كل زمان ومكان.

ـ لكنه مستعص على الفناء، وإلا ما كنا نطلبه الآن.

ـ نعم، إنه كذلك.

ـ لكن العدل يحتاج إلى قوة تحميه.

ـ نعم، هو كذلك.

ـ والقوة نحصلها بالمال.

ـ هو سبيلها من دون شك.

ـ والمال هناك في عروق الشجرة الثمينة.

هاهو الرجل الماكر يصل ما انقطع من إلحاح عن شجرته المتوهمة. لم يكن لديّ سبيل للرد عليه، فلذت بصمت، فتح شهيته أكثر للكلام.

أعاد الحكاية القديمة: سمعت عن هذه الشجرة من أبي، الذي سمع عنها من جده، وجد جدي بحث عنها، وترك لورثته ورقة مرسوم فيها سور القرآن على هيئة شجرة.

لما وجد مني صمتًا، طرق بيده على يدي وقال:

ـ كأن الأمر لا يعنيك يا شيخ عاكف.

ـ بل يعنيني.

ـ سنقتسم الجواهر، وستكون شريكي في الحكم حين تصل جيوشنا إلى قلعة الجبل.

ـ لا جواهر ولا حكم يا شيخ يوسف.

ـ ماذا ؟!!

ـ شجرة الكنز في خيالك أنت، أما في حقيقتها فهي شجرة

مباركة، لا شجر مثلها، إلا ثلاث، واحدة في الفضاء عند ملك الجان، والثانية في قعر البحر المظلم، والثالثة هنا على الأرض، لكن ليس مأذونًا لنا أن نراها.

ـ أتمزح؟

ـ بل هذا هو كل ما عندي.

ـ وما سمعناه من أجداد جدودنا؟!

ـ أساطير تتناقلونها.

ـ أساطير!

ـ لا تزيد عن هذا.

ـ وما دليلك على حقيقة ما تقول.

ـ وما دليلك أنت على أن الشجرة المباركة محملة بالجواهر؟

ـ أكل الذين سبقونا كانوا مجانين؟

ـ ليس جنونا يا شيخنا إنما هي أمنيات الإنسان التي ليس لها نهاية.

ـ الآن عرفت لما هربت من السلطان، لا بد أنك قد كذبت عليه، وربما أدرك أنك تريد أن تستأثر بالكنز الكبير.

ـ صدقني يا شيخ يوسف، أنا لم أكذب على أحد، لكن الأيام جرفتني في هذا الطريق على غير إرادة مني.

ـ أبله أنت؟

ـ كنت مسيّرًا في كل الأوقات، ولم أسترد حريتي إلا قبل أسابيع.

ـ قبل أن تأتي إلى هنا؟

ـ بل وأنا هنا في خيمتكم.

ـ لا أفهمك؟

ـ أخذت العهد على المرحومة حفصة؟

ـ هي؟

ـ نعم.. كانت من أولياء الله الصالحين.

ـ أخذت السر معها؟

ـ كان معها وليس معي، وقبلها كان مع غيري لكن بي. كنت جسرا للعابرين.

ـ أهذه أحجية؟

ـ هي ورثت السرّ الكبير عن أبيها. أما أنا فكنت مطيّة لجنية أغوتني فعشت معها عقودًا من الزمن، أخذتني إلى عالمهم بعيدًا في الفضاء، ورأيت ما لم يمر بخاطري أبدًا. عشقتها وكانت هي تسعى لملكهم في اتخاذي طريقًا إلى الشجرة المباركة.

ـ أوصل الأمر إلى الجان؟

ـ كان ملكهم يريد أن يمتلك شجرة الأرض، التي استعصت على كل من جلسوا قبله على عرش الجان.

ـ حتى الجان يجرون وراء الكنوز.

ـ هم يدركون أنها شجرة مباركة. لم أسمع من الجنية أو من أهلها

قط ما يبين أنهم ينظرون إليها على أنها جواهر ثمينة، كما كان يعتقد السلطان الراحل.

ـ وكما أعتقد أنا.

ـ أنت تساقط عليك الخبر من قلعة الجبل، فتتبعته وكأنه حقيقة لا تقبل الجدل.

ـ أي قلعة يا رجل.. أخبرتك أن أجدادنا كانوا يأتون على ذكر شجرة الكنز كل ليلة في أسمارهم.

ـ وقلت لك إنها أساطير تتوالد بعيدًا عن الحقيقة.

وأصابه صمت مريب، ولم أجد أنا ما أقوله، فأطرقت تائها في ظنون بلا قرار.

ثم قام ونفض ذرات الرمل التي علقت بثيابه، ولوى عنقه نحو المغارتين المتوازيتين، وقال:

ـ دفن السرّ معها.

والتفت إليّ وقال:

ـ قبل أن تأتي إلينا إلى أين كنت ذاهبًا.

فرفعت رأسي إليه ولمحت ما حل بعينيه من جفاء وأجبته:

ـ إلى بلاد الله خلق الله.

وأردت أن أخفف من توتر الموقف وتجهمه، فقلت له:

ـ لك عندي هدية يا شيخنا.

لم يرد، لكنني مددت يدي إلى الخرج وأخرجت منه «المنقذ من الضلال»، ودفعته إليه فأخذه، وقال من دون أن يفارقه التجهم:

ـ هدية مقبولة.

* * *

قبل أن تسقط الشمس خلف الجبل كنت أمتطي جملي، وأدفعه بعصاي صوب الشرق، فيَهم قاطعًا الطريق بخطوات وسيعة. عند انحناء الصخر الصوان، أوقفته وأنخته، وجثوت على ركبتي أمام مغارة حفصة. لم يكن هناك ما أقوله، لكن الدموع التي أبلت الصخر تحتي وتناثرت على ساق الشجرة النابتة على باب المغارة أشعرتني أن كل أيامي المقبلة عذاب في عذاب. دخلت على مهل، وجلست فوق ترابها، قرأت الفاتحة، وحفنت منه ثلاث حفنات ووضعتها في قطعة من شالي وصررتها، ودستتها في جيبي، ثم مددت يدي وقطفت [illegible] من الشجرة الصغيرة، وقمت متثاقلا إلى الجمل الذي كان خواره يتساقط عند جذع الشجرة الصغيرة فيطوقه بريم أبيض.

ضربت يدي في الخُرج، وأخرجت «طوق الحمامة» وفاضت عيناي وأنا أقرا في «باب السلو» عن الأسباب الموجبة له:

«ثم سبب ثامن، وهو لا من المحب ولا من المحبوب، ولكنه من الله تعالى، وهو اليأس، وفروعه ثلاثة: إما موت، وإما بَيْن لا يُرجى معه أوبة، وإما عارض يدخل على المتحابين بعلة المحب التي من أجلها وثق المحبوب في غيرها... وإن لليأس لعملًا في النفوس عجيبًا، وثلجا لحر الأكباد كبيرًا، وكل هذه الوجوه المذكورة أولًا وآخرًا فالتأني فيها واجب، والتربص على أهلها حسن، فيما يمكن

فيه التأني، ويصح لديه التربص، فإذا انقطعت الأطماع، وانحسمت الآمال فحينئذ يقوم العذر».

ثم ألقيت السلام على قبرها، ركبت وانطلقت إلى دير القديس أنطونيوس، وأمامي على جمل ربط في ذيله ناقة حفصة دليل قال له الشيخ يوسف:

ـ أبلغه مقصده.

لويت عنقي نحو المغارة التي ينام تحت ترابها جسد المحبوبة، حتى انحنى الجبل فحجز عنها ناظري.

وسرى الليل في أوصال الصحراء فاسودت، ثم بزغ القمر فبان أمامنا الطريق، وعند ظهر اليوم التالي أطل جبل الجلالة القبلي.

(٢٦)

ما إن وصلت إلى الدير حتى رحت أنادي بأعلى صوتي على الراهب حنين بن إسحق، فجاءني صوت من خلف السور:

ـ من يريده؟

ـ أنا عاكف. عاكف صديق برسوم، من كنيسة أبي سرجة.

ـ أهلا يا شيخ عاكف.

ثم وجدت حبلا يتدلى ينتهي بلوح خشب عريض سميك. وقال لي صوت لم أر صاحبه:

ـ ضع قدميك على اللوح، وأمسك الحبل، وسنرفعك.

وهنا قال لي الدليل:

ـ انتهى واجبي.

فمددت يدي إلى يده، وعانقته لأودعه:

ـ صحبتك السلامة.. بلغ سلامي إلى الشيخ يوسف العلبقات.

ودسست في يده بضع دنانير، هي آخر ما كنت أحتكم عليه.

دخلت إلى الدير، سلمت الجمل والناقة إلى الراهب، ولم يبق لي من حطام الدنيا سوى كتبي.

لم يكن الدير كبيرًا، كان على مساحة لا تزيد على ثلاثة أفدنة، به عدة كنائس، ومكتبة بها مخطوطات عديدة. قال لي الراهب حنين أبو إسحق وهو يشير إليها بكل أصابع يده اليمنى:

ـ يمكنك أن تجد هنا كتبا نادرة.

بعد أسبوع طلبت من الراهب أن يساعدني في بناء زاوية إلى جوار الدير، فجاء إليَّ بسبعة رجال، وقال لهم:

ـ ابنوا زاوية الشيخ عاكف في المكان الذي يريده.

اخترت مكانا على يمين الدير، وجاء الرجال بأحجار متساوية، وكومة كبيرة من الحصى المخلوط برمل أصفر، وقالوا عنه إنه «حيبة» صبوا عليها الماء، ثم حفروا في الأرض مربعا غير عميق، وبدءوا في صب الخليط في الأضلاع الأربعة المحفورة، وراحوا يرصون الأحجار، لتصنع مدماكا فوق مدماك، حتى بدأت ملامح الزاوية تتضح. انتهوا من البناء، فأتوا بجريد النخل، وسقفوا به الحجرة المبنية، ووضعوا فوقه حصر ورموا فوقها الحيبة المبللة. أما أنا فكنت مشغولًا بغرس البرعم الحي من شجرة حفصة. زرعته أمام الزاوية، وسقيته، وقلت في نفسي: شيء من أثرها.

بعد أيام زرعت صبارًا حول الجدران ليقيها الزوابع. تهب الريح قوية في أيام عديدة فيغرس الصبار شوكه في عين الهواء المتدفق بقوة فيتباطأ قليلا، أو يلوي عنقه ويهرب في المسارب الجانبية.

* * *

كانت شجرة حفصة تكبر أمامي، لكن شيئا ما لا أعرفه حفظ لي جسدي دون أن يكبر. كان كما جئت به، وجه بلا تجاعيد رغم تقادم السنين. أقوم فينصلب طولي بلا انحناء، أمشي فتتسع خطاي. سنين مرت تعاقب فيها أساقفة وقسيسون ورهبان على الدير، كل شيء تغير وبقيت أنا وجبل الجلالة بلا تغيير. وسارت حياتي على وتيرة واحدة دون ملل، ساعات طويلة أقضيها في الصلاة وقراءة القرآن والتهجد، وساعات مثلها أستغرق في تأملات عميقة تضعني على حافة الغياب، وأحيانا أضرب بفأسي العريضة المتآكلة سنونه في الأرض البراح أمامي فينبت فيها القمح والرياحين.

أولي وجهي شطر الجبل طيلة النهار، أرقبه ولا أبعد نظري عنه، حتى صرت عارفا كل شقوقه وانزلاقاته ونتوءاته. أذهب إليه أحيانًا، أمتطيه وأتابع النمل الذي يدب هنا وهناك في حركة لا تنتهي، كأنه يسابق الزمن.

أرفع يديّ إلى السماء التي تظللني وأنادي ربي وأناجيه وأقول له بعينين تفيضان حمدًا ورضًى:

يا رازق الدودة السوداء،

في الصخرة الصماء،

في الليلة الظلماء،

لا تكلني إلى نفسي، ولا تجعل الدنيا مبتغاي.

سنوات مرت لا أعرف عددها في صلاة وقرآن وتهجد وتأمل. وأنا متقلب بين الحضور والغياب، بين الصحو والمحو.

نهار وليل. شمس وقمر. ريح وسكون. غبار وصفاء. برد وحر. أيام تمضي وسنون يركب بعضها بعضا، وأنا لا أحسبها.

يأتي الزائرون إلى الدير، فرادى وجماعات، ثم يمضون في طريقهم إلى بلادهم. بعضهم يتوقف أمام زاويتي متعجبا. وبعضهم يمضي في سبيله من دون أن يعيرني أي اهتمام. بعضهم يطلب جرعة ماء من قلّتي الباردة دومًا، وبعضهم يطلب كسرة خبز مما يأتيني من الدير. كل صباح ومساء ينادي عليَّ أحد اليافعين:

ـ يا شيخ عاكف.

ثم يطرق باب الزاوية ويضع طاولة الطعام وينصرف في صمت.

وفوجئت ذات صباح برجل عجوز يمشي على مهل، رأسه إلى الأرض، وعيناه كليلتان، وينادي بصوت مبحوح واهن:

ـ يا شيخ عاكف.

فألقيت رأسي خارج الزاوية ومددت عيني بقوة لأتبينه. لم يمدني بصري بشيء، فأمدتني بصيرتي. نعم هو، سحنته محفورة في الذاكرة، تتجدد كلما حلت الذكرى، وكلما أرسل إليّ مع أحد القادمين من

المحروسة إلى الدير رسالة يسلم فيها عليَّ، ويخبرني بما يجري هناك، ويطلب مني أن أعود.

لم أعد فجاء هو. نادى مرة ثانية، فقلت له مبتهجًا:

ـ تعال يا برسوم.

قمت إليه آخذ يده، وهو يسير بجانبي متكئًا على خطواته الوئيدة، يغرس عصاه في الجيب، ويلهث طالبا أن نجلس سريعًا.

ـ جئت راكبًا جملًا ضامرًا، فتوحدت معه، وعانينا سويًّا في الطريق.

ـ عملت طيب، كنت أشتاق لرؤياك.

ـ وأنا كذلك يا عاكف. كم كنت أتمنى أن تعود لنعيد أيام الصبا.

ثم التفت إليَّ، وأمعن النظر في ملامحي وقال:

ـ غريب يا عاكف، لم تتغير وكأني قد تركتك بالأمس.

ـ هذا أمر علمه عند ربي، وأنا لا أتوقف عنده كثيرا.

ـ وجهك لم تغزه التجاعيد، وشعرك فاحم السواد، كأن الدنيا لا تلقي عليك أحمالها أبدًا.

ـ لا يهمني الجسد، أنا أرعى الروح، فلها السلطان.

فابتسم وقال:

ـ على ذكر السلطان. السلطان الجديد استقدم عرافًا مغربيًّا، وبدأ رحلة أخرى في البحث عن الشجرة المباركة. وجد عنها ورقة

في أضابير قلعة الجبل، وكان كل من سبقوه قد أهملوا البحث إهمالًا مفرطًا بعد أن استبد اليأس بهم.

ـ يضيعون وقتهم في الجري وراء الأساطير.

ـ أهي أسطورة؟

ـ وجود الشجرة المباركة حقيقة ناصعة كالشمس، لكن اعتقادهم في أنها تحوي كنزًا ثمينًا هو الأسطورة بعينها.

ـ هل اقتربت أنت من كشف السر العظيم؟

ـ الطريق لا يزال طويلا يا برسوم.

وملأ برسوم عينيه بالشجرة الوارفة الواقفة أمام الزاوية وقال:

ـ أهذه شجرة حفصة؟

ـ نعم.

ـ طالما حدثتني عنها في كتاباتك إليَّ.

ـ أنت الوحيد في هذه الدنيا الشاهد على ما كان بيني وبينها يا برسوم.

ـ مررت بمغارتها في الطريق.

ـ أزرتها؟

ـ نعم. قلت للدليل أن يرشدني إليها، فذهب بي إلى هناك. أنخت جملي، وجثوت على ركبتي، وشممت من عطر شجرتها، وتراب قبرها الذي يفوح منه الزعفران.

ـ لم يكن لها مثيل.

ـ نعم، وإلا ما وقع السلطان الغشوم في عشقها من أول نظرة، ولما قضى ليله ساهرًا، وعسسه يبحثون عنها في كل مكان في المحروسة، جابوا الميادين والشوارع والحارات والعطوف والأزقة، فتشوا حتى جدران الحوائط. نسي السلطان الشجرة الكنز، ولم يتذكر سوى لهفته ولوعته على فقدان حفصة. ظل حتى اليوم الأخير في عمره يبحث عنها، وعنك أيضا.

ـ نجاني الله منه.

ـ سخّر لك الشيخ يوسف العليقات، فواراك عنه، وإلا وصل إلى هنا.

ـ كيف؟

ـ وصفك العسس للناس، فدلهم البعض على أنهم رءوا رجلا بأوصافك يعبر المقطم إلى الصحراء الشرقية. كان هذا بعد رحيلك بستة أشهر، فركبت خيل كثيفة الرمل بحثًا عنك، حتى وصل أولهم إلى خيمة الشيخ يوسف. سألوه فضللهم. طلبوا منه أدلة فأمر أدلته أن يأخذوهم ناحية الصعيد ففعلوا، فعادوا بخفي حنين.

ـ الشيخ يوسف فعل هذا من أجلي؟!

ـ بل من أجل نفسه. كان يبعدك عن السلطان حتى يقع الكنز في حجره هو. الدليل الذي أوصلني إلى هنا يعرفك جيدا، وقال لي إن الشيخ يوسف كان يرسل رجالًا ليطمئنوا عليك من بعيد، مات وهو يعتقد أنك تعرف السبيل إلى الشجرة لكنك تضن به عليه، لتستأثر بالكنز.

ـ مات الشيخ يوسف؟

ـ وطلب من أهله أن يدفنوه تحت جذع شجرة حفصة، ويضعوا على قبره حجرا حفروا في صفحته اسمه، وتحته: «ودفن هنا في رحاب العفيفة الطاهرة».

ـ غريب أمر هذا الرجل.

ـ بل غريب أمرك أنت.

ـ أنا؟

ـ مات السلطان الغشوم منذ ثلاثين سنة، وتعاقب على عرش مصر خمسة بعده، ونسي الناس هناك حكايتك، ولو هبطت إلى المحروسة بأي اسم تختاره لعشت حياتك كما تشاء، لكنك رفضت العودة دومًا، واسترحت إلى هذا المكان المقفر، الذي لا يتحمله سوى الرهبان.

ـ فلتعتبرني راهبا.

ـ أعرف أنه لا رهبانية في الإسلام، فلِمَ تضيق ما لم يفرض عليك؟!

ـ لكن في الإسلام خلوة، وللصوفي أن يعتزل الناس إن أراد، ورسولنا كان يبتعد عن قومه ليتعبد في غار حراء.

ـ أنت صنعت غارك.

ـ الغار والمغارة هناك حيث حفصة، أنا هنا جسد حبيس بين جدران الزاوية، وعين طليقة في المدى، وروح تحلق بعيدًا في الأقاصي.

ـ هل ستقضي بقية عمرك بين الصخور والرمل والزواحف التي تدب بلا هوادة.

ـ أنا هنا حتى يقضي الله أمرا كان مفعولًا.

ـ يمكنك أن تذهب إلى حيث قبر حفصة، فتعيش بين أهل قبيلة العليقات.

ـ أريد أن أختلي إلى نفسي، بعيدا عن الناس.

ـ ألم تكفك ثلاثون عاما في عزلة.

لم أجب وساد صمت، وتاه كلٌ منا في دوامة هوائية مترية، راحت تدور في مكانها وتتسع حتى طوقت الزاوية والدير، وأطلق الريح صفيره، وربضت الزواحف في جحورها، وتناثر الذباب كأنه غير موجود، ثم هجم الريح فغامت الدنيا.

نظر برسوم إلى السماء بعينين كليلتين وقال:

ـ هدايا أمشير.

ثم قام يتوكأ على عصاه، وقال:

ـ سأعود إلى الدير الآن، وآتي إليك في المساء.

ياه يا برسوم، هيجت ذكرياتي، وقلبت مواجعي، وأشعرتني بعدد السنين التي مرت عليَّ وأنا هنا معلق بين الأصفر والأزرق، بين الصحراء والسماء، بين أيام راحت وتساقطت خلف ظهري كزرع تيبس وهوى وداسته أقدام العابرين، وأيام قادمة لا أدري عنها شيئًا، ولا دليل لي فيها سوى كلمات حفصة الأخيرة:

«ستتذكر كل هذا في أيام لا تعد ولا تحصى وأنت ذائب في نور

يملأ أرجاء خلوتك الطويلة».... «شجرتك أنت هناك، ليست على باب مغارة، إنما تحت سفح جبل مديد، أعطته من روحها فاخضرت أحجاره حتى ولو لم يسقط المطر. هناك بالقرب من الماء العذب الجاري بلا انقطاع، حطت اليمامة الموعودة رحالها، وبدأ كل شيء».

(٢٧)

في المساء جاء برسوم وبيده رقعة من جلد، وضعها أمامي وقال:

ـ حدثت الراهب في أمر الشجرة، فأعطاني هذه الرقعة، وقال إن فيها ذِكرًا لها.

ومدَّها إليَّ، فرددتها، وقلت له باسمًا:

ـ قضيت عمري أستجلي الحقيقة من الرقاع والقراطيس، فلم أصل إلى شيء.

ـ هذا عيبك وليس عيب القراطيس.

ـ أعلم هذا، لكني أصبحت متيقنا من أنني إن لم أصل إلى ما في أعماقي لا يمكن أن أحط بها في بطون الكتب وما تنطوي عليه الرقاع.

ضحك برسوم وقال:

ـ تغيرت كثيرا يا عاكف. في الزمان الأول لم تكن تصبر برهة واحدة على النظر في أعماقك.

ـ كنت خارجًا على كل شيء، حتى على نفسي.

ـ واليوم على من تخرج؟

ـ على كل ما علق في قلبي من دنس، وما في عقلي من خبل، وما في جسدي من شهوة.

ـ رهبنة هي؟

ـ سمّها ما شئت، ما يهمني أنها مجاهدة، تحلّي وتخلّي، ومفارقة لما ولّى.

وصمت برهة ثم قال:

ـ جاءت الليلة رسالة من المحروسة تقول إن الناس قد خرجوا إلى الشوارع ينادون بالقصاص من السلطان.

ـ جوْر وراء جوْر، والعدل بات خيالًا.

ـ لكن هناك دوما من لم يكفوا يوما عن طلب العدل.

ـ نعم، ولولا هؤلاء لأظلمت الدنيا، لكن طلاب العدل يتعاقبون كفصول السنة، كلّ يؤدي ما عليه ويفسح الطريق لغيره.

ـ ظني أنك تريد أن تهرب.

ـ بل أريد أن أستريح.

ـ يخرجون في المحروسة وأنت قاعد هنا تحت الصخر وفوق الرمل وأمام الفراغ.

ـ ألملِم أشلاء نفسي، وحين أجمع أشتاتها قد أعود من جديد.

ـ أو تهرب إلى الأبد.

- ربما.

- ولِمَ؟

- لما تسميه أنت هروبا، إنه امتلاك لجواهر الذات.

- أو وهنٌ أصابك؟

- أريد أن أعرف نفسي، وهذه بداية التمكن.

- أهذا قرارك الأخير؟

- قرار ومستقر.

- هنا حتى المات.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ (لقمان: ٤٣).

- سترحل إذن؟

- قدري أن أموت تحت أقدام الشجرة المباركة، هكذا قالت لي حفصة، وهي لم تكذب عليَّ أبدًا.

ورحل برسوم في صباح اليوم التالي، ولم أره بعدها على الإطلاق.

مكثت مكاني سنين لم أعتن بعددها، لساني يلهج بالقرآن والتسابيح، وقلبي يرفرف في جوف السماء، وذهني شارد في صفاء كأني سكران دون خمرٍ، ومخمور دون سكرٍ، وجسدي يخف حتى ظننت أنه سيطير. وانشطرت حياتي إلى نصفين، نهار غارق في التأمل،

وليل تزورني شخصيات نورانية، لم أشهد مثلها في دنيا الناس، بات بيننا حديث متواصل عن أسرار الكون الفسيح.

حين يطلع النهار تشتعل في رأسي أسئلة جديدة، أغرق في تفاصيل لا حصر لها بحثًا عن إجابة، لكنني لا أحصد سوى القليل. يجن الليل وأغمض عيني سبات عميق فتتهادى الإجابات، وتنكشف الأسرار.

* * *

ذات ليلة وبينما أنا بين النوم والصحو، أتقلب كأن تحتي جمرًا، رأيت العجب. انفلق الصخر وخرج منه كائن غريب، وراح يمشي نحوي. شيء لا أعرفه جعل خوفي يذوب، وشجاعتي تستيقظ من سباتها. قمت ووقفت، ثم تقدمت نحوه. اقترب أكثر فاقتربت. رفع بوزه فرفعت هامتي، ثم أطلق صوتًا كأنه لحن مذهل. وانبلجت عيناه بنور مبهر، ثم خرج من جوفه هواء مشبع برائحة طيبة نفاذة، راحت تتغلغل في مسامي، حتى تشبعت بها تماما، وعندها قلت له، وأنا غارق في نشوة غريبة:

- من أنت؟

فقال على الفور:

- أنا البادوق.

- لا أعرف شيئًا بهذا الاسم.

- ولا أحد يعرفني على الأرض سوى الشجرة المباركة.

- الشجرة المباركة؟

ـ أليست مبتغاك؟

ـ بلى.

ـ جئت لآخذك إليها.

ـ أنا؟!

ـ أنت.

ـ أنا؟!

ـ مئة سنة وأنت تنتظر... أليس هذا بكثير؟

ـ مئة سنة؟!

ـ وقبلها عشت ثلاثين تجاهد مع الشيخ القناوي؟

ـ أتعرف القناوي؟

ـ خادم الشجرة المباركة يعرف الكثير عنك.

ـ من أخبرك؟

ـ التي تنتظرك لتحط رحالك تحت ظلها الوارف.

ثم اقترب مني أكثر، ومد رجله الأمامية فعلقت بها، ونهضت معه، ورأيت من نور عينيه المنبلجتين آثار قدميه على الرمل، وشعرت بشيء يسري في دمي، كأني وضعت في يدي كل الأحجار الكريمة على وجه الأرض. ارتياح لم أحس به من قبل، شهيق وزفير برائحة لم أعهدها، ورغبة عارمة في التحليق عند النجوم الزاهية.

وقلت له:

ـ أين المسير؟

فرفع بوزه إلى الجبل، وقال:

ـ سنشق الصخر حتى نصل إلى الشجرة.

فربت على كتفه العريض وقلت:

ـ قبل أن تأخذني إلى هناك أريد أن أذهب إلى مكان يبتعد عن هنا مسيرة يوم وليلة.

فسمعت قهقهة أشبه بلحن عذب، ثم قال:

ـ لا تقلق سنمر على قبرها.

ـ حفصة.

ـ هي هي.

ـ أتعرفها؟

ـ قبل أن تعرفها أنت.

ـ كيف؟

ـ ألم يقل لك أحد النورانيين الذين يزورنك في الليل أن الكون مملوء بأسرار لا نهاية لها.

ـ قال وصدقته.

ـ لِمَ تسأل إن كنت متيقنًا؟

ـ لا يثبت اليقين على حال، وإلا صرنا آلهة.

ـ نعم.

التقطت المصحف وكتاب «طوق الحمامة في الألفة والألاف» وملحفة وحصيرًا من البوص وقلة ينشع الماء من مساميها الضيقة، فقال البادوق:

ـ لا حاجة لك إلى شيء تعيش به، هات المصحف والكتاب فقط.

وخرجت وراءه. مشى على مهل حتى وصل إلى أول الجبل، ثم التفت إليَّ وقال:

ـ هات يدك.

مددتها فأمسكها ببوزه، وجذبني إليه ثم شب واقفًا على قدميه الخلفيتين، وطوقني بقدميه الأماميتين فغصت تمامًا في شعره الكثيف. ثم دخل إلى قلب الصخر، وخرجنا عند قبر حفصة.

كانت الشجرة التي نبتت عند قبرها قد صارت دوحة كاملة، تفوح منها رائحة طيبة، والرمل الراقد عند بداية جذعها الفارع بدا كالحناء.

ابتسم البادوق وقال:

ـ ودّعها، فلن ترى هذا المكان أبدًا بعد اليوم.

جَثوتُ على ركبتيّ، وملت برأسي على قبرها، وتوالت صور الزمن البعيد. حفصة أمامي كأني أراها، وكأن أصابعي ستلمسها إن مددت يدي لأصافحها، وكأن عينيها ترى خجلي وارتباكي والدموع

المختزنة في مقلتي، وشفتيَّ اللتين ترتعشان من وطأة الحروف، ورأسي المثقل من فرط الانشغال بها.

آه يا حفصة. استدار الزمن، وتسربت السنون من بين أصابعي. أنت مستريحة الآن في الملكوت الأعلى، وأنا معذب بالانتظار. ما يزيد على مئة عام وهيئتي على حالها، كأنني لا أزال أدب وراء القناوي في شوارع المحروسة منتظرًا لحظة الانقضاض على السلطان الجائر. تعاقب السلاطين، وغارت في نفسي كل حالات التمرد. واحدة بقيت مشتعلة طيلة الوقت، إنها الانتصار على نفسي. ألم تقولي لي ذلك ذات يوم يا حفصة. هاهو الكائن القوي الوديع الذي يسمى البادوق يخبرني بأنني وصلت إلى غايتي، أنني علوت على شهواتي. تساميت حتى صرت غريبًا على الجميع، قريبا إلى نفسي. وصلت إلى الغاية التي جاهد أبوك من أجلها ولم ينلها. ربما كانت الأقدار رحيمة به. فمن يدري أين يكون الخير؟ ذاهب أنا مع البادوق إلى غايتي، لكن لا أعرف إن كنت سأبقى سعيدًا أم تعيسًا؟

وحفنتُ من تراب قبرها، وملأت جيوبي، ثم وقفت فأخذني البادوق، وانبعث في ظلمة الصخر. لم أدر كم مر من الوقت حتى خرجت إلى النور. رأيت نهرًا رائقًا وشجرًا وارفًا وقمرًا يحط على الشاطئ الآخر، ويرمي في الماء دنانير لا تحصى من الذهب، ورأيت شبحًا يملأ الأرض يحط تحت الصخر، فصرخت في البادوق:

ـ ما هذا؟

فضحك وقال:

ـ سينكشف لك كل شيء، فاصبر.

ـ نفد الصبر منّي.

ووقف على رجليه الخلفيتين، ومد رجله اليمنى، وقال:

ـ الآن وهنا انتهت مهمتي.

ثم استدار واختفى في بطن الجبل.

وتقدمت ببطء في وجل، واجتاحني شعور بالجلال لم أعهده من قبل. راحت تتكشف فأكبرتها، وصرخت بكل كياني:

ـ يا رب كل شيء.. ما أبدع خلقك.

فأتاني صوت من أحشائها:

ـ هذا مكانك فحط رحالك.

فملأني ذعر، لكنني لم ألبث أن تماسكت، وقلت:

ـ حللت بعد رحلة شاقة.

فرد الصوت:

ـ وهنا ستكون نهايتك السعيدة.

فقلت وأنا أغالب دموعي:

ـ لا تدري نفس بأي أرض تموت.

فعاجلني الصوت:

ـ أرضك نادتك فخل الدنيا وراء ظهرك.

ابتسمت في اطمئنان:

ـ ما شعرت براحة تماثل ما أنا فيه الآن.

وأردفت:

ـ راحة بعد تعب. ارتواء بعد ظمأ. شبع بعد جوع..

وامتلأ المكان بقهقهة مجلجلة:

ـ فما بالك لو ذقت ثمرة.

مددت يدي وذقت فاشتعل جسدي نشوة، وتسامت روحي وطارت فوق الماء والجبل، ثم حلقت في جوف الفضاء البعيد. وجثوت على ركبتي ورفعت يدي إلى السماء ودعوت الله أن يديم نعمته عليَّ. ملت على جنبي فتوسدت النجيل. كان ناعمًا كالحرير، لينًا كالقطن، دافئًا قليلًا كليالي الصيف. وأطلت هناك مغارة من البنعة التي رحل منها البادوق، وناداني هاتف:

ـ هذا بيتك.

وأحسست فجأة أن جلدي عارٍ. مددت يدي فلم أجد ملابسي. وقفتُ مذعورًا، ووضعت كفي على عورتي. فجاءني صوتها:

ـ لا عليك، لا أحد يراك، ترى نفسك فقط. ارفع كفيك إلى السماء، واترك نفسك للأيام، ستتوالى عليك سنون لا تتعب في عدّها. لا تشغل نفسك إلا بما لا يشغل الناس، وطب مقامًا أيها العبد الصالح.

استلقيت على ظهري، وتاه بصري في الأغصان والأوراق والثمار، وضاع أنفي في رائحة لم أشمها من قبل. ارتفع وجيب قلبي. وخالط زقزقة عصافير، رنت لحنا لم أسمعه يومًا من أيامي. ورأيت هناك

يمامة بنيّة فاقع لونها تسرّ الناظرين. عيناها وسيعتان وكأنها غمستها في قارورة كحل. كانت تنظر إليَّ بامتنان، ثم ترفرف بجناحيها، فيتراقص داخلي فرح عميم.

وفاضت عيناي بدموع غزيرة، وتاه عقلي في مسارب لا نهاية لها، وشعرت برغبةٍ في النعاس، لكن النوم لم يأت أبدًا، بقيت بين صحوٍ ونوم، وحضورٍ وغياب، ووعي وسكر، وشعرتُ أن الزمن توقف، وفارقتني رؤى الليل وأحلامه إلى غير رجعة، ونسيت كل ما جرى ورائي من عاديات الأيام، حلوها ومرها. لم يبق في ذاكرتي سوى وجه حفصة، وبيرق الحاج حسين، وعكاز الشيخ القناوي، ومشاهد متناثرة من أيامي الغابرة في قريتي العزلاء المنسيّة.

هوامش

١- كان العوام يطلقون على صاحب العسس «والي الطواف».

٢- الشلاق هم الرجال الذين يروعون الناس، ومفردها شلق، وكان يطلق عليهم في العصر المملوكي «شلاق الزعر»، وهم أناس أخلاقهم رديئة.

٣- تمت مراجعة النص على ما ورد في سيرة ابن هشام، الجزء الثاني.

٤- يحتفل اليهود بهذا العيد بمناسبة ذكرى نجاتهم على يد امرأة تدعى أستير من بطش الوزير الفرعوني هامان، ولذا يطلقون عليه «عيد الفوز» أو «عيد أستير».

٥- المرط هو ملاءة فضفاضة كانت ترتديها المرأة في العصر المملوكي، وأطلق عليها البعض اسم البغلطاق والحلة والفرجية والكاملية والمحلفة والشاية أو السابة.

٦- الروك في عهد المماليك هو عملية المسح الشامل لأراضي الدولة وحصرها وقيدها في سجلات، مع تقدير قيمتها ومستوى

خصوبتها، وهو الإجراء المعروف في عصرنا الحالي بعملية «فك الزمام»، وقد كان سلاطين المماليك يعيدون توزيع الإقطاعات عقب الانتهاء من عملية الروك تلك، والتي جرت أكثر من مرة في العصر المملوكي.

المؤلف في سطور

*- ولد بقرية الإسماعيلية محافظة المنيا من أعمال جمهورية مصر العربية في ٢١ ديسمبر من عام ١٩٦٧.

* - تخرج في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية/ جامعة القاهرة عام ١٩٨٩، وحصل على الدكتوراه في العلوم السياسية عام ٢٠٠١.

* * *

صدرت له الأعمال الإبداعية الآتية:

١ - عرب العطيات، مجموعة قصصية.

٢ - حكاية شمردل، رواية.

٣ - الأبطال والجائزة، قصة للأطفال.

٤ - أحلام منسية، مجموعة قصصية

٥ - جدران المدى، رواية.

٦ - زهر الخريف، رواية.

٧ - التي هي أحزن وقصص أخرى، مجموعة قصصية.

صدرت له الكتب الآتية:

١ـ النص والسلطة والمجتمع: القيم السياسية في الرواية العربية.

٢ ـ التنشئة السياسية للطرق الصوفية في مصر: ثقافة الديمقراطية ومسار التحديث لدى تيار ديني تقليدي.

٣ ـ وزارة العدل المصرية: سيرة مؤسسية.

٤ ـ ممرات غير آمنة: تهديد الراديكاليين الإسلاميين لوسائط نقل الطاقة.

٥ ـ التحديث ومسار البنَى الاجتماعية التقليدية: حالة اليمن.

٦ ـ الفريضة الواجبة: الإصلاح السياسي في محراب الأزهر والإخوان المسلمين.

٧ ـ العلاقات الخليجية ـ المصرية.

٨ ـ أمة في أزمة: من أمراض العرب السياسية في الفكر والحركة.

٩ ـ أصناف أهل الفكر.

١٠ ـ الإيديولوجيا: المعنى والمبنَى.

١١ ـ حناجر وخناجر: دراسات حول الدين والسياسة والتعليم في مصر.

١٢ ـ العودة إلى المجهول: راهن الإصلاح في مصر ومستقبله.

١٣ ـ الطريق إلى الثورة: التباشير والنبوءة... الانطلاق والتعثر.

١٤ ـ التغيير الآمن: مسار المقاومة السلمية من التذمر إلى الثورة.

١٥ ـ بهجة الحكايا: على خُطى نجيب محفوظ.

١٦ ـ فرسان العشق الإلهي.

الجوائز مرتبة تنازليا:

١ ـ جائزة الدولة للتفوق في العلوم الاجتماعية ٢٠١٢.

٢ ـ جائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي في مجال القصة القصيرة ٢٠١١.

٣ ـ جائزة الشيخ زايد للكتاب في فرع التنمية وبناء الدولة عام ٢٠١٠.

٤ ـ جائزة غانم غباش للقصة القصيرة عام ٢٠٠٣.

٥ ـ جائزة أنجال هزاع بن زايد لأدب الأطفال عام ٢٠٠٣

٦ ـ جائزة «القصة والحرب» المصرية عام ١٩٩٥.

٧ ـ جائزة في مسابقة «القصة القصيرة» التي نظمتها جريدة أخبار الأدب المصرية عام ١٩٩٤، وسلمها الأستاذ نجيب محفوظ.

٨ ـ الجائزة التشجيعية في القصة القصيرة عن رابطة الأدب الإسلامي العالمية عام ١٩٩٢.

٩ ـ جائزة «الفقه والدعوة الإسلامية» التي تشرف عليها هيئة قضايا الدولة في مصر، ويشارك في تحكيمها مفتي مصر، ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وبعض مشايخ الأزهر ومستشارون من الهيئة، وبعض الشخصيات الفكرية والفقهية المرموقة، وذلك عن عامي ١٩٩١ و١٩٩٢ على التوالي.

١٠ ـ نوط الواجب العسكري من الطبقة الثانية عن حصوله على المركز الثاني في نهاية تخرج الدفعة ٨٩ من كلية الضباط الاحتياط، أثناء فترة تجنيده.

تُقدم نموذجًا متفردًا في الرواية العربية، يضاهي أدب أمريكا اللاتينية في واقعيته السحرية، لكنه في الحقيقة يناظره من دون أن يأخذ عنه.

د. صلاح فضل

تخفي الرواية وراءها جهدًا كبيرًا مبذولا، وذائقة مدربة، صقلها الاطلاع على موروث طويل لا سيما عالم التصوف الرحب.

د. حسين حمودة

تمثُل سحر السرد العجائبي، الذي ينهل من الصوفية، ويبحث عن مصير الإنسان، وحالات الوجود، وسحر الشرق.

د. السعيد الوراقي

تمزج الفانتازي بالحقيقي، وتعتمد لغة شاعرية، وتنطوي على العديد من القيم الإنسانية الخالدة.

د. يسري عبد الله

استمتعت بقراءة رواية عذبة وملحمية، تثبت أن خلفها أديبًا يمتلك قدرة كبيرة على خلق عالم مواز.

د. علاء الأسواني



عمار علي حسن؛ من مواليد ١٩٦٧، وحاصل على الدكتوراه في العلوم السياسية. وعضو اتحاد الكتاب ونقابة الصحفيين. صدرت له مجموعتان قصصيتان هما «عرب العطيات» و«أحلام منسية» وأربع روايات هي «حكاية شمردل» و«جدران المدى» و«زهر الخريف»، وله قصة للأطفال بعنوان «الأبطال والجائزة»، علاوة على ثمانية عشر كتابا في النقد الأدبي والتصوف والاجتماع السياسي. وقد حصل على العديد من الجوائز منها «جائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي في القصة القصيرة ٢٠١١» و«جائزة أخبار الأدب في القصة القصيرة» و«جائزة الدولة للتفوق في العلوم الاجتماعية» و«جائزة الشيخ زايد في التنمية وبناء الدولة».



دار الشروق

www.shorouk.com